القصص الشعبي

فيروز شاه

بقلم:

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الأولى

٢٠٢٤

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

سلسلة القصص الشعبي

تصميم الغلاف:
محمد عطية

التصميم الداخلي:
محمد المليجي

جوهر، حسن.
فيروز شاه/ بقلم: حسن جوهر، محمد أحمد برانق، أمين أحمد العطار.
ط 1 - القاهرة: دار المعارف، 2023.
216 ص، 24 سم.
تدمك 9 9407 02 977 978
1 - القصص التاريخية.
2 - القصص الشعبية.
3 - فيروز شاه، جلال الدين، 1220 - 1295م
(أ) برانق، محمد أحمد. (مؤلف مشارك)
(ب) العطار، أمين أحمد. (مؤلف مشارك)
(ج) العنوان.
تصنيف ديوي: 813,0871
رقم الإيداع: 28883 / 2023
رقم أمر التشغيل: 70 / 2023/ 7
رقم الكونجرس: 4 - 841775 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف.

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

عين الحياة

﴿ ١ ﴾

«ورد شاه» فتاة جميلة كريمة الخلق حميدة السجايا، وأبوها «بهمن» ملك المدينة البيضاء، وهو جبار قوي بجنوده، رهيب الجانب ببطشه وفتكه، وما كان لأحد أن ينكر عليه شيئًا، أو يظهر اشمئزازه في أمر من أموره مخافة ظلمه وقسوته، وكان يعبد النار من دون الله الواحد المتعالى، وكان العرف القائم في مدينته يقرر حل البنات للآباء، فأعقبت ورد شاه من أبيها غلامًا زكيًا، وكانت مشمئزة من هذا العرف القائم ناقمة من أبيها بهمن خضوعه لنفسه الأمارة بالسوء، كارهة ذلك الظلم الجاثم على المدينة.

انطوت ورد شاه على نفسها واجمة مبتئسة: فلا يشرق وجهها بالنور، ولا تبرق عيناها بالسرور، ولا يفتر ثغرها عن ابتسامة.

فسألتها مربيتها عما ألم بها، فقالت: رأيت الناس يعيشون كالسمك يأكل بعضه بعضًا، ووجدت أبي فيهم كالحوت الكبير يلتقم ما أمامه حتى السفن العائمة لا يلبث أن يضربها بذنبه فتنكفئ بمن فيها لتكون له طعامًا؛ وما لي لا أرى في معاملتك لي هذه الحال! إذ لا أجد فيك إلا رفقًا ولينًا وعدالة ورحمة ووفاء وصدقًا وعفة ومروءة، كأنك من جنس غير هؤلاء الأجناس!

فقالت المربية: هذا دين أبيك وقومه يا بنيتي.

فقالت ورد شاه: ألست على دينهم وشريعتهم؟

فقالت المربية: نعم؛ إنما أنا على دين الإيمان الذي يهدي الإنسان إلى معرفة الله الذي خلقه ورزقه، ويبين الحق والباطل والخبيث والطيب، ويجعل من الإنسان بفضائله وصالح أعماله ملكًا كريمًا؛ وذلك فرق بيني وبين أبيك وقومه.

فقالت ورد شاه: ولكني لا أعلم منك ذلك إلا الآن.

فقالت المربية: كتمت إيماني في صدري، وأظهرت أني على دين أبيك مخافة أن يقتلني.

فقالت ورد شاه: ألا تمنين عليَّ بهدايتي إلى دين الإيمان الذي أجد فيه كمال النفس وراحة الضمير؟ !

فقالت المربية: ذلك ما أرجوه لك يا بنيتي. وقامت بتعليمها وأخذها بشريعة الإيمان الذي يقوم على أساسه كل خير وصلاح، حتى كانت خير فتاة في طهارة القلب، وكرم النفس، وحسن الخلق، وابتهلت إلى الله أن يكشف عنها وعن الرعية استبداد أبيها الباطش الأعمي بهدايته للإيمان، أو موته! فاستجاب الله دعاءها، وأماته قبل أن تنجب غلامها .

توافد إلى ورد شاه خاصة الرعية وكثير من العامة وقالوا: عهدنا فيك العقل الحكيم، وحب الخير، وأنت وارثة أبيك، ونريدك ملكة علينا.

فقالت: لن أرضى لنفسي أن أكون ملكة على قوم تركوا عبادة ربهم الذي خلقهم ورزقهم، وعبدوا النار التي هي من صنع أيديهم، يشعلونها ويطفئونها متى أرادوا، وساروا في طريق الغواية والضلال، فإن كنتم تؤمنون بالله، وتتركون عبادة النار رضيت لنفسي أن أكون ملكة عليكم. وإن أبيتم فابحثوا عن ملك لكم غيري.

فقالوا: كفرنا بالنار، وآمنا بالله، وأجمع رأينا على طاعتك، وأن تكوني لنا ملكة.

جلست ورد شاه على عرش أبيها، وفرح بها العباد، ونودي بها ملكة في المدينة البيضاء، وصدعوا بأمرها فخربوا معابد النيران، وأضاءت صدورهم بنور الإيمان، وعاملتهم بالحسنى: فأعانت الضعيف، وأخذت بيد المظلوم، وردت جماح الظالم، واستقامت بهم على الطريقة.

وضعت ورد شاه غلامًا تلمح في قسماته نجابة وقوة، وفي خلقه جمالا وروعة، وكفلته أمه كفالة ملكية عزيزة، وعزمت على تربيته تربية فاضلة، ولكن هذا العزم ما أشرق في نفسها حتى غرب، إذ خامرتها الوساوس والمخاوف من ابنها هذا، وقالت في نفسها: ربما ورث هذا الولد عن أبيه

استكباره وجحوده بخالقه، فإذا بلغ رشده وجلس على عرش أبيه أعاد سيرته الأولى في حكمه، ورجع إلى عبادة النار، وانتقم مني إذ أبطلت شريعة أبيه، ومن الخير لي وللشعب أن أضعه في صندوق مقفل وألقيه في اليم، وأتركه لله يتولى أمره، وقد يريد له الخير فينجيه ويملأ صدره بالإيمان ويعيده إلى بلاده وملك أبيه، وحينئذ يكون لي وللشعب قرة أعين، وإن قضي عليه فقد دفعت عني وعن البلاد ما أتوقعه من السوء والضر.

ألح عليها هذا الخوف، وكلما حاول أن يخمد جذوة الحنان في قلبها ظهرت صورة ابنها في سويداء قلبها، وبرقت وضاءة وجهه في عينيها، فانطمست معالم الخوف في نفسها، وضمته إلى صدرها، وجعلت تقبله في جبينه وثغره ويديه، وهو يحييها عن هذا الحنان بابتسامة وضاءة. وقاست من ذلك الصراع بين الخوف والحنان أهوالا وآلامًا برت جسمها، وبلبلت أفكارها. وفي غفلة من حنان الأم تغلب الخوف وأعجلها إلى تنفيذ ما دبرت، فوضعته في صندوق أحكمت إغلاقه، ومعه كثير من الذهب والجواهر، وجعلت في معصمه دملجًا كتبت عليه اسمه ونسبه وتاريخ ميلاده، ثم ألقته في اليم خفية، وكتمت أمره، فلم يعلم الشعب ولا رجال القصر شيئًا مما فعلت. وتلقاه البحر على صدره، وحملته أمواجه في حنان ورفق إلى ميناء مدينة من المدن التابعة للمدينة البيضاء عند الصباح، ورآه صياد كان قد أقبل إلى البحر في ذلك الوقت يبتغي رزقه، فأسرع وانتشله ورجع به مسرعًا إلى بيته، والفرح به يملأ جوانب نفسه.

فتح الصياد الصندوق أمام زوجته وأخرج منه طفلا وسيم الطلعة، فما كاد ينشق نسيم الدنيا حتى بكى، فحملته زوجة الصياد على صدرها، وألقمته ثديها فسكت عنه البكاء، وجعل يمتص لبنًا دفع به جوعه وعطشه.

وقرأ الصياد على زوجته ما على الدملج ثم قال: هذا الطفل ابن ملك، فلنكتم أمره، ولنتخذه لنا ولدًا، ولنحسن رعايته وتربيته بتلك الأموال التي وجدناها في صندوقه، وعسى أن يبتسم له الزمن، ويعود إليه مُلك أبيه، ويعرف ما قدمناه له من المعروف، فيجزينا به خير الجزاء.

الصياد يفتح الصندوق أمام زوجته ويخرج منه الطفل

فقالت زوجته: وإني لأجد فيه ريح الملك، وسيكون ثراؤنا وسعدنا على يديه.

ابتسمت الأيام للصياد فبدت عليه آثار الغنى والنعمة، وسكن قصرًا منيفًا، ولبس الحرير، واشتغل بالتجارة، وعج قصره بالخدم والجواري، وفاض بالنعيم، وأصبح من أعيان بلدته وكبرائها، بفضل ما وجد في الصندوق من مال وجواهر.

أما الطفل فقد اتخذه الصياد وزوجته ولدًا لهما وسمياه «ضاراب» وكفلاه خير كفالة، وعلماه العلوم، وربياه على الأخلاق الفاضلة، ومعرفة الله وعبادته، إذ كانا مؤمنين صالحين.

كان ضاراب لا يعرف له أبًا ولا أمًّا إلا الصياد وزوجته، فشب في ظل حنانهما ينعم بخفض العيش، وجميل الرعاية حتى بلغ من العمر عشر سنين. وكان سَويَّ الخلق مكتنز اللحم قوي العضل جرىء القلب، يخاف لداته بطشه ويرهبون بأسه، وأغرم بركوب الخيل والفروسية حتى برع فيهما وفاق أقرانه، وخرج به الصياد يومًا إلى الأحراج للصيد، فأوسعا في القفر حتى أجهدهما المسير والعطش وهما لا يعثران على صيد، وأشار عليه الصياد بالعودة قبل أن يحبسهما العطش في هذا القفر المهلك فيموتا، فقال له ضاراب: اتبعني وأنا أسقيك وأطفئ لهيب العطش في أحشائك، وسار به إلى شجرة كبيرة قامت في تلك الفلاة ليستروح في ظلها التعبان والعطشان، وعمد إلى غصن من أغصانها فقطعه بيده، ثم عصره في فم أبيه الصياد، وعصر لنفسه فشرب ورجعا سالمين.

أخبر الصياد زوجته بما فعله ضاراب، فكان ذلك مثار عجب في أنفسهما، واتفقا على أن يذهبا به إلى أمه الملكة، ويقصا عليها قصته، عسى أن ينالا ما يرجوان من الغنى وعزة الجاه.

وركبوا البحر وساقتهم الرياح حتى نزلوا في مدينة أمه وأبيه، واستأجروا منزلا نزلوا فيه حتى استراحوا.

وذات يوم أخذه الصياد، وذهب به إلى الملكة في ديوان الحكم، فاستأذن

ودخل عليها في مجلسها، وقص قصته عليها وبين لها كيف رباه وعلمه، ونشأه على الأخلاق الفاضلة وعبادة الله والإيمان به، ثم قال: وهذا الدملج الذي كان معه دليل صدقي و برهانه، ثم ناولها إياه، فلما نظرت إليه عرفته فهبت قائمة وضمته إلى صدرها قائلة: ابني وفلذة كبدي، لقد براني الغم لفقدك، وأضناني الخوف عليك في غيبتك، فقد سُرقت من قصري، وكتمت أمرك في صدري، ولبثت وحدي معذبة شاردة الفكر لغيبتك، والحمد لله الذي ردك إلى أمك ومدينتك، فاجلس على عرش أبيك، ثم نزعت عن رأسها تاج الملك وألبسته إياه، وجلس على عرش الملك مبهوتًا مما جرى ووقع، وفرح رجال الدولة الحاضرون وهنئوه بالمُلك، ونودي به ملكًا على المدينة البيضاء. وعُرف للصياد وزوجته معروفهما فاتخذ الصياد كاتم سره، ومنحه الضياع الواسعة، وتوالت عليه الهدايا من رجال الدولة وأغنيائها، حتى كان أوسعهم مالا، وأكثرهم ثراء وغنى. كما عرف لشعبه حقوقه فأداها على وجهها، ونشر ألوية العدل والأمن في البلاد، وكان في ديوانه وزيران حكيمان: «دوش الرأي» و «طيطلوس» وهو يوناني عالم فيلسوف خبير بأمور الناس وأحوال الدنيا، يرصد الأفلاك، ويعرف التنجيم واستفتاء الرمل. كما كان في الديوان سبعة من «البهلوانية» معروفون بالشجاعة والقوة وخوض المعارك وشدة البأس في القتال، وأستاذهم ورئيسهم رجل يدعى «فيلزور».

بلغ ضاراب من العمر خمسًا وعشرين سنة ناهضًا ببلاده، وما فكر في أمر زواجه، وذات يوم أشار عليه رجال حاشيته أن يتزوج ليكون له من ذريته من يرث الملك بعده، ويقي البلاد شر الانقسام والفتنة، فقال لهم: عليّ بفتاة عفة ذات خلق ودين، فقال فيلزور: دخلت فيما مضى مدينة ملكها اسمه «أدموس» فوجدت له بنتًا كان عمرها إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، واسمها «تمرتاج» ما رأيت ولا علمت بنتًا مثلها في الجمال والعقل والخلق القويم، فرغب فيها الملك وكلف فيلزور وطيطلوس أن يذهبا ويخطباها له من أبيها، فقالا: سمعًا وطاعة.

كان للملك أدموس وزير اسمه «زود زمام» وكان صديقًا لفيلزور،

فذهب إليه هو وطيطلوس ومعهم مهرها، ونزلا في بيته وشرح له فيلزور الغرض الذي أتيا من أجله، وطلب منه أن يساعدهما فيه، حتى يكون بين الملكين نسب يقوي به شأنهما، وتعظم هيبتهما، فقال: ذلك أمر جليل أرتضيه، ولكما مني فيه صادق المعونة، ثم أخذهما، ودخل بهما على الملك أدموس، وعرفه بهما وما أتيا فيه فأحسن الملك لقاءهما، وفرح بخطبة ابنته تمرتاج، وقبل الهدايا وقال: سأرسلها معكم إلى الملك ضاراب لتكون له زوجة، على شرط ألا يتزوج امرأة غيرها، وأن يكون أبناؤه منها أولياء عهده ووارثي ملكه من بعده. فعاهداه على ذلك، وفرحت تمرتاج بهذا الزواج؛ لما سمعته عن ضاراب، من الشجاعة والقوة وكريم الخلق وجميل الخصال. ثم جهزها ابوها أكرم جهاز وأوسعه، وبعث بها مع وزيري ضاراب، وطائفة من رجال دولته، وهناك استقبلت من زوجها وشعبه أعظم استقبال، وعم الفرح بقدومها أنحاء البلاد.

وشاء القدر أن يولد له غلام سماه «فيروز شاه»، كما ولد لوزيره فيلزور في تلك الليلة غلام سماه «فرخو زاد».

وتيمنًا بهذين المولدين المتفقين أمر الملك ضاراب أن يوضعا في قصر من قصوره، وتولى هو تربيتهما ليشبا صديقين، وأخوين يكون كل منهما لأخيه خير مساعد ومعين.

وأمر طيطلوس الوزير أن يتولى أمر تعليمهما، فصدع بأمره، وجعل لطائفة من تلاميذه القيام بتعليمهما تحت إشرافه وتوجيهه، فقاموا بذلك على أحسن وجه. وكان طيطلوس قد عرف بالتنجيم أن متاعب فيروز شاه ستكون على يد فتاة يحبها، فقال لأبيه: إني لا أخشى على فيروز شاه إلا من فتاة يشغف بحبها، ويلقي في سبيلها متاعب كثيرة.

فقال أبوه: إذا وقع ذلك زوجناه ممن يحبها، ودفعنا عنه متاعبه.

بلغ فيروز شاه من العمر عشر سنين، وكان قد بلغ من القوة والمهارة في الفروسية مبلغًا عظيمًا هو وأخوه من الرضاع فرخو زاد.

وأُهْدِيَ إلى جده أدموس جواد كريم اسمه «الكمين»، فرغب في إهدائه

إلى حفيده فيروز شاه، وبعث به وزيره زود زمام ومعه الهدايا الفاخرة من ذهب وجواهر، فسار إلى إيران، ولما كان بينه وبينها مسيرة يوم نزل للمبيت بجوار غابة ليستأنف سيره في ضوء الصباح، وما كاد يلقي عصا التسيار حتى جاءته امرأة تحمل طفلا، ونصحت له ألا يبيت في هذا المكان، فسألها عن سبب ذلك فقالت: كنت في قافلة، ولما وصلنا إلى هذا المكان نزلنا فيه للراحة، فطلع علينا من تلك الغابة غول فافترس القافلة وأكل لحمها وأبقاني زوجة له، وقد أتيت منه بهذا الغلام، وإن وجدك في هذا المكان قتلك، فقال: وأين هو الآن؟ فقالت: إنه يغيب يومًا أو يومين في طلب القوت ثم يرجع، فقال: وهل تحبين أن تتركيه وتذهبي معي إلى مدينة إيران؟ فقالت: ذلك أحب الأشياء إلى نفسي، ولك مني الشكر الجزيل، ولكني أخشى ألا يجدني، فينشط في طلبي ويدركنا في الطريق قبل أن نصل إلى المدينة، فقال: ليته يأتينا الآن لأقتله وأريح الناس من شره، فلا تخافي فإنه إن أدركنا لقي حتفه، وكشفت عن الناس ضره، فقالت: قواك الله وأيدك.

أخذ زود زمام المرأة وابنها وسار حتى وصل إلى المدينة البيضاء، ونزل على صديقه فيلزور ضيفًا، وذكر له سبب مجيئه، وسأله فيلزور عن المرأة التي معه وابنها، فحكى له قصتهما، ووهبهما له ووصاه بهما خيرًا. ثم مضى هو وصديقه إلى الملك ضاراب ومعهما الجواد والهدايا، وتقدم إليه زود زمام وبلغه تحية الملك أدموس، وما يتمناه له ولحفيده فيروز شاه من السعادة والهناءة، ثم قال: وقد بعثني بهذه الهدايا، وقدم له الجواد والمال، فشكره الملك ضاراب وأثنى عليه، وكان فيروز شاه حاضرًا، فاغتبط بهدية جده إليه، ووعد وزيره أن يزور جده ويحمل إليه هدايا قيمة تليق به.

وأقام الملك ضاراب حفلا يتبارى فيه الفرسان ليقف على مبلغ مهارة ابنه في الفروسية، وأخذ الفرسان يتبارون، فهذا غالب، وهذا مغلوب، ثم مضي ضاراب إلى الميدان ونزل عن جواده ووضع يده على بطن الجواد ورفعه بها فكان كالمعلق بين السماء والأرض، ثم وضعه على الأرض وقال: مَن من الفرسان يستطيع ذلك؟ ودوّي المكان بأصوات الإعجاب والاستحسان،

فجاءه ابنه فيروز شاه على جواده «الكمين» ونزل عنه ووقف بينه وبين جواد أبيه، ثم وضع يده اليمنى على بطن جواد أبيه، ووضع يده اليسرى على بطن جواده، ورفعهما إلى السماء بيديه، فكان إعجاب أبيه وقومه به عظيمًا.

وطلب طيطلوس من الملك أن يقيم في قصر فيروز شاه وأخيه فرخو زاد، ليمدهما بما يراه من شئون الحياة والبصر بها، فأمر الملك بإقامته معهما في القصر.

***

رأى فيروز شاه في منامه أنه سائر في روضة غناء تنفح بالعطر، وتموج بالزهر، وتنعم بالمياه، ورأى بنتًا فاتنة الجمال تختال ماشية بين أشجارها، فشغف بها وأراد أن يذهب إليها ويسألها عن اسمها فعاجلته اليقظة وانتبه، فكان لانتباهه حسرة في فؤاده، وفي الليلة التالية رأى في منامه ما رآه في ليلته الماضية فانتبه، أكثر حسرة وأشد لوعة، وفي الليلة الثالثة، رأى في الرؤيا نفسها، واستطاع في هذه المرة أن يسألها عن اسمها، فقالت: اسمي «عين الحياة»، ثم استيقظ، وانقطعت عنه الرؤى فلم يحلم بها ولا بغيرها.

وأضناه الشغف بعين الحياة وبراه السقم، وألح عليه السهر حتى بدت حالته لأستاذه طيطلوس على غير ما يحب، وظن أن الحب قد غزا قلبه فأضناه، وحرمه لذة النوم والطعام والشراب، فقال له: إن كنت قد أحببت فتاة فعرفني بها لأخبر أباك، فإنه يسره أن يقضي حاجتك ويساعدك في نيل ما تريد، فقال فيروز شاه: كيف يطرق الحب قلب امرئ حبيس في القصر لا يراه أحد، ولا يرى هو أحدًا؟! واحذر أن تذكر لأبي شيئًا مما تقول، وإلا قتلتك، فقال: أعاهدك أمام الله أن أكتم سرك، ولا أفضي به لأحد أبدًا، وما أردت بسؤالك إلا أن أخفف عنك بعض ما أرى، فقال: ما دمت قد عاهدتني على كتمان سري فإني أفضي إليك به، وقص عليه ما رآه في الليالي الثلاث، فقال طيطلوس: تلك أضغاث أحلام، وما ينبغي لها أن تشغل بالك، أو تقض مضجعك، فقال فيروز شاه: لا أكاد أصدق تفسيرك، وإن رؤياي صادقة،

وإن عين الحياة تنعم بالوجود، ولا بد من الحصول عليها، فاصرف عني رأيك، فإني لا إخالني إلا خبيرًا بشئون الحياة.

أصبح طيطلوس حائرًا خائفًا، فما هو بمستطيع أن يخبر الملك، خوفًا من فيروز شاه، وما هو بمستطيع أن يسكت حتى يبريه السقم خوفًا من الملك، فاستدعى شياغوش أحد تلاميذه، وكان كثير السياحة والارتحال، وأمره أن يسلي فيروز شاه بأن يقص عليه ما رأى في ترحاله. فلما حضر بين يديه وعرفه به سأله فيروز شاه عن أحسن ما شاهد، وأعجب ما رأى فقال شياغوش: كنت في المدينة الخضراء جالسًا في بيت صديق لي، فسمعت جلبة في حديقة فسيحة على مقربة من بيته، فسألته عنها فقال: لملك هذه المدينة - واسمه سرور - بنت فاتنة الجمال اسمها عين الحياة، تقضي يومًا من كل أسبوع في هذه الحديقة، ونساء المدينة وبناتها يأتين إليها في ذلك اليوم ليستمتعن بجمالها الفاتن. فانتعش فيروز شاه انتعاش الفاقد الذي وجد، واغتبط اغتباط التائه الذي اهتدى، وقص على شياغوش رؤياه، وكان شياغوش رسامًا ماهرًا فقال: سأرسم لك صورة وأحتال في توصيلها إلى عين الحياة، ثم نهض ورسم له صورة وأبدع في رسمها، ثم أعطاه فيروز شاه المال الذي يكفيه وودعه.

ذهب شياغوش إلى صديقه في المدينة الخضراء، وأطلعه على ما في نفسه ونشد معونته، فألبسه لباس الخدم الذين يعملون في الحديقة التي بها قصر عين الحياة، وأخذ الصورة ودخل بها الحديقة، وعلقها في شجرة تطل عليها نافذة الغرفة التي بها عين الحياة، ولبث يرتقب ما يكون من أمرها.

أطلت عين الحياة من نافذة غرفتها، ورأت صورة فيروز شاه معلقة في الشجرة، فأمرت خادمتها «شريفة» أن تأتيها بها، فأسرعت واختطفتها من الشجرة، ورجعت بها إلى سيدتها، فجعلت تنظر إليها معجبة بها، وسمعها شياغوش تقول: تلك صورة تنم عن شجاعة وحزم، وعفة ومروءة، ونبل وكرم، وهذه صفات الرجل الكامل، أين أنت ياصاحب هذه الصورة، لقد أحببتك يا هذا الفتي! فأين أجدك أيها الشجاع الشري الكريم؟!

ودع شياغوش صديقه شاكرًا، ورجع إلى فيروز شاه ليبشره ويأمره أن يخطبها من أبيها.

لم يطق فيروز شاه صبرًا حتى يرجع إليه شياغوش، وأصر على مغادرة القصر إلى المدينة الخضراء، فقال فرخو زاد: لن أتركك، ولا بد أن أمضي معك، فقال له: إني لا أحب إلا أن أنال صيدي بيدي، فلا تتعب نفسك من أجلي، فقال له: إن الأخوة جمعتنا، ولا ينبغي أن تفرق بيننا مصالحنا، ولا بد من المسير معك. واتفقا على مغادرة القصر في بكرة الغد إلى الصيد حسب عادتهما، ثم يوليان وجهيهما شطر المدينة الخضراء، وكان طيطلوس ومن في القصر يجهلون أمرهما، ولا يعلمون ما بيتاه من الرحيل إلى المدينة الخضراء.

بكر فيروز شاه وأخوه فرخو زاد وركبا إلى الصيد كعادتهما، وانطلقا في متاويه الفضاء يبتغيان السبيل إلى المدينة الخضراء، وانتظر طيطلوس ومن في القصر عودتهما فلم يعودا في ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية، وأصاب طيطلوس من الغم والحزن ما أضناه وأوجعه، ولم يجسر أن يخبر الملك ضاراب بفقدهما.

أخذت البيداء تتقاذف الشابين من بقعة إلى بقعة، وهما لا يتبينان وجهًا لسبيل، حتى عثرا على قلعة لأربعين رجلا فتصدوا لهما، ونشبت بين الفريقين معركة لقي الرجال فيها من الفتك ما أفزعهم، فلاذوا بقلعتهم هاربين، وكان فرخو زاد قد أسر منهم رجلين، وأراد فيروز شاه أن يقتلهما فتضرعا إليه وقال أحدهما: نحن أخوان شقيقان، فأنا قادر شاه، وهذا أخي قاهر شاه، ورثنا ملك أبينا ونعمنا به زمنًا يسيرًا، وكان لعمي خالد بنت اسمها «الشموخ»، وجد أخي فيها ذكاء وعلمًا وخلقًا جميلا فخطبها من أبيها، فشرط أن يتنازل له عن ملك أخيه وقال: إذا كنت ملكًا فأنتم ملوك مثلي؛ لأنكم أبناء شقيقي، ولكم عندي من الحنان ما لأبنائي، فتنازلنا له عن الملك، ولما جلس على عرشه وأصبح الأمر في يده غدر بنا وطردنا، فأوينا إلى تلك القلعة، ومعنا من رجالنا من غمته مأساتنا، ونود الآن أن نكون من أتباعك، وهذا أمرنا شرحته وبسطته بين يديك.

اغتم فيروز شاه لغدر عمهما وقال: إن كنتم أنتم وأتباعكم تؤمنون بالله وتعبدونه، أرجعت إليكم ملك أبيكم، ووفيت لكم بما وعدكم به عمكم، فقالا: رضينا بالإيمان دينًا، وبالله ربًا، والله يجزيك عنا خير الجزاء، ثم دخلوا القلعة، وشرح قادر شاه لمن فيها ما حصل بينه وبين فيروز شاه، ودعاهم إلى الإيمان، فآمنوا وفرحوا بما وعدهم به فيروز شاه من ردّ المُلك إلى أهله، ثم طعموا وشربوا وأقاموا إلى الغد.

❊❊❊

﴿ ٢ ﴾

وفي بكرة الصباح مضى بهم فيروز شاه إلى مدينة خالد الذي خان أولاد أخيه وغدر بهم، وهناك نشب القتال، وجعل فيروز شاه يحصد رجال الملك حصدًا، حتى فروا إلى المدينة، ووقع خالد في أسره، وأطلعه فيروز شاه على غرضه، فلما رأى أنه سقط في يده اعتذر وأناب، وتنازل عن الملك لابني أخيه، ورضى أن يزف ابنته الشموخ إلى ابن عمها، ولكن ابني أخيه أبيا أن يأخذا المُلك من عمهما بعد أن جلس على عرشه، ورضيا أن تزف الشموخ إلى قاهر شاه، واختارا أن يعيشا في القلعة وفي معزل عن الناس، وأن يمدهما عمهما الملك بما يحتاجان إليه من المال، وتم الأمر بينهم على هذه الحال.

أراد فيروز شاه أن يرحل إلى المدينة الخضراء، فأصر قادر شاه على أن يصحبه ولا يتركه، وسار الثلاثة تركض جيادهم بهم في البيداء: فيروز شاه، وأخوه من الرضاع فرخو زاد، وصاحبه قادر شاه، ثم نزلوا للمبيت حيث أدركهم الليل، وأحسوا قبيل الفجر ركض خيل مقبلة، فانتبهوا وأعدوا أنفسهم للدفاع والقتال إن وجدوا من القادمين عدوانًا عليهم.

كان القادمون عصبة من قطاع الطرق كثيرة العدد، فلما وصلوا إليهم أرادوهم أن يسلموا ما معهم من مال وسلاح، وإلا تخطفت السيوف أرواحهم، فانبرى الثلاثة الرفاق لقتالهم، وجالوا فيهم جولة المنايا فقتلوا من قتلوا، وتفرق الباقون من تلك العصبة أباديد في الصحراء، وكان الصباح قد أقبل، وتفقد فيروز شاه وقادر شاه رفيقهما فرخو زاد فلم يجداه، وبحثا عنه في نواحي المكان الذي وقعت فيه الواقعة فلم يعثرا عليه، فابتأسا لفقده، ومضيا في طريقهما آسفين.

كان فرخو زاد قد أصيب بجرح أعجزه عن قيادة جواده، وإن بقى عنده من الجلد ما جعله ثابتًا فوق ظهره، وكان جواده قد شعر بالخطر المحدق،

فجرى في المهامه ناجيًا به، واشتد بفرخو زاد ألم جرحه، ففقد وعيه وقوته، وسقط عن ظهر جواده الذي وقف بجانبه على إثر سقوطه وقفة الحارس الباكي، وكان ذلك على مقربة من بيت مضروب في الصحراء لرجل يرعى غنمًا، فلما شعر به أسرع إليه وحمله إلى بيته، وقام هو وزوجته بتضميد جرحه ورعايته حتى أفاق، فشكر له جميل صنيعه، وسأله عن مدينة قريبة فقال: على مقربة من مكاننا هذا مدينة السليبة، وملكها رجل شجاع كريم اسمه سليم، فإذا ركبت إليها هذا الطريق وصلت إليها في زمن قصير. فتحامل على نفسه وركب جواده، وسار حتى دخلها، وهناك استأجر منزلا أقام فيه، حتى شفي من جرحه، وعادت إليه قوته، وكان للملك سليم ميدان يذهب إليه من حين إلى حين، ليشهد المباراة بين الفرسان، فزج فرخو زاد بنفسه في جماعتهم، وكان يفوز بالسبق والغلب في كل مرة، حتى ذاع صيته ونبه ذكره، وأعجب به الملك سليم فاتخذه من كبراء جنده الذين يعتمد عليهم في الملمات.

أما فيروز شاه وصاحبه قادر شاه فإنهما سلكا طريقًا حملهما إلى ساحل البحر، وهناك وجدا مراكب راسية لقافلة من التجار، ورئيسهم يدعى «الخواجة إليان» وكان يتجر في مال عين الحياة ابنة سرور ملك المدينة الخضراء. وكان البحر قد هاج وغضب، فأرسوا مراكبهم على الشاطئ، ونزلوا إلى البر ينتظرون سكون البحر وهدوءه.

نزل فيروز شاه ورفيقه قادر شاه عليهم، فأجلسا إلى رئيس القافلة الخواجة إليان الذي أكرم لقاءهما. وسألهما عن سيرهما وحدهما في ذلك المهمه القفر، فقال فيروز شاه: أنا فيروز شاه بن ضاراب ملك إيران، خرجت أنا وأخي من الرضاع فرخو زاد لنسيح في البلاد ابتغاء المعرفة، والتقينا في الطريق برفيقي هذا قادر شاه، وأوجبت عليه مروءته وشجاعته أن يصحبنا ويؤنسنا في سفرنا، وقد وقعت بيننا وبين جماعة من قطاع الطرق معركة، فقدت فيها أخي فرخو زاد، ولا أدري أهو من الأحياء أم قضى نحبه؟ ومن تكون أيها الشهم الكريم؟

فقال: أنا الخواجة إليان أمين عين الحياة بنت سرور ملك المدينة الخضراء، وهذه بضاعتها في المراكب، ونحن راجعون إليها.

اغتبط فيروز شاه بما سمع، إذ ابتسم له ثغر الأمل، وسلك السبيل إلى غرضه، فجعل يلقي في مسمعه طرائف الحديث وشيقه، حتى أعجب الخواجة إليان به، وحرص على أن يلزمه ولا يفارقه، ولكنه لحظ أن في نفسه سرًا لا يبوح به فقال له: أحب أن تصحبني وتتخذني في رحلتك هذه أخًا وفيًا يكتم أسرارك ويعينك فيما يعرض لك من الشئون.

فقال فيروز شاه: الآن طابت نفسي، وأمنت على سري، ورضيت أن أطلعك عليه.

فقال الخواجة إليان: اذكر ما عندك من سر، وعهد بيني وبين الله أن أكتمه ولا أطلع عليه أحدًا، فقص فيروز شاه عليه قصة سفره هذا.

سكنت الريح وهدأ البحر فركبوا في الفلك وجرت بهم فوق الماء، ولكنهم لم يلبثوا أن ظهر لهم جماعة من لصوص البحر، وبدت على وجه الخواجة إليان ومن معه أمارات الاضطراب والفزع، فسأله فيروز شاه عن ذلك فقال: في هذا البحر جزيرة يسكنها هؤلاء الأشرار، وهم يسيرون في البحر باحثين عن قافلة ليغرقوا رجالها وينهبوا أموالها، وها هم أولاء قد أقبلوا إلينا. فقال فيروز شاه: سر على بركة الله، ولا تخش أحدًا، ثم انظر ما سيكون.

واقترب جماعة اللصوص من القافلة، وطلبوا منهم أن يشتروا أنفسهم بأموالهم، فتقلد فيروز شاه ورفيقه عدة القتال، ووثب فيروز إلى سفينة من سفنهم، وجعل يحصد من فيها بسيفه، فقتلهم جميعًا، وقتل رئيسهم؛ وكان القتال دائرًا بين القافلة وبقيتهم، فلما رأوا ما حل برئيسهم، ووجدوا ألا طاقة لهم بلقاء هذا البطل الذي لا يغلب، فروا إلى جزيرتهم مغلوبين، وتفقد فيروز شاه رفيقه قادر شاه فلم يجده في القافلة ولم يعلم مصيره، أغرق، أم قتل، أم أسر؟! فحزن لفقده حزنًا أليما، وفرح الخواجة إليان وأصحابه بفيروز شاه، واشتد إعجابهم به وحرصهم على صحبته وإكرامه، ثم ساروا آمنين فرحين

حتى رست مراكبهم على البر، فنزلوا وشدوا رحالهم على البغال، وساروا يقطعون السهل والوعر إلى المدينة الخضراء.

وكان فيروز شاه يسير خلف القافلة، وعلى بُعد لم يقطعه عنها، وأيقظ عجبه والتساؤل في نفسه أنه يجد أمكنة يبدو عليها العمران، ولكنه لم يجد فيها إنسانًا، وعثر برجل أدركه الفزع والرعب حين رآه، فطمأنه وأذهب عنه فزعه، وسأله عن خلو هذه الأمكنة العامرة من أهلها فقال: إن للملك سرور بنتًا اسمها عين الحياة، نالت بمواهبها الخلقية السامية إعجاب أبناء الملوك، فخطبوها من أبيها، ولكنه أبى أن يزوجها معتذرًا بصغرها حتى لا يثير عليه غضب واحد منهم، وأصر «روز بن كندهار» ملك المدينة العالية على أن يأخذها غصبًا، فطلب إلى أبيه «كندهار» الملك أن يبعث معه جيشًا ليقاتل الملك سرورًا، ويسبي ابنته عين الحياة واتفق الملك كندهار، وطومار ملك المدينة الصغيرة، وغيرهما من الملوك على تجهيز جيش كبير لقتال الملك سرور، ولما جاء هذا الجيش خاف الناس فتركوا أماكنهم ولاذوا بالمدن البعيدة، والأماكن الآمنة الحصينة.

فقال فيروز شاه: وأين هذا الجيش المغير؟

فقال: نزل في الأماكن العليا المشرفة على مدينة الملك سرور، عند الجبل الأخضر.

فتركه فيروز شاه وأسرع إلى الخواجة إليان وقال له: هل علمت ما نزل بالملك سرور؟!

فقال: لا؛ فقص عليه ما سمع من الرجل، وقال له: انزل بنا في كهف من الجبل الأخضر، فقد عزمت على تمزيق هذا الجيش وطرده ذليلا مدحورًا.

فقال الخواجة إليان: لقد أراد الله لبلاد الملك سرور الخير والعزة، فساقك إليها، فجزاك الله عنها كل خير. ثم اتجه به إلى الجبل الأخضر، ونزلوا في كهف حصين.

❊❊❊

﴿ ٣ ﴾

كان القتال قد نشب بين الملك سرور، وأعدائه الملوك الذين اتفقوا وتعاونوا على أن يخسفوا به وبداره الأرض من أجل ابنته عين الحياة، وكان قد ذاق منه ضيقًا وشدة، وملأ الخوف صدور جنده فوقفوا جامدين مذهولين، ولم يعرف بالثبات والجرأة إلا فرخو زاد أخو فيروز شاه من الرضاع، وكان في جند الملك سليم الذي جاء لينصر الملك سرورًا ويدفع عنه شر الأعداء.

ركب فيروز شاه صبيحة يوم جواده «الكمين»، وتقلد سلاحه، وهبط من الجبل على ساحة القتال، فوجد نيروز أخا الملك طومار ينادي من يبارزه من جند الملك سرور وأتباعه، فما تحرك لهم ساكن، ولا ثارت فيهم حمية، وكان الملك سرور قد خاف على فرخو زاد فمنعه من المبارزة.

نزل فيروز شاه على نيروز في ساحة القتال نزول الصاعقة، وجال به جولات تنقطع لها نياط القلوب، ثم هوى بسيفه على رأسه فشقه نصفين، وسقط جسمه على الأرض قطعتين، فانتعش جند سرور وجرت دماؤهم في أجسامهم بالحماسة والقوة، واستعرت بينهم نيران الحرب وسرى فيروز شاه في الأعداء وما أنجاهم من سيفه إلا قدوم الليل، فانزوى الأعداء في خيامهم أذلة صاغرين، ورجع جند سرور وأتباعه إلى معسكرهم منصورين فرحين، وانسل فيروز شاه إلى كهفه من الجبل، وهناك قص على الخواجة إليان ما وقع، فقال: ما كنت يا فيروز شاه للملك سرور إلا نعمة وعصمة، ولولا سيفك لضاع ملكه، وتبدد سلطانه.

عرف الملك سرور وقواده وجنده أن نجاتهم لم تكن إلا بسيف هذا الفارس الغريب الذي هبط عليهم من الجبل هبوط الملائكة بالرحمة، وندم الملك لأنه لم يحجزه عنده ليكافئه ويجعله قائد جنده، وخشى ألا يأتيهم في غدهم؛ فيكون ذلك سببًا في تمكن الأعداء منهم، ولهذا بات مضطربًا حائرًا

بين اليأس والرجاء. أما فرخو زاد فقد اشتد العجب عنده وقال في نفسه: إن الجواد جواد أخي فيروز شاه، والقتال قتاله، ولكن كيف جاء تلك البلاد؟!

وكان فيروز شاه قد بيت العزم على أن يقاتل الأعداء في اليوم الثاني حتى يطردهم مدحورين، ولكن الخواجة إليان قال له: إن من حسن التدبير أن تترك الفريقين يتناوشان ويتقاتلان في ذلك اليوم، ثم تمضي إلى القتال في اليوم الثالث، حتى يحس الملك سرور عجزه عن ملاقاة أعدائه ودفعهم عنه، ويعلم علم اليقين أن انتصاره بسيفك وشجاعتك، وحينئذ تعظم منزلتك في نفسه، وتكون لك اليد الطولى عنده، وتصبح أجدر الناس بابنته عين الحياة. فقال فيروز شاه: أخشى أن تصيبه دائرة أو هزيمة جائحة. فقال الخواجة إليان: لن يصيبهم من أعدائهم أكثر مما أصابهم في الأيام السالفة، فاستمع لمشورته ولزم كهفه.

وانشق ظلام الليل عن صبح الغد، وتأهب الفريقان للقتال. وجال في ساحة القتال ميسرة أخو نيروز الذي قتله فيروز شاه، وكان أشجع من أخيه وأقوى، وصاح في صوت كأنه زئير الأسد: أين قاتل أخي بالأمس؟! ليبرز إليَّ حتى أطوي حياته بيميني ... وارتقب سرور وجنده قدوم الفارس الغريب من ناحية الجبل، فما بان له ظل.

وانطلق إليه غضنفر بن الملك سرور فقال له ميسرة: ما كنت لأبارز ضعيفًا مثلك، فامض لشأنك وأرسل إليّ قاتل أخي لأعصر عنقه، فقال غضنفر: إن الذي قتل أخاك فارس غريب ليس منا ولا نعرف له مقرًا، وما رأيناه اليوم، وقد جئتك لأسقيك الكأس التي شربها أخوك. فاحتدم الغيظ في صدر ميسرة، ووثب عليه وثبة كانت القاضية، فابتدره بسيفه وأطار رأسه عن جسده، فصاح سرور في جنده: أن ادفعوا عن أنفسكم ذل العداوة وخزي الهزيمة، واطردوا هؤلاء الأشرار من دياركم. فاندفعوا وخاضوا معركة ذاقوا فيها الويل والثبور، ثم سكت القتال عند الغروب، فرجعوا إلى خيامهم يتعثرون في أذيال الهزيمة، ويندمون على أن فرطوا في ذلك الفارس الغريب، ولم يحافظوا على وجوده فيهم وبقائه عندهم، وأمر الملك سرور

وزيره طيفور أن يعد جماعة من الفرسان للمحافظة على ذلك الفارس إذا ما جاءهم في اليوم القادم، وأن يأتوا به إليه.

أشرقت شمس اليوم الثالث، وأشرقت في نفس فيروز شاه الرغبة الملحة في القتال، فركب جواده، وركض به إلى الساحة، فأذاق أعداء الملك سرور ذل الهزيمة وطردهم من دياره، وجيء به إلى الملك سرور فأكرم لقاءه، وأثنى عليه الثناء الجميل، ورجا منه أن يقيم عنده في أسمى منزلة وأكرم معيشة، فقال: إني مملوك للخواجة إليان، وأمري بيده، ولن أستطيع أن أبرم أمرًا حتى أستشيره ويرضى به، وإني ذاهب إليه في كهف بالجبل الأخضر، اتخذناه لنا مقامًا حتى تطهر البلاد من أعدائها، وسأجيء معه إليكم، ولن أخرج عن طاعته لأنه مولاي وسيدي، فعجبوا أن تكون هذه الشجاعة في مملوك مثله، واطمأنوا لعودته مع مولاه الخواجة إليان، فسلم عليهم ورجع إلى الكهف، وقص على الخواجة ما جرى وما قاله، ووصاه ألا يكشف أمره، وألا يكذبه فيما ادعاه من أنه مملوك له، فقال: سمعًا وطاعة أيها السيد الكريم.

وكان فرخو زاد أخو فيروز شاه قد عرفه حق المعرفة، وأدرك أنه يريد كتمان أمره وإخفاء نفسه، فكظم معرفته به، ولم يطلع أحدًا عليها.

وفي الصباح جلس سرور في ديوان حكمه، ومعه وزراؤه وحاشيته، ودخل عليهم الخواجة إليان فسلم وحيا وقال له الملك: أين مملوكك الذي اشتريته؟ فقال: بالباب ينتظر إذن مولاي الملك. فأذن الملك بدخوله، ودخل فيروز شاه فأجاد التحية في أدب واحتشام. وأمره بالجلوس فجلس جلسة المؤدب المهذب الوقور.

وقال الملك: كيف اشتريت مملوكك هذا يا إليان؟ فقال: أعجبتني شمائله فاشتريته لسيدتي عين الحياة، وأرجو أن ينال رضاها، وقد وجدت منه في طريقنا العجب العجاب، فقد أذل لصوص البحر وغنم أموالهم، وقد رأيتم ما فعله بأعدائكم، فقال الملك: قد جعلته قائد جندي، ومنحته النصيب الأوفى من المغانم، وأمرت أن يسكن في قصري هو وفرخو زاد الذي أبلى في القتال بلاء جميلا. فقال فيروز شاه: لن أرد لمولاي عطية، وقد قبلت ما

منحني إياه من المغانم، وجعلته هبة مني لقواد جندك، ثم أخرج من جيبه جواهر لا توجد إلا في خزائن أغنى الملوك وقال: وهذه هبة مني لهم. فزاد إعجاب الحاضرين به، وحيرتهم في أمره.

ثم ذهب الملك إلى ابنته عين الحياة، وقص عليها أمر هذا المملوك الذي اشتراه لها الخواجة إليان، وأخبرها أنه أسكنه قصره ومعه فارس آخر اسمه فرخو زاد أخذه من الملك سليم، فقالت: صفه لي يا أبي، فجعل يصفه حتى أنشأ له في نفسها صورة تنطبق على الصورة التي أتى بها شياغوش، وكان فيروز شاه لا يعلم ما فعله شياغوش بعد أن أرسله إلى المدينة الخضراء ليمهد له السبيل إلى خطبتها من أبيها، فألهب صدرها الشوق إلى رؤيته، وعزمت أن تراه في مضجعه خفية إذا هدأ الليل.

وفي الهزيع الأخير من الليل لبست هي وخادمتها شريفة ملابس الرجال وصحبتها إلى مقره، ووجدت في طريقها إليه عبدًا حسبته لصًّا فضربته بسيفها وقتلته، وكانت فارسة تجيد الضرب والطعن ومنازلة الأبطال، ثم أطلت على فيروز شاه من نافذة حجرته وهو نائم فعرفت أنه الفارس الذي عندها صورته، وظنت أنه جاء في هيئة مملوك لأمر هام لا يزال خفيًا. ثم رجعت إلى مضجعها هي وخادمتها شريفة .

وفي غدوة النهار دخل على الملك في ديوانه رئيس العبيد وقال: وجدنا قتيلا في قصرك، ولم نعرف له قاتلا. فغضب الملك وقال: إذا حصل هذا في قصري فكيف يكون أمر الرعية؟! وأمر وزيره طيفور أن يكلف أربعة من الحرس بالسهر وحراسة القصر من الداخل حتى يمسكوا هذا الخائن الشرير الذي يقتل الأبرياء في مكان الأمن وقصر الملك، فصدع بأمره ووصى أربعة من أشداء الحرس أن يكونوا في يقظة، وأن يجتهدوا في إمساك هذا الشرير الخائن.

رأت عين الحياة أن تتيقن أن فيروز شاه هو ذلك الفارس الذي صورته عندها، فحملت خادمتها شريفة الصورة وصحبتها إليه، وهي لا تعلم أن بالقصر حرسًا مكلفين بالقبض على الجاني الذي قتل العبد في الليلة السابقة،

فلبستا ملابس الرجال وسارت هي وخادمتها من خلفها تحمل الصورة، ولما اعترضها الحرس الأربعة حسبتهم دخلاء يريدون بقصر أبيها شرًا، فجردت سيفها وقتلت ثلاثة منهم، واستطاع رابعهم أن يعتصم بالظلام ويهرب، ثم رجعت هي وخادمتها خشية أن تعرف، وأوت إلى فراشها.

ذهب الرابع الهارب في الصباح إلى الملك في مجلسه، وأخبره أن رجلين أحدهما يحمل شيئًا قتلا ثلاثة منا، وقد كنا في حراسة القصر ليلا، ولولا اعتصامي بالظلام وهربي لقتلاني معهم. فاتقدت جوانح الملك من الغيظ، وأمر وزيره طيفور أن يزيد عدد الحرس، ويجعل طائفة من الجند تحت إمرة رئيسهم يحيطون بالقصر من الخارج حتى لا يجد الهارب له مفرًا، وكان هذا وعين الحياة لا تعرف منه شيئًا.

وكان فيروز شاه وأخوه فرخو زاد يحضران مجلس الملك كل يوم، فآلمه أن يحدث هذا في قصر الملك بعد أن سكنا فيه، وعزم على ألا ينام الليلة القادمة، وأن يمسك هو الجاني، ليكون قد فعل ما عجز عنه الحرس وما أكثر عددهم! وكظم هذا العزم في نفسه فلم يبده لأحد إلا لأخيه فرخو زاد.

ولما مضى الليل إلا أقله انسل من فراشه وجعل يجوس خلال القصر باحثًا عن الجاني الأثيم، ولما كان فوق سطح القصر تصايح الحرس قائلين: اللص.. اقبضوا عليه.. فخشى أن ينسب إليه القتل الذي وقع في الليلتين السابقتين وأمسك عن الكلام وابتدرهم بسيفه، وعلا ضجيجهم وصياحهم فجاءتهم نجدة من الجنود، وشعر أخوه فرخو زاد بالجلبة فأخذ سيفه وأدركه، وجعلا يقتلانهم وهما يخشيان السقوط على الأرض من فوق السطح إلى أن تكاثروا عليهما وأمسكوهما، وكان ضوء الصبح قد ظهر فعرفوهما، وبدأ الأسف على وجوههم حين عرفوهما وقالوا: لو عرفناكما ما تعرضنا لكما، ولأجبناكما إلى ما تطلبان. ونقل خبرهما إلى الملك سرور في مجلس حكمه فقال: عليَّ بهما. فلما حضرا اضطرب الحاضرون وأشفقوا عليهما، وصعب عليهم أن يقفا بين يدي الملك هذا الموقف، لأنهم كانوا يحبونهما ويرجون لهما كل خير وعافية، ما عدا الوزير طيفور فإنه كان يبغضهما حقدًا وحسدًا. وقال لهما الملك:

لو أن أحدكما أخبرني بما تريدانه من قصري لأجبته إلى ما طلب، وإن عز وغلا، فقال فيروز شاه: ما أردنا شيئًا من قصرك بعد أن غمرتنا بنعمتك وجودك، ولكننا أردنا أن نبحث عن الجاني ونمسكه، فابتدرنا حرسك بالأذى، فقابلناهم بمثل ما قابلونا به، وما عرفونا لأن حجاب الظلام كان ثقيلا، فقال الوزير طيفور: إنه صادق فيما قال، وآية صدقه عندي أنه وزع من الأموال والجواهر على قادة جندك ما تقصر عن امتلاكه أيدي الملوك، وأكبر ظني أنهما كانا يريدان سرقة بنت مولاي الملك عين الحياة، ولعل ذلك كان السبب في مجيئهما.

وقع هذا القول على الملك سرور وقع الصاعقة، فارتعشت يداه وشفتاه وجف ريقه، واحمرت عيناه، وقال: وهل بلغت من المهانة إلى أن طمع في بناتي العبيد والمماليك؟! ! اذهبوا بهما إلى نطع الدم حتى يصدر رأيي بقتلهما.

كانت عين الحياة قد بلغها خبرهما، فأرسلت عبدها عنبرًا إلى ديوان الملك وقالت له: إن رأيت الملك قد حكم عليهما بالقتل، فاعتزل بالملك سليم وقل له: إن الذي يدعي أنه مملوك للخواجة إليان هو فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، وإن رفيقه فرخو زاد بن وزيره فيلزور، وكانت عين الحياة قد عرفت ذلك من الخواجة إليان، ووصاها أن تكتمه ولا تفضي به لأحد. فبلغ العبد عنبر الرسالة على وجهها، وانتظر ما يكون.

وكان خبرهما قد انتشر في المدينة فتوافد الناس على القصر حتى غص بالكبراء والأعيان وقادة الجنود، وجميعهم من أجلهما في حزن أليم ما عدا الوزير طيفور.

ووقف الملك سليم وقال في صوت جهوري يسمعه القريب والبعيد: إنك أيها الملك إن قتلت هذين الفارسين فقد قضيت على ملكك بالضياع، وعلى حريمك بالسبي والمهانة، وعلى بلادك بالخراب والدمار.

فقال الملك سرور: أمن أجل مملوكين يباعان بيع الحيوان والمتاع يكون هذا؟!

فقال الملك سليم: إنهما من أشرف الناس نسبًا، وأعلاهم في الحسب كعبًا،

فهذا فيروز بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، وذاك فرخو زاد ابن وزيره فيلزور، وإن أردتهما أو أحدهما بسوء فلا تلومن إلا نفسك، فإن اعتصمت بالحزم هديت وأمنت، وإن ركبت متن الشطط ضللت وندمت، وهذا ما عندي لك من النصيحة، وقد أعذر من أنذر.

غرق الملك في لجة من ذهول ومخافة ثم قال: عليَّ بهما، فأحضرا بين يديه وقال لهما: لقد أخبرني الملك سليم أن أحدكما فيروز بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، وأن الآخر فرخو زاد بن فيلزور وزيره، فهل ما قاله حق؟

فقال فيروز شاه: إن ما نعلمه عن أنفسنا أني حافظت على تجارة ابنتك ورجالها، وخلصت ملكك وبلادك من البوار والدمار، وحرمت على نفسي لذة النوم، وجعلت أطوف باحثًا عن الجاني الأثيم الذي أزعج الأمن في قصرك، فكان جزائي منك ما تعلمه ويعلمه الناس، والذي فزع منه كل فرد من أفراد رعيتك ما عدا طيفور وزيرك، الذي عققت باتباعه شعور الخاصة والعامة من أمتك.

فقال الملك: عليّ بالخواجة إليان، فلما جاءه قال له: بلغني من الملك سليم أن هذين الفارسين أحدهما ابن ضاراب ملك المدينة البيضاء، والآخر ابن وزيره فيلزور، وقد كنت أخبرتني أنك اشتريت هذا الذي يدعى فيروز شاه من بلاد اليونان، فأعلمني حقيقة أمرهما. فقص عليه الخواجة إليان قصة فيروز شاه من يوم لقائه إلى أن خلص البلاد من يد الأعداء.

فقال الملك: وما الذي دفعك إلى ادعاء أنك اشتريته، وأنه مملوك لك؟

فقال: هو الذي أمرني بذلك، وليس في استطاعتي أن أخالف له أمرًا. وأشار الوزير طيفور أن يسجنا حتى نتبين الحقيقة، فأمر الملك بإلقائهما في السجن.

كان الشعب وفيًّا لهما ذاكرًا معروفهما، وأنكر على الملك أن يعاملهما تلك المعاملة الوحشية بعد أن كانا له وللبلاد، رحمة وأمنًا، فثار ثورة إنسانية كريمة، واجتمعت طوائفه حول السجن محاولة إخراجهما بالقوة، فتدارك الملك الأمر، وخشى أن يفلت الزمام من يده، فأمر بنقلهما إلى قصره،

ووضعهما في حجرة يقوم عليها حراس شداد فهدأت ثائرة الشعب، وانتظر ما يكون من أمر الملك فيهما.

***

كان هورنك ملك المدينة الصغيرة قد حشد جنده وجاء إلى المدينة الخضراء ليثأر من الملك سرور لابنه هولنك الذي قتله فيروز شاه، فنزل بجنده على مقربة من المدينة، وبعث إليه رسوله بكتاب قال فيه: أرسلت إليك ابني هولنك في ألف فارس ليخطب ابنتك عين الحياة لنفسه، رغبة منا في أن نرتبط بوشائج النسب الذي يكون لي ولك قوة، فما رددته ردًّا جميلا، ولكنك قتلته وشردت فرسانه، وقد جئتك بجندي لأثأر منك لابني، فإما أسلمتني نفسك، وإما خربت ديارك. وسلام النار على من أطاعها وسجد لها، وسخطها على من عصاها وكفر بها.

ودخل رسول هورنك على الملك سرور في مجلسه وناوله كتاب سيده، فناول وزيره طيفور ذلك الكتاب وأمره أن يقرأه، فلما قرأه غشي الملك سرورًا من الوجوم والاضطراب ما غشيه، ثم قال لوزيره طيفور: ماذا ترى؟

فقال: عندنا الاستعداد، وفي جندنا القدرة، وسنغلق مدينتنا، ونعتصم بحصونها وأسوارها مدافعين، فإذا ما استعصى عليه فتحها يئس منها وارتد على أدباره خائبًا. فقال له: اكتب إليه بذلك كتابًا وابعثه مع رسوله.

فكتب يقول: لسنا في عجز عن لقائك، وإن كنت في أضعاف مضاعفة من جندك، فافعل ما شئت، والسيف بيني وبينك، وعلى الباغي تدور الدوائر. ثم ناول رسول هورنك الكتاب وأذن له في العودة إليه، ولما قرأ هورنك كتاب سرور ابتسم ابتسامة المعتد بقوته، ثم أمر أن يكون الهجوم على المدينة في صبيحة غدهم.

بدأ القتال وما نفعت جنود الملك سرور حصونهم، فقال لوزيره طيفور: دبر لنا أمرًا نصرف به عنا هؤلاء الأعداء، فقال: أنظرني الليلة، وسأوافيك غدًا بما فيه الخير.

كان في المدينة الخضراء تاجر ثري اسمه الخواجة عوض، وكان بينه وبين الملك هورنك صداقة وصلة تجارية، فكلفه الوزير طيفور أن يذهب إلى صديقه هورنك ويقول له: إن الملك سرورًا فجع بقتل ابنك هولنك، وكان يود أن يكون زوجًا لابنته عين الحياة، ولما عرف أن الذي قتله فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء ومعه رفيقه فرخو زاد بن فيلزور وزيره قبض عليهما، وأراد أن يرسلهما إليك مقيدين، ولكن بعض الأمراء أشاروا عليه أن يلقيهما في السجن حتى يخبرك، وتقرر فيهما ما تشاء، وقد بعثني إليك لأكون سفير سلام وصلح ومودة بينك وبينه، على أن يسلم إليك القاتل ورفيقه، ويعطيك من الأموال عوض ما أنفقته على جندك في سفرك، فماذا ترى؟

ذهب الخواجة عوض إلى الملك هورنك صديقه فلقيه لقاء جميلا، ثم بلغه الرسالة ففرح الملك وقال: ومتى ينفذ هذا؟ فقال الخواجة عوض: ليكن الأجل بينكما سبعة أيام. فرضى الملك وودعه أحسن وداع، وأمر جنده أن يكفوا عن القتال مدة أسبوع. ورجع الخواجة عوض وبلغ الوزير طيفور ما جرى بينه وبين هورنك، فاطمأن وفرح وأسرع إلى الملك في مجلسه، وأخبره على مسمع من أمرائه وكبراء دولته والملك سليم.

فقال الملك سرور: وكيف استقام هذا الرأي عندك ؟! أبعد علمي بأن فيروز بن ضاراب وفرخو زاد بن فيلزور، وبعد أن نجيا ملكي وبلادي من الدمار أسلمهما إلى هورنك ليقتلهما؟!

وقال الملك سليم: احذر أن تطيع وزيرك، وإلا ضيعت ملكك وخسرت بلادك، وما أنت بمفلت من الملك ضاراب ووزيره فيلزور، والرأي عندي أن تطلق سراحهما وتعطيهما جواديهما وأسلحتهما، وهما كفيلان أن يطردا هورنك شر طردة، وبذلك تكون قد انتصرت على عدوك، وما أغضبت أبويهما.

فقال طيفور: إنك إن فعلت ذلك انضما إلى عدوك هورنك، وكانا نكبة على البلاد والعباد.

فاغتاظ الأمراء الحاضرون وقالوا: كيف تجري وراء قتل بريئين لهما فضل على الملك والبلاد؟! فقال طيفور: لأن نضحي باثنين لحماية البلاد خير من أن يقتل أهلها، وتنهب أموالها، وتسبي نساؤها، وكلا الأمرين شر، ولكنني أشير باتباع أخفهما وأيسرهما. وتأثر الملك بقول وزيره فأمر أن يرسلا مكتفين، ومعهما الأموال إلى الملك هورنك، وأسرع الوزير طيفور فنفذ الأمر، وسار بهما وبالمال إلى الملك هورنك، وهناك تعاهدا على المسالمة والصداقة، ورجع الوزير فرحًا لأنه شفى بإبعادهما حقده الذي كان ينغر في صدره. سمع عنبر خادم عين الحياة ما جرى فأسرع إلى سيدته وقص عليها ما سمع فأصابها من أجله غم عظيم.

رأى ميمون أحد أمراء الملك هورنك أمارات البسالة والنبل بادية على الشابين، فكبر عنده أن يسفك دمهما قبل أن يتثبت من ذنبهما، فقال للملك: أرى من الحكمة والصواب ألا تقتلهما إلا في مدينة ملكك، فقال: ولم ذلك؟ فقال الأمير ميمون: لأن والدة ابنك الملكة شيطانة لا تكاد تصدق أنك ثأرت لابنها وقتلت قاتله، وربما رغبت في تعذيبه قبل قتله لتطفئ نيران الحزن على ابنها المتأججة في صدرها. فاغتبط الملك برأي أميره وقال: لقد ذكرتني بما نسيت، فإنها وصتني بما رأيت. ثم أمر في الحال أن يرجأ الحكم، وتشد الرحال، وأن يرجع بجنوده إلى مدينته.

ولما وصل الملك هورنك إلى مدينة ملكه عرض على الملكة شيطانة زوجته الأخوين القاتلين، فلما رأتهما عجبت ودهشت وقالت: كيف يقتل هذان الضعيفان الصغيران ابني، إنه لو تعرض له مائة من أمثالهما لعصرهم بيديه، لقد ضحك منك الملك سرور وخدعك، فأعطاك عبدين من عبيده لتقتلهما في ابنك وولي عهدك ووارث ملكك. وانتهز فرخو زاد هذه الفرصة فقال: نحن من عبيد الملك سرور الضعفاء المملوكين له، وقد أمر بتقييدنا وإرسالنا إلى الملك هورنك، وكان ما أمر به ولا نعلم شيئًا من أمرنا غير ذلك. فقالت الملكة شيطانة لزوجها: أتذهب بجيوشك إلى المدينة الخضراء، فيمكر بك ملكها ويستصغر عقلك ويعطيك عبدين غريبين عاجزين ثمنًا لابنك،

وكيف صح في عقلك أن هذين الغلامين الضعيفين يقتلانه؟! لقد أصبح من الواجب أن أذهب أنا نفسي لأثأر لابني، فقال الملك: ما خطر ببالي هذا، ولقد صح عندي الآن ما تقولين، وإني لذاهب الآن إلى الملك سرور لأخرب بلاده، وأقوض عرش ملكه، أما هذان الغلامان فإني مرسلهما إلى جزيرة الطبا في حراسة ابن عمي شورنك، فإذا ما رجعت من المدينة الخضراء أحضرتهما وجعلتهما من عبيدك وخدمك. ثم كتب إلى ابن عمه كتابًا وصاه فيه بهذين الأسيرين خيرًا، وأمره بالمحافظة عليهما، وإكرامهما حتى يعود من المدينة ويطلبهما.

كان شورنك هذا ذا نباهة وذكاء، فلما رآهما أدرك أنهما من أبناء الملوك، فبالغ في إكرامهما وراحتهما، وأعجب بسلوكهما وتصرفاتهما وخلقهما الكريم، ولما رآهما دائبين على عبادة الله سألهما عن ذلك فقال فيروز شاه: إنا نعبد إلهًا واحدًا قادرًا خلق الخلق وقدر الأرزاق، وهو الذي يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويُمرض ويشفي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، فقال: ومن أين عرفتم هذا الإله؟

فقال: من الأنبياء والمرسلين كإبراهيم وموسى، فأشرق نور الإيمان في قلبه وقال: آمنت بالله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، فعلماني ما تعلمتما من ذلك الدين الحق، فقد أحببتكما حين رأيتكما، وسأدبر لكما الخلاص من ذلك السجن الذي أنتما فيه، فعكفا على تعليمه حتى كان من خيرة المؤمنين الصالحين، ثم أخذ يدبر حيلة لخلاصهما.

❊❊❊

﴿ ٤ ﴾

وقع الوزير طيطلوس في حيص بيص، فهذا فيروز شاه، وأخوه فرخو زاد، خرجا من القصر ولم يرجعا، ولم يعلم طيطلوس عنهما خبرًا ولم ينقل إلى الملك نبأ تلك الغيبة الطويلة، وهذا الملك وشعبه مطمئنون على مقام ولي العهد وأخيه في القصر تحت إشرافه، فماذا يفعل؟ أيستمر ساكتًا فيزيد الطين بلة؟ أم يخبر الملك فيقف أمامه موقف المسئولية؟ لقد كان من رأيه أن يكشف للملك عن أسرار ابنه، ولكن ابنه أنذره القتل إن أخبره، فأصبح الوزير حائرًا بين سيف ابن الملك وسيف أبيه، ولبث في حيرته حتى كاد الأمر يكشف عن نفسه.

دخل طيطلوس على الملك وقال له: خرج فيروز شاه وأخوه فرخو زاد للصيد ولم يعودا إلى الآن، وبحثت عنهما حيث أظن العثور عليهما فلم أجدهما، وتنسمت أخبارهما فما وقفت لهما على خبر، ولعلهما يجوبان البلاد للنزهة وسعة المعرفة، ولعل ذلك حبسهما عن العودة، وأرجو أن تكتب إلى عمالك بالأمصار والبقاع للبحث عنهما ومعرفة أخبارهما.

سمع الملك هذا النبأ فخارت قواه، وجمع وزراءه ورجال دولته وأفضى إليهم بنبأ ابنه وأخيه، فابتأسوا وقالوا: لا بأس من الكتابة إلى العمال في سائر البلاد، ولكن ذلك لا يعفي الوزير طيطلوس من المسئولية، ولو أنه أخبرنا عقب غيبتهما لتعقبناهما حيث مضيا وأعدناهما إلى قصرهما، فقال طيطلوس: أمهلني مدة فعسى الله أن يقيض لي السبيل إلى العثور عليهما، فقال الملك: لك ما شئت من الزمن، وما أريد أن أشق عليك، ولكني لا أحب أن ترجع إليّ من دونهما، أو خبر صحيح عنهما.

انتشر نبأ غيبة ابن الملك في البلاد انتشار البرق، وانعقدت على البلاد والبقاع سحب كثيفة من الأحزان، ولبث طيطلوس غارقًا في ورطته، وما

نفس عنه إلا قدوم شياغوش تلميذه من رحلته التي أرسله فيها فيروز شاه إلى المدينة الخضراء ليمهد له الطريق إلى خطبة عين الحياة من أبيها. فلما رآه انتعش ما خمد فيه، ودعاه إليه وقال له: أين كنت في غيبتك، فقال: كنت في المدينة الخضراء، وجئت سيدي فيروز شاه منها بشيء يهمه وأحب أن أطلعه عليه.

فقال: طيطلوس إن فيروز شاه غائب منذ مدة، ولا نعلم إلا أنه خرج للصيد هو وأخوه فرخو زاد ولم يرجعا، والبلاد جميعها في حزن شامل من أجل غيبته، وقد ألزمني الملك إحضاره لأني كتمت عنه نبأ غيبته حتى الآن، وما كنت أعلم عنه وهو في القصر إلا أنه رأى في منامه بنتًا اسمها عين الحياة، فشغف بها وبراه السقم من أجلها.

فأطرق شياغوش مليًّا ثم رفع رأسه وقال: ما أظنه الآن إلا في المدينة الخضراء، فقال طيطلوس: ومن أين لك هذا؟

فقص عليه ما جرى بينهما ثم قال: يبدو لي أن القلق ألح عليه فغادر القصر إلى عين الحياة في المدينة الخضراء.

فابتهج طيطلوس وقال: ذلك هو الحق، وإن نجاتي في يدك الآن فأرجو أن تقول للملك: إني رأيت ابنك وأخاه في طريقهما إلى المدينة الخضراء، وقد كلفني أن أبلغك هذا، فقال: سمعًا وطاعة، و إني لموقن أنه ذهب إلى المدينة الخضراء، وإن لم يقع نظري عليه.

وأعلن طيطلوس نبأ ظهور فيروز شاه، وأنه عرف مكانه، فسبقه النبأ إلى قصر الملك، وتوافدت عليه الوزراء والكبراء ليقفوا على حقيقته.

ودخل طيطلوس على الملك في ديوانه، وكان غاصًا بالوزراء والقواد والكبراء، ومعه شياغوش الرسام، فشخصت إليهما الأبصار، وارتقبوا ما يقول عن فيروز شاه، فقال طيطلوس: هذا تلميذي شياغوش الرسام يحمل إليك أنباء سارة عن سيدي فيروز شاه.

فقال الملك: اجلس أيها البشير وقل ما عندك.

فجلس شياغوش يتهلل وجهه وشرع يقول: قد كنت هذه الأيام في

المدينة الخضراء، وبينما أنا راجع منها وجدت، في طريقي فارسين يركضان بجواديهما في سهل فسيح كثير الأشجار، فلما اقتربا مني أوقفاني وسألني أحدهما: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟

فقلت: أنا شياغوش الرسام من المدينة البيضاء، قدمت من المدينة الخضراء بعد أن قضيت حاجتي فيها، فقال: وهل رأيت بنت ملكها سرور؟ فقلت: نعم.

فقال: صفها لي، فجعلت أصفها حتى قال: إنها هي!.. إنها هي! فقال: وما اسمها؟ فقلت: عين الحياة.

فقال: إنها هي! فسألته: وهل رأيتها من قبل؟ فقال: جاءتني في المنام ثلاث مرات في ثلاث ليال متواليات، وعرفتني باسمها وأبيها وبلدتها، وأنا فيروز شاه بن ضاراب، وهذا أخي من الرضاع فرخو زاد بن فيلزور، وقد صحبني إكرامًا منه لي، وقد خرجت من القصر دون أن يعلم أحد بأمري، فإذا رجعت إلى أبي فأقرئه السلام، وبلغه أني ذاهب إلى المدينة الخضراء لخطبة عين الحياة، فقبلت يديه وقلت له: سمعًا وطاعة، ولما دخلت المدينة، لقيني أستاذي، وعرف مني ما ذكرته لمولاي.

ففرح الملك وأنعم عليه، كما منحه الأمراء الهدايا والمنح حتى صار من الأغنياء العظماء. وشاع في المدينة هذا النبأ فعمت الأفراح بظهور ابن ملكهم، وتمنوا له عودًا حميدًا عاجلا.

ورغب الملك في أن يبعث من يأتيه بولده، أو يزيده اطمئنانًا عليه، فجمع وزراءه في اليوم التالي وقال لهم: ما كنت قاضيًا بأمر في ابني حتى أشاوركم فيه، وقد ساورتني الظنون من أجله، وأود أن أرسل من يجيئني به أو يؤكد اطمئناني؛ فمن أرسله؟ فقال فيلزور: عندي غلام اسمه بهروز بن الغول، أمه إنسية وأبوه غول، استأثر بها وحبسها لنفسه في غابته؛ وحكى له قصتها، ثم قال: وهو على صغر سنه قوي شجاع لا يغلبه غالب، ولا يهاب الموت، فأمر به الملك فأحضره الوزير في الحال بين يديه، ثم قال له الملك: لقد دعوتك في حاجة تقضيها لى. فقال: ذلك ما أبغي، وما أعددت نفسي إلا

لخدمتك، فقص عليه قصة ابنه ثم قال: وأريد أن تذهب إلى المدينة الخضراء لتعرف الحقيقة، ثم ترجع إلى بالخبر اليقين.

فقال بهروز: إذا وجدته هناك فإني لن أفارقه ولن أتركه وحده، فأرسل معي من يعود إليك سريعًا بالخبر اليقين؛ فأعجبه ذكاؤه وحسن تدبيره، ودعا شياغوش وأمره أن يصحبه ليعود إليه سريعًا بالخبر فقال: سمعًا وطاعة.

وركبا جواديهما وسارا؛ ولما أحسا جوعًا نزلا ليأكلا ويستريحا ويريحا الجوادين، وبعد أن طعما قال شياغوش لبهروز: لقد ربط ما بيني وبينك المصاحبة في السفر وأكل الزاد، ولا ينبغي أن أكتم عنك سرًا في هذه المسألة ما دامت غايتنا واحدة، فقال: كن آمنًا وأطلعني على كل شيء فيها حتى نكون في مسعانا على بصيرة، وحتى نصل إلى الغرض من أقرب سبله وأوسع أبوابه، فحكى له شياغوش قصة فيروز شاه، ثم قال: وقد كذبت على الملك وأخبرته أني رأيته، ولكن نظري لم يقع عليه.

فقال بهروز: ما قلت إلا ما يجب أن تقوله، فإن فيروز شاه في المدينة الخضراء لا محالة، وقد صرفت عن الملك بكذبتك هذه همومه وأصلحت حاله، وإن كنت لم تره فإنه موجود كأنك رأيته، وإذا عرف الملك قصتك بعد ذلك وعرفها ابنه فليس لك عندهما إلا كل خير ونعمة، فقم إلى سبيلنا والله يؤيدنا.

***

وكانت عين الحياة لا يقر لها مضجع خوفًا على فيروز شاه وحزنًا. فرأت في إغفاءة من إغفاءاتها أن طائرين خرجا من إيران، وأسرعا في الطير إلى المدينة الخضراء، قالت: ورأيت أنهما ينظران إليّ ويتجهان نحوي، ولما قربا مني مدا أعناقهما إليّ وكأنهما ينسمان أخبار فيروز شاه، واستيقظت قبل أن أقول لهما شيئًا، فأخبرت خادمتها بما رأت، فقالت: قد يكون ذلك تنبيهًا لما يجب عليك من إخبار أبيه حتى يدركه.

فقالت: حقا ما تقولين، فإن إسعاف المريض بالبكاء لا يجدي، وما كان لي

أن تقعدني الأحزان عن إخبار أبيه، ثم طلبت من أبيها أن يسمح لها بالنزهة خارج المدينة للترويح عن نفسها فأذن لها أن تخرج متى شاءت، وأمر الخدم والجواري أن يكونوا معها، وجعل خمسة من القواد في حراستها بحيث يرونها وهم في مكان بعيد.

لبست عين الحياة ثياب الفرسان، وركبت جواد فيروز شاه «الكمين» وتقلدت سلاحه، وجعلت تسير حتى بعدت عن المدينة بمقدار مسير ثلاث ساعات، وجلست تنعم النظر في السبل ووسيع الفضاء عسى أن تجد قادمًا من المدينة الخضراء تتخذه رسولا.

ورأت على بعد منها فارسين مقبلين، فأمرت خادمها أن يذهب إليهما ويقول: إن ابن الملك سرور يدعوكما إليه، وهو ذلك الجالس على قارعة هذا الطريق، فقد رآكما وحدكما وأحب أن يقضي لكما ما تحتاجان إليه. فأقبلا إليها؛ وكانت قريبة الشبه بفيروز شاه، فلما قربا منها قال بهروز: أليس ذلك بفيروز شاه؟! فقال شياغوش: ما هو بفيروز شاه ولا هو ابن الملك سرور، ولكنه عين الحياة نفسها، فإني أعرفها وإن تنكرت في أية هيئة أرادت، ولكن من الحكمة أن نخفي معرفتنا بها حتى نسمع ما تقوله ونرى ما يكون منها، وبعد ذلك لا نكتم عنها شيئًا لتكون عونًا لنا.

قدم بهروز وشياغوش إلى عين الحياة وسلما عليها، فردت سلامهما، وأمرتهما بالجلوس بالقرب منها، ثم سألتهما عن بلدهما فقال بهروز: نحن من المدينة البيضاء، وقد أتينا إلى المدينة الخضراء في حاجة تهمنا. فقالت: وما حاجتكما؟ فربما قضيتها أو يسرت لكما سبلها. فقال: إن حاجتنا عندك وفي يدك لأننا عرفناك.

فاندهشت وقالت: ومن أنا؟ فقال شياغوش: أنا راسم الصورة التي عندك، وقد رأيتك وأنت تأخذين الصورة من غصن الشجرة، ولا أضل عن معرفتك وإن تنكرت في أي زي، وأنت عين الحياة بنت الملك سرور، فأخبرينا عن فيروز شاه بن ضاراب ملكنا، فإنه وحيد أبيه، ولا يزال يتقلب على جمر الغضى لفراقه وغيبته.

فقالت: وكان الخدم على بعد منها ما عدا خادمتها شريفة – لقد حباني الله برعايته وعنايته إذ أعثرني عليكما، ثم حكت لهما حلمها وسبب خروجها إلى قارعة الطريق متنكرة، وجعلت تذكر لهما قصة فيروز شاه حتى أتت عليها من أولها إلى آخرها، إلى أن قالت: وقد أسلم أبي فيروز وأخاه إلى الملك هورنك ليقتلهما في ابنه هولنك.

فقال بهروز: إن أباك لخائن غادر، فقالت: دعنا من الماضي، وانظر فيما يكون لخلاصهما من الهلاك، فإني أعتقد أن عناية الله تلطف بهما وترعاهما، ولا يزالان من الأحياء، فقال بهروز: إني ذاهب إلى المدينة الصغيرة ولن أعود إلا به، أما شياغوش فإني مرجعه إلى أبيه ليبلغه ما وقع لابنه، وحينئذ يسرع في طلبه. فقالت: وسأكتب إلى أبيه كتابًا أسرد فيه قصته، ويأخذه شياغوش معه.

ودع بهروز القوم واندفق في البيداء اندفاق السيل، عسى أن يدرك سيده فيروز قبل أن ينفذ فيه حكم الملك هورنك، أما عين الحياة فقد أعطت شياغوش كتابًا إلى الملك ضاراب، شرحت فيه قصة فيروز برمتها ثم قالت: وإني أستنهضك لإغاثته قبل أن يفوت الأوان.

وأخذ شياغوش الكتاب وطار به إلى الملك ضاراب، فناوله إياه وشرح له ما كان منه ومن بهروز وعين الحياة. وكان هذا في مجلس يجمع وزراءه وقواده، فأجمعوا على المسير بجيش عظيم لإنقاذ ابن الملك وأخيه فرخو زاد، وقال فيلزور: وخشية أن نبطئ في المسير وجب أن يرسل من الملك كتاب إلى سرور يحمله فيه تبعة فعلته، ويلزمه فيه إرجاع ابنه وأخيه، وإلا سقطنا على بلاده سقوط الشهب من السماء، فإنه بعد ذلك إما خاف وحاول إرجاع فيروز وأخيه بالحيلة أو السياسة أو القتال، وإما جهل وعاند فاستحق منا كل وبال ونكال، فأمر الملك بكتابة هذا وإرساله إليه على جناح السرعة.

واختار طيطلوس غلامًا من غلمانه اسمه شبرلنك وكان قويًا جريئًا محتالا، فأخذ الكتاب وانفلت به إلى الملك سرور وسلمه إياه، فلما قرأه في مجلسه ابتسم ابتسامة هي خليط من العجب والاستهزاء وقال: لقد ظن

الملك ضاراب أننا أضعف منه قوة، وأقل ناصرًا وجندًا، فأنذرنا وبالا ونكالا إن لم نرجع إليه ابنه وأخاه، إن فيروز وأخاه فرخو زاد قتلا هولنك فقتلهما أبوه فيه، فكان قصاصًا عادلا، وللناس في القصاص حياة، فإن جهل ضاراب وأخذته العزة بالإثم، فليذهب ضاراب إلى هورنك وليقاتله، فهو الذي قتل ابنه وأخاه، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم التفت إلى شبرلنك رسول ضاراب وقال: أسمعت يا هذا؟ فقال: نعم، ، فقال: ارجع إلى من أرسلك وبلغه ما سمعت.

وكان الملك سرور قد اتخذ الخواجة إليان وزيرًا له أيام أن جاءه بفيروز شاه، فلما أنذره الملك ضاراب وأحس أنه وقع في ورطة، أمر بإلقائه في السجن؛ لأنه كان السبب في مجيء فيروز إلى بلاده.

ورجع شبرلنك مسرعًا، وبلغ الملك ضاراب ما سمعه من الملك سرور، وأنه ألقى وزيره الخواجة إليان في غيابة السجن، ثم قال: وحينما كنت سائرًا في اليمن سمعت الناس في مجالسهم يلومون الملك سرورًا ويلعنون وزيره طيفور، وقد وصوني أن أبلغك أن الذنب كله واقع على اثنين من المدينة الخضراء، هما الملك سرور ووزيره طيفور، فقد استبدا برأيهما وخالفا أهل المدينة الخضراء في أمر فيروز وأخيه فرخو زاد. فإن أردت الانتقام لابنك وأخيه فانتقم من الملك ووزيره، إذ ليس لأحد من أهل البلاد فيهما ذنب ولا جريرة.

فقال الملك ضاراب في هدوء الواثق بنفسه: سنذيقه من سيوفنا كأس عدوانه وغدره، وكان جيشه قد استعد للرحيل، وعدته أربعمائة ألف، فالتفت إلى وزيره طيطلوس وقال: اسبقني في ثمانين ألفًا إلى المدينة الخضراء، وسأكون في بقية الجيش على إثرك، واحذر أن تعتدي على حقوق العباد أو تظلم أحدًا، فلا تنهبوا ولا تسلبوا، وادفع ثمن ما تشتريه لجندك، وإن قدمت على حاكم فادعه لطاعتك، فإن أجابك فعامله بالحسنى، وإن عصى وأبى إلا القتال، فقاتله حتى تعزله وتولي أحدًا مكانه، وإياك أن تسبي النساء أو تخرب البلاد أو تزعج الآمنين.

فقال: سمعًا وطاعة، وقاد جيشه ومضى.

أما الملك سرور فإنه بعد أن غادره شبرلنك رسول الملك ضاراب أحس خطأه.. فندم وقال لوزيره طيفور: لقد أوقعتني بسفه رأيك في أحرج المواقف، ورميتني في أضيق المسالك، وكان من الخير لنا ألا أغضب الملك ضاراب، وأن أسالمه وأسترضيه، فما نحن بمثله قوة وبطشًا، وإن شعبي وشعبه يجتمعون على محبة ابنه فيروز شاه، فقال طيفور: لا تبتئس بما تزعم وتتوهم، فإن ابتئاس الملوك للزعم والوهم عار وفضيحة، واعلم بأن الملك ضاراب على قوته وشدة بطشه عادل رحيم وحازم حكيم، يكره الاعتداء وسفك الدماء، فإذا ما جاءنا فعليَّ تدبير الأمر حتى ندفعه عن البلاد بالقتال أو بالحيلة، فاطمئن قلبًا ولا تجزع، وغر الملك سرورًا هذا القول فبات مطمئنًا يرتقب المصير.

❊❊❊

﴿ ٥ ﴾

لبث فيروز شاه وفرخو زاد في سجنهما يرتقبان الخلاص منه على يد شورنك كما وعدهما، وقد وعده فيروز شاه أن يقتل هورنك ويوليه الملك من بعده، إن وفي بوعده وخلصهما، كما عزم على أن ينتقم من سرور ووزيره طيفور.

وذات ليلة رأى هورنك في منامه أنه في برية جرداء ومن حوله بعض عبيده، فهجم عليه أسد ضخم الجثة فخاف وفر من وجهه، وإذا بأسد آخر أضخم جثة من الأسد الأول وثب عليه وأنشب أظافره في جسمه وجثم فوق صدره، وحانت منه التفاتة فوجد عبيده قد افترسهم الأسد الأول، فانتبه من نومه يرتعش رعبًا، ودعا إليه كبير المفسرين للأحلام وقص عليه رؤياه وقال له: قل ما يهديك إليه علمك وتجربتك وأنت آمن، فقال: إن الأسدين هما الأسيران فيروز وأخوه، وسيخلصان من سجنهما ويقتلانك، وإني أشير عليك أن تذهب إليهما وتعجل بقتلهما، قبل أن تصدق الرؤيا.

أرسل هورنك إلى عامله بجزيرة طبا وقال له: حافظ على الأسيرين اللذين عندك واحذر أن يفرا ويهربا، فقد صح عندي أنهما قتلا هولنك ابني، وسأحضر إليك غدًا لقتلهما قبل سفري إلى المدينة الخضراء للانتقام من ملكها.

حزن شورنك حزنًا أليمًا ومضى إليهما في السجن وأخبرهما بأن الملك قادم في الغد لقتلكما، ولا بد أن أخلصكما الليلة من السجن وإن قتلت في سبيلكما، فقال فيروز شاه: هات لنا جوادين وعدة قتال، وأطلقنا من قيودنا، ونحن نفتك بالملك وبمن جاء معه. فوعدهما بذلك وانصرف.

وفي الفجر جاءهما شورنك بالجوادين والسلاح، ثم فك القيود وركبا وتقلد كل سلاحه. وشكراه على جميل معروفه، وقال فيروز له: اتبعنا لترى

ما سنفعله بالملك، وتأهب للجلوس على عرشه.

ثم انطلقا إلى ناحية البحر ينتظران قدوم الملك هورنك، وشورنك غارق في لجة من الخوف الشديد، لأنه لا يكاد يصدق أنهما يغلبان الملك الجبار.

ولما أشرق الصبح رأيا سفينة مقبلة، وكان فيها الملك وحرسه، فانتظرا حتى نزل منها، ثم أقبلا واعترضا سبيله، وحسب الجنود الذين يسيرون أمام الملك أنهما غريبان فقالوا: تنحيا عن طريق الملك وكونا من خدمه، فقال فيروز: ويل لكم أيها اللئام الكفرة!! لا منجاة لكم من سيف فيروز بن ضاراب. ثم هجم هو وأخوه عليهم، وضرب فيروز هورنك بسيفه ضربة سقط على أثرها قتيلا يتخبط في دمه، وفر بقية حرسه فناداهم فيروز وقال: لا تخافوا ولا تفزعوا فما كنا نريدكم بسوء، وما أردنا إلا قتل هذا الملك الجاهل. وكان أكثرهم يكره الملك ويرجو الخلاص من ظلمه واستعباده لهم، فرجعوا إليه وقالوا: نحن لك أول الطائعين فافعل بنا ما تشاء.

رأى شورنك هذا النصر العظيم فأقبل فرحًا، وارتقب الوفاء بالوعد والجلوس على عرش الملك.

وقال فيروز لهم: إن شورنك له علينا فضل ونعمة، فهو الذي خلصنا من السجن وجاءنا بالخيل والسلاح، وإني قد وليته ملكًا عليكم يحكم فيكم بالعدل والرحمة، فمن أطاعه فقد نجا، ومن عصاه فليس له إلا الهلاك، فقالوا: رضينا به ملكًا، وكان فيهم ميمون قائد الجيش، فكان أسبقهم إلى طاعة الملك شورنك.

ثم انتقلوا إلى عاصمة الملك وهناك وجدوا أهلها فرحين بموت هورنك الملك المستبد الظالم، فدخلوا في الدين الجديد، والتفوا حول شورنك مطيعين مؤيدين، واستقام أمر البلاد على أساس من العدل والرحمة.

***

أراد فيروز أن يرحل إلى المدينة الخضراء فقال لميمون: أريد أن تسير معي إلى المدينة الخضراء ومعك أربعة من القواد وخمسة وعشرون ألفًا من

الفرسان أفتح بهم ما شئت من البلاد فقال: سمعًا وطاعة، فإن صحبتك أحب شيء إلى نفسي، ونهض فجهز له من شاء من القواد والفرسان.

وخاف شورنك أن تثور المدينة عليه بعد أن يرحل فيروز منها، فأفضى إليه بذات نفسه وأبدى له مخافته، فأمر ميمونًا أن يجمع السلاح من المدينة ويجعله تحت يد شورنك حتى يأمن على نفسه ثم قال له: إن حدث لك حادث أفزعك فاطلبني حيث أكون، وستجدني لديك حاضرًا، وجمع ميمون السلاح ووضعه تحت يد شورنك فاطمأنت نفسه ثم قال: أتمم فضلك عليّ بزواجي من سلكوتا بنت الملك هورنك، فدعا فيروز بأمها شيطانة وقال لها: إن لزواج شورنك من سلكوتا يحفظ على أسرتكم المُلك ويبقيه فيها، وأحب أن يتم ذلك قبل أن أغادر المدينة، فأطرقت شيطانة قليلا ورأت أنه لا مناص من الزواج رضيت أو أبت، ثم رفعت رأسها وقالت: رضيت بزواجه منها، فإنها لم تتزوج إلا ملكًا جلس على عرش أبيها، وأمر فيروز فعقد الزواج وزفت إليه في فرح شامل وحفل بهيج.

ولما هم بالرحيل قال شورنك: لم يبق مما يعكر عليّ صفو المُلك، إلا شيء واحد، وإن لم تدفعه عني فإني هالك لا محالة، فقال فيروز: وما هو؟

فقال: إن لهورنك ابني أخ يحكمان في الجزيرة البيضاء هما قطران شاه و بدران شاه، وكان بدران شاه قد عول على أن تكون سلكوتا بنت عمه هورنك زوجة له، فإذا بلغه قتل عمه وزواج ابنته مني اتفق هو وأخوه على قتلي وليس لي طاقة بقتالهما، ورجائي أن تدفع عني خطرهما قبل رحيلك، فبدت على وجه فرخو زاد أمارات القلق والألم، وضاق بشورنك ذرعًا وقال: إن مدينتك حصينة وتستطيع أن تدافع عنها حتى تخبرنا، وحينئذ نأتيك ونطرد أعداءك.

فقال فيروز: لا بد من مسيرنا إلى الجزيرة البيضاء لندعوهما إلى طاعته، فإن أبيا قتلناهما وأقمنا على الجزيرة حاكمين غيرهما يدينان له بالولاء، ولا ينبغي أن نتركه وهذا الخطر محدق به، فإن له علينا فضل إخراجنا من السجن ونجاتنا من الموت، فقال فرخو زاد: ولكن قلبي يحدثني أننا قادمون على أمر

أشد خطرًا مما وقعنا فيه من الأخطار، فقال فيروز: لا خطر علينا وسيوفنا في أيدينا.

ساق فيروز الجيش ومعه من القواد ميمون وحمدون وحملتهم المراكب إلى الجزيرة البيضاء، وهناك أحاطوا بمدينة قطران شاه وبدران شاه، وكانت حصينة متينة الأسوار، وكادوا يفتحونها في اليوم الأول، ولكن ظلام الليل دهمهم فوقف القتال وأرجئ فتحها إلى اليوم الثاني.

اجتمع قطران شاه وأخوه وتشاورا في الأمر، وقال قطران شاه لأخيه: إن المدينة أوشكت على السقوط في يد الأعداء، فاذهب إلى أمك الساحرة وبلغها ما حاق بنا من الخطر؛ لتنجينا بسحرها وتدفع عنا تلك الشدة، فانفلت أخوه من الجانب الآخر من المدينة ومضى إلى جزيرة أمه صفراء.

كانت صفراء هذه ساحرة لا يغيب عنها باب من أبواب السحر، كما كانت ماكرة عاتية، أطاعها كثير من الأقاليم خوفًا منها، واتخذت لها في جزيرة قريبة من الجزيرة البيضاء قصرًا أقامت فيه وحدها، واتخذت قطران شاه وأخاه بدران شاه ولدين لها، لما وجدته فيهما من الطاعة والولاء.

ذهب بدران شاه إليها وسجد بين يديها باكيًا ضارعًا، فسألته: ما بك يا ولدي؟ فقال: إن فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء قتل عمنا هورنك، وولى مكانه شورنك، وزوجه ابنته سلكوتا وقد جاء الجزيرة البيضاء في جيش عظيم ومعه من قواد عمي ميمون وحمدون أخوه، وأحاطوا بالمدينة وكادوا يفتحونها، فاربد وجهها غضبًا وقالت: ما كنت أظن أن أحدًا يغير على جزيرة بجواري وتحت هيبتي، فاذهب إلى أخيك واخرجا بجيشكما من المدينة وقاتلاه في ثبات، وسترون ما أفعله بهذا الطاغية، فابتهج وقفل راجعًا إلى أخيه وحكى له ما قالته الصفراء، فانشرح صدره، وأيقن بالنصر والفوز.

وفي الصباح فتحت أبواب المدينة، وخرج جيشها إلى العراء في غير فزع ولا مخافة، وقد تأهب للقتال في ثبات وإقدام وجرأة، فقال فيروز شاه لأخيه فرخو زاد: ما لي أرى قطران شاه وأخاه قد خرجا يبغيان قتالنا بعد أن يئسا وانقطع رجاؤهما؟! يبدو لي أنه جاءهم مدد ونجدة فقوي عزمهم وبرق

نجم الأمل في نفوسهم، ولكن ذلك لا يصرفني عنهم، فهيا للقتال، فإني لا أود أن يطول أمده.

بدأ القتال ونشط الضرب والطعن، وكاد قطران شاه وأخوه أن يرتدا بجيوشهما مهزومين، ولكن أصواتًا عالية تجلجل في الجو فوق رءوسهم قرعت آذانهم قائلة: ويل لك يا فيروز شاه، جاءك الهلاك، فاهتزت القلوب، وشخصت إليها الأبصار، وإذا سرير يهوي من ناحية السماء عليه الصفراء الساحرة وسقط أمام فيروز شاه، فأراد أن يعجل لها بضربة من حسامه قبل أن يصيبه أذاها، ولكنه ما أسرع أن سحرته فوجد نفسه قد جمد في مكانه كأنه تمثال قد نحت من الصخر، ثم ألقته على سريرها وجلست بجواره وأمرت السرير أن يطير، فارتفع إلى أعلى الجو وطار بهما إلى قصرها في جزيرتها، وهناك حبسته في حجرة، ونزعت من رأسها شعرة وقيدته بها فأحس كأن في رجليه قيدًا من حديد يزن قنطارًا، ثم أغلقت عليه باب الغرفة وخرجت.

رأى الجيشان اختطاف فيروز شاه، فاضطرب جيشه وانحلت عزائمه وتضعضعت قوته، أما جيش قطران شاه وأخيه فإنه فرح واستبشر، أنه الفائز المنتصر، وحال بينهما قدوم الليل فأوى كل منهما إلى مقره.

اسود وجه الدنيا في عيني فرخو زاد لفقد أخيه، وخشى أن تقتله الساحرة، كما خشى أن يميل جيشه إلى جيش قطران شاه وينضم إليه؛ لأنهما من جنس واحد، ومن وطن واحد، ويصبح وحده لا حول له ولا قوة، فركب جواده وجعل يمشي هنا وهناك حول جيشه وهو ذاهل واجم وما كان موقنًا أن القواد الذين جاءوا في الجيش قد صدقوا ما عاهدوا أنفسهم عليه من طاعة فيروز شاه، وأنهم حزنوا عليه حزنًا أليمًا، فنزل في ناحية من الجيش عن جواده، وصبر حتى مضى جزء من الليل، ثم ركب جواده، وانسل في الظلام إلى الأعداء وداس بطونهم وهم نيام، وأعمل فيهم سيفه، فظنوا أن جيش فيروز قد هجم عليهم، واستيقظوا يتصايحون. وسمع حمدون وأصحابه الصياح فهبوا وجردوا أسلحتهم، وجاء الصبح والقتال على أشده، ولمح فرخو زاد قطران شاه على ضوئه فخف إليه وطعنه فسقط قتيلا. واستمر

القتال وكل خصم يحاول أن يقهر خصمه، ولكنهما لم يصلا إلى ما يبغيان.

***

أما بهروز بن الغول فإنه جد في سيره إلى فيروز شاه حتى كان عند الشاطئ، وجلس ينتظر سفينة يركب فيها إلى جزيرة الصفراء الساحرة فلاح له زورق في البحر فأخذ يلوح له بمنديله حتى جاءه، وكان فيه اثنا عشر رجلا من صيادي السمك، فسألوه عن سبب وجوده في هذا المكان وحده فقال: كنت في جماعة وهاج البحر فرسا بنا المركب في هذا المكان ونزلنا إلى البر ننتظر سكون البحر، وكنت قد أبعدت في البر فلما رجعت لم أجد المركب ولا الأصحاب، ويظهر أنهم ركبوا في فلكهم ولم ينتبهوا إلى أني غائب عنهم، فلبثت في مكاني هذا أنتظر فرجًا قريبًا حتى فرج الله عني بقدومكم. فإذا تفضلتم وأخذتموني معكم كان لكم الشكر الجزيل، فأخذوه معهم وجرى الفلك حتى أبعدوا، ثم غضب البحر وتواثبت أمواجه، فخاف الصيادون وائتمروا فيما بينهم.

ثم قالوا لبهروز: نحن نركب البحر كل يوم، ولم يغضب غضبته هذه إلا بعد أن صحبتنا، وذلك من شؤمك ونحس طلعتك، فالق بنفسك في البحر قبل أن نلقيك فيه، حتى نخلص من هذا الخطر الذي يحيق بنا.

فأخرج بهروز خنجره من طيات ثيابه وقال لهم: أيها الجهلاء، احذروا أن يتقدم إليّ أحدكم بسوء، وإلا بقرت بطنه وألقيته في البحر طعامًا لحيتانه؛ ورأى الصيادون فيه دلائل الشجاعة فخافوا وسكتوا، وساروا بفلكهم وكل منهم على حذر من الآخر حتى رست بهم على شاطئ جزيرة الصفراء الساحرة، فنزلوا إلى البر يطلبون القوت لأنهم كانوا قد جاعوا ونفد ما عندهم من الزاد، فوجدوا رياضًا واسعة ذات أشجار باسقة تحمل ثمارًا ناضجة فتسلقوها، وجعلوا يأكلون من ثمارها.

أما بهروز فإنه لم يلتفت إلى تلك الثمار، وأخذ يمشي حتى عثر على قصر منيف له باب واحد، فوقف حائرًا أمامه، أيدخله ليعرف من فيه، أم ينتظر

أحدًا يخرج منه أو يأتي إليه، فيسأله عن هذا القصر ومن يسكنه؟! ثم عقد عزمه على دخوله.

دخل بهروز القصر ووجد سلمًا فصعد فيه حتى انتهى إلى ردهة واسعة، ورأى غرفة قد فتح بابها فمد عنقه لينظر من فيها، وكانت الصفراء الساحرة جالسة فيها، فلما رأته قالت: من أتى بك إلى قصري أيها الجسور المغرور؟ قف مكانك ولا تتحرك. فثبت في مكانه جامدًا لا يستطيع أن يبدي حركة، فأدرك أنها ساحرة واستغاث بها باكيًا متضرعًا فدنت منه وقالت: من أوقعك في قبضة الصفراء يا هذا؟ فقال في استكانة: كنت أنا ورفاقي راكبين البحر فهاج واضطرب وألقى بنا في هذه الجزيرة على الرغم منا، وقد تركتهم يأكلون من ثمار الشجر.

فقالت: عجبًا لك! وهل معك أحد في جزيرتي! ثم انفلتت إلى الرياض فوجدت كل واحد على شجرة يأكل من ثمرها، فتمتمت وقالت: اجمدوا في مكانكم، فجمدوا على أغصانها، لا يقدرون أن ينزلوا، ثم رجعت إلى بهروز وحدقت فيه ببصرها، فأعجبها شكله وخفق قلبها بحبه، فقالت في نفسها، قطعت من العمر تسعين سنة، وأنا راغبة عن الزواج، فإلى متى هذه العزلة، وكراهية الناس والنفور من معاشرتهم؟! خير لي أن أتخذ هذا الغلام لي زوجًا، وأقضي بقية عمري معه مؤتنسة به متحدثة إليه، وقد يكون لي منه ولد يخلد ذكرى ويكون امتدادًا لحياتي التي أوشكت أن تنتهي. ثم أسرعت وأحضرت زجاجة وصبت عليه منها فانطلق من جموده، فأيقن في نفسه أنه لا يقدر عليها إلا بالحيلة، فأبدى خضوعه وطاعته، وأخذ يقبل يديها قائلا: إني رجل غريب، فأرجو منك أن تعامليني بما فطرت عليه من الرحمة والخلق الكريم، فقالت: لقد كنت عزمت على قتلك، ولكني أطعت فيك قلبي الذي أحبك، ورغبت أن تكون لي زوجًا، لتعيش في قصري آمنًا منعمًا.

وحز في صدره قولها هذا لأنه خشى أن تحبسه عن المضي إلى فيروز شاه في الجزيرة التي يقاتل فيها مع أخيه فرخو زاد قطران شاه وأخاه بدران شاه. وزاده ألـمًـا أن كانت عجوزًا شمطاء كأنها هيكل من عظم لف في ثوب من

الجلد؛ ولكنه أجابها إلى ما طلبت، وقد أصر في نفسه أن ينتقم منها بالمكر والحيلة. فقال: ذلك أحب شيء إلى نفسي، وإني أشكر الإله الذي ساقني إليك لأعيش في ظل ظليل من نعمتك بعيدًا عن الدنيا ومتاعبها. فسرها قوله وفرحت به فرحًا عظيمًا وقالت: أنت من الآن زوجي، ولك عليّ أن تعيش سعيدًا لا يشوب حياتك ألم أو كدر. ثم أخذته ودخلت به غرفة المائدة وجلسا، ثم أمرت خدم الهواء أن يحضروا طعامًا، فما لبث أن رأى أمامه ألوانًا من طعام شهي، وهو لا يدري ولا يرى من أحضره، فأكل حتى شبع، ثم جلسا يتحدثان حتى غلبهما النعاس فناما.

واستيقظا في الصباح واستأذنته أن تمضي إلى أستاذها الذي علمها السحر لتقضي عنده يومها هذا، فقال لها: لا أطيق صبرًا على فراقك، فإما بقيت معي، وإما صحبتك إلى أستاذك.

فقالت: إني لا أحب أن يعرف أحد أمر زواجي منك، فانتظرني في القصر ولك فيه كل ما تشتهي من الطعام والشراب، وفيه كثير من الغرف حوت كل شيء يخطر ببالك من الأثاث والرياش والجواهر، فاستمتع بالتنقل فيه حتى أعود إليك، فقال: سمعًا وطاعة. وجلست على سرير الهواء وأمرته بالمسير، فارتفع بها في الجو وطار بها إلى حيث شاءت.

خرج بهروز من القصر إلى الرياض فوجد رفقاءه قد جمدوا على أغصان الشجر، ووجد اثنين منهم قد سقطا ميتين فدفنهما، ثم أطعم بيده بقيتهم ورجع إلى القصر وأخذ يجوس خلاله من غرفة إلى غرفة إلى أن وقف بباب الغرفة التي فيها فيروز شاه، فسمع أنينًا وتوجعًا، وشكاة وتضرعًا إلى الله؛ فأدرك أن فيها رجلا يعوذ بالله مما فيه، فأحضر المفاتيح وجعل يجربها مفتاحًا بعد الآخر، حتى عثر على مفتاح تلك الغرفة ففتحها، وقبل أن يدخلها سمع من فيها يقول: يا إلهي، ليس لي ناصر غيرك فنجني من هذه الساحرة، ولا تفجع بموتي أبي ضاراب ملك المدينة البيضاء يا إلهي، ما خرجت من بلادي إلا لأتزوج من عين الحياة التي سمعت عن خلقها الكريم، وعقلها الحازم الحكيم، لتكون عونًا لي في حياتي وما أقوم به من جليل الأعمال التي تنفع

الناس وتعود عليهم بالخير العميم، فمن أجل هذا الخير الذي أبغيه لعبادك نجني من شر هذه العجوز الساحرة.

سمع بهروزهذا فأيقن أنه فيروز شاه، وفرح فرحًا عظيمًا ودخل عليه، ولكنه كاد يحترق من الحزن حين رآه مقيدًا مكتفًا فقال له: أبشر يا سيدي فقد جاءك الفرج من عند الله، وهأنذا بهروز «العيار» قدمت إليك من عند أبيك لخلاصك، وأحضرت إليك من عين الحياة كتابًا.

فقال فيروز: شكرًا لله الذي منّ عليَّ بقدومك، وكيف حال أبي وأمي وأهل البلاد؟ فقال: إنهم جميعًا بخير وعافية، ولكنهم في حزن أليم لغيبتك، وقد أرسلني أبوك في صحبة شياغوش الرسام إلى المدينة الخضراء لاستطلاع أحوالك وإرجاعك إلى وطنك، وقد اجتمعنا بعين الحياة في طريقنا إلى المدينة الخضراء وعلى مقربة منها...

ثم أخذ يقص عليه رؤيا عين الحياة وخبر الكتاب الذي أرسلته إلى أبيه مع شياغوش ثم قال: وقد أخبرتنا بما فعلته من المعروف في أبيها، وأنه سلمك وأخاك فرخو زاد إلى هورنك، وحكت لنا كل ما حدث، ثم حكى هو له قصة مجيئه إلى هذا القصر إلى أن اجتمع به في تلك الغرفة، ثم قال: وإني ما جئت إلا لخلاصك والعودة بك إلى أبيك، وربما وجدناه في قتال من أجلك مع الملك سرور، فقال: وماذا دبرت في أمر خلاصي؟

فقال: عزمت أن أقتل الساحرة غدرًا وغيلة، فقال: وإذا قتلتها فمن يبطل سحرها ويخلصني من قيودي وأغلالي؟ ولكني أرى أن تعرف منها السحر وإبطاله، وأعتقد أنها لا تكتم عنك شيئًا، فقال: أصبت الرأي، وسأعرف منها كل شيء، وفي الغد يكون لي معها شأن عجيب. ثم أطعمه وسقاه وأقفل الغرفة عليه وخرج حتى لا تظن الصفراء به سوءًا.

ولما كان في ردهة القصر وجد ثعبانًا غليظًا يدنو منه ليبتلعه، فأدركه الرعب والفزع وفر من أمامه، وما كاد يجري هاربًا حتى نادته الصفراء قائلة: لا تخف يا قرة العين وبهجة الفؤاد! فإني ما فعلت ذلك إلا لأريك قدرتي وعظيم شأني في السحر، ثم دنت منه وربتت على ظهره وصدره، وقالت:

لا تخف فأنا فداؤك، فقال: أما كفاك أن أقاسي جميع النهار الوحدة وسماع أصوات العفاريت؟! فقالت: لا عفريت في قصري، وما سمعت إلا صوت إنسان مثلك، فقال: ومن جاءك بهذا الإنسان؟ لا شك عندي في أنه عفريت من الجن، فقالت: إنه فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، أسرته على مشهد من جيشه، وقد عولت على قتله ليلة عرسك الذي سيكون بعد يومين ترتد فيهما عافيتك، ويزول عنك تعب السفر، ليقال: كان زواجك يوم قتل أعظم شجاع وأجرأ من ركب جوادًا، فابتسم بهروز فرحًا وقال: إني أحب ذلك لأفتخر به مدى الزمن، ولكن كيف جئت به إلى القصر؟ فحكت له قصة اختطافه ثم قالت: وقيدته بشعرة من رأسي، وهي عنده أثقل من قيد حديدي زنته قنطار، وأشد منه صلابة وقوة، ولن يقدر أحد غيري على إطلاقه منها، فقال: لقد شوقتني إلى معرفة مبلغك من القدرة على السحر، ومقدرتك على إبطاله، وإطلاق فيروز من قيده، فقالت: أنت نور العين، ولا أخفي عنك شيئًا، وإني لقادرة على إطلاقه بكلمة واحدة، وفوق ذلك فقد طلسمت ماء ووضعته في زجاجة إذا صب قليل منه على مسحور بطل سحره، كما طلسمت ماء آخر وضعته في زجاجة إذا سكب قليل منه على إنسان سحره، وسأريك كل شيء عندي غدًا، لتعرف قدرة زوجتك التي تحبك.

وفي صبيحة اليوم التالي استأذنته أن تذهب إلى أستاذها، فذكرها بما وعدته من إطلاعه على ما عندها، فقالت: سأرجع إليك قبل غروب الشمس وأطلعك على كل شيء، فكن على يقين من الوفاء بوعدي، ثم ودعته وركبت سريرها وطار بها.

دخل بهروز غرفة المائدة وأخذ منها طعامًا وذهب إلى فيروز فأطعمه وقص عليه ما دار بينه وبين العجوز من الحديث، ثم أقفل عليه الغرفة ومضى إلى الصيادين فأطعمهم، ووجد أربعة منهم قد ماتوا وسقطوا على الأرض فدفنهم، ثم رجع إلى القصر ينتظر العجوز.

وقبل الغروب دخل على بهروز أسد ضخم فلما رآه فزع وصرخ، فقالت:

لا تخف، وقد جئتك اليوم في هيئة أسد لأريك أن في قدرتي أن أكون في الصورة التي أريدها، فتعال معي إلى خزائي لأفي لك بوعدي، ومضت به إلى غرفة وفتحتها ودخلت وهو معها، ثم فتحت خزانة وأخرجت منها زجاجتين وقالت: هذه للسحر، وتلك لإبطال السحر، ثم وضعتهما في الخزانة وأغلقتها، وفتحت صندوقًا أخرجت منه ثوبًا مزركشًا بالفضة وعليه صور كثيرة لأنواع الحيوان والوحوش ومردة الجان في أشكال مختلفة وقالت: هذا الثوب إذا لبسه إنسان لا يُسحر، ولا يدنو منه جارح من الوحش والطير، ثم أطلعته على كثير مما عندها، وعرفته أنها قتلت كثيرًا من الملوك، فقال: لقد أصبحت جديرًا أن أفتخر بأنك زوجتي، ثم رجعا.

وفي اليوم الثالث انتبها من نومهما وقت طلوع الشمس، وبعد أن طعما قالت له: لن أغيب عنك بعد هذا اليوم، فقال لها: أرجو ألا يطول غيابك فقد أصبحت لا أحتمله. ثم ودعته وركبت السرير وطار بها، فذهب هو إلى غرفة نومها وأخذ المفاتيح وفتح الخزانة، وأحضر الزجاجة التي تبطل السحر ومضى بها مسرعًا إلى فيروز شاه وسكب قليلا منها عليه فانفلت من عقال سحره، وشكر بهروز شكرًا جزيلا، ثم قال له: أحضر إليّ سلاحي الذي أخذته مني.

فأحضره وأخذه معه وقال له: ستجيئك اليوم في صورة وحش من وحوش الفلاة، فإذا جاءتك فاطلب منها أن تلبث على هذه الصورة لأنك تحب أن تداعبها وهي في صورتها هذه، وتقدم إليها واحبس نظرها على النظر إليك، وسأكون مختبئًا بسيفي خلف باب القصر، وحينئذ أهجم عليها من الخلف وأضربها بسيفي ضربة تقتلها، فقال: ذلك ما يكون.

حضرت العجوز في صورة فهد تحمل رجلا فوق ظهرها فلما كانت بباب القصر ألقته عن ظهرها ودخلت، فاستقبلها بهروز عند الباب وطلب منها ألا تنسلخ من صورتها هذه حتى يداعبها وهي عليها، ودنا منها وشغلها بحديثه عن النظر إلى غيره، ثم تقدم فيروز شاه من خلفها وضربها بسيفه فشقها نصفين، ورجعت إلى صورتها الإنسانية تتخبط في دمها وماتت.

العجوز الساحرة في صورة فهد، وبهروز يشغلها بحديثه، وفيروز شاه يضربها بسيفه.

فصاح بهروز: لا عدمتك يا سيدي! والآن قد نجانا الله هذه العجوز الساحرة. ثم قال له: اذهب إلى الصيادين وخلصهم من سحرهم، وتعال بهم إلى القصر لنحمل ما نقدر على حمله من الذهب والجواهر فنحن في حاجة إليه، فذهب بهروز إليهم وسكب عليهم من ماء الزجاجة فخلصوا من سحرهم، وجاءوا معه إلى القصر وقال بهروز: إني رأيتها وهي قادمة تحمل رجلا ألقته على باب القصر ولم نلتفت إليه فهيا بنا لنطلقه من سحرها، فذهبوا إليه، فإذا به فرخو زاد، فسكب عليه قليلا من ماء الزجاجة، فبطل سحره ورجع إلى حالته، وسلم على فيروز شاه وفرحوا جميعًا بهذا النصر العظيم على تلك الساحرة الكافرة ثم أكلوا وشربوا وجلسوا يتحدثون.

وسأل فيروز شاه أخاه فرخو زاد عما جرى في الجيش بعد اختطافه فقال: بذلت الجهد في القتال بعد اختطافك، وقد أخلص في المعونة ميمون وحمدون وبقية القواد، فقتلت قطران شاه وأرغمت جيشه على دخول المدينة وإغلاقها عليهم، فشددت الهجوم عليها لاقتحامها وكدنا ندخلها، ولكن فوجئنا بتلك الساحرة فاختطفتني كما اختطفتك وصاحت في الجيش قائلة: ارجعوا عن المدينة وانفضوا من حولها وإلا أهلكتكم. وهذا فرخو زاد الذي حضر مع فيروز شاه قد اختطفته لأقتله، وإن عدت إليكم ووجدتكم تقاتلون أهلكتكم أجمعين، ولا أظن إلا أنهم خافوا وتركوا فتح المدينة.

فقال فيروز شاه: سألت الله أن ييسر لنا العودة إلى هذه الجزيرة لأقتل بدران شاه، وأفتح المدينة، وأولي عليها حاكمًا عادلا.

فقال فرخو زاد: دعنا من هذا كله، وسر بنا إلى بلادنا؛ فإن عندنا أمورًا أهم وأعظم من فتح هذه المدينة، فقال فيروز شاه: لن أتركها حتى أفتحها، وناموا جميعًا في القصر، وحافظ فرخو زاد على الصيادين حتى لا يتسللوا إلى البحر ويركبوا في زورقهم ويذهبوا وحدهم، لأن هذه الجزيرة لا يرسو عليها مركب لأحد خوفًا من الصفراء العجوز الساحرة.

❊❊❊

﴿ ٦ ﴾

وفي الصباح نهضوا وحملوا ما يقدرون عليه من ذهب القصر وجواهره. وأخذ فيروز شاه الزجاجتين والثوب المطلسم ووضعهما في صندوق حمله معه إلى الزورق، ثم أقلع بهم وجري في البحر حتى رسا على الجزيرة البيضاء، فاغتبط فيروز شاه وقال: الحمد لله الذي هيأ لي سبيل العودة إلى هذه الجزيرة لأنتقم من بدران شاه ومن يشايعه، فقال فرخو زاد: دعنا منها، فقد لا نجد أحدًا ممن كانوا يقاتلون معنا، فقال: لا بد من ذلك، ونزل فيروز شاه إلى البر ونزل معه فرخو زاد، أما بهروز فقد بقي في الزورق ينتظرهما، ولما بعدا عن الشاطئ أمر بهروز أحد الصيادين أن يتبعهما ويعرف ما يحدث لهما، وإذا ضاقت بهما الأمور فلترجع إلينا سريعًا وتخبرنا بما حدث، فسار الصياد خلفهما، وكان يراهما ولا يريانه.

دخل فيروز وأخوه المدينة وجالا في أنحائها حتى كانا أمام باب لقصر كبير، وأرادا الدخول فمنعهما حارس الباب، فضربه فيروز بسيفه فأرداه قتيلا، وتصايح الناس واجتمعوا حول فيروز وأخيه ليقتلوهما انتقامًا وثأرًا، فوثب عليهم فيروز وأخوه بسيفهما، وجعل فيروز يحصدهم حصدًا، وسارع إليهما أهل المدينة وعرفوهما، وطار خبرهما إلى بدران شاه فثارت في نفسه دهشة عجيبة وقال: عجبًا لهما، ماذا صنعا بالصفراء الساحرة حتى انفلتا منها وعادا إلى المدينة؟!

ولما أعياه أمرهما أمر طائفة من جنده أن يصعدوا فوق المنازل ويرموهما بالحجارة والأخشاب ففعلوا، ووجد فيروز وأخوه أنهما في خطر من تلك الحجارة فشقا لهما طريقًا للخروج من المدينة حيث يبعدان عن المنازل والحجارة التي تتساقط عليهما، ولكن الزحام كان شديدًا فوقع الناس بعضهم على بعض في طريقهما، وأرادا أن يتخطيا تلك الجثث الساقطة،

ولكنهما تعثرا فيها وانكبت الجموع الأخرى عليهما، واستطاعوا أن يقبضوا عليهما ويذهبوا بهما إلى قصر بدران شاه مقيدين، وهناك قال لهما: كيف حالكما الآن؟

فقال فيروز شاه: نحن بخير وعافية، ولن تستطيع أن تمد يدك إلينا بسوء، وما جئنا إلا لنقتلك كما قتلنا أخاك، وكما قتلنا الصفراء العجوز الساحرة، ونحن قوم أيدنا الله بنصره، وحفظنا برعايته.

فقال لهما: إنكما تتعللان بالمحال، وستريان مني غدًا ما لم يكن لكما في الحسبان، ثم أدخلهما غرفة من قصره وأقفل الباب عليهما.

رجع الصياد في سرعة الريح إلى بهروز ونقل إليه ما وقع، فقال: لا بأس ولا يكون إلا الخير، وأراد أن يحبس الصيادين وزورقهم عند الشاطئ حتى يعود، فوزع عليهم قطعًا من الحلوى مخلوطة بالبنج فلما أكلوا سقطوا مغشيًا عليهم، ثم وضع شيئًا في أنف الصياد الذي كان قد أرسله من خلفهما فأفاق من غشيته وقال له: سر معي إلى القصر الذي حبسا فيه.

ووصلا إلى القصر وتسلقا سوره، وقاده الصياد إلى الغرفة التي نام فيها بدران شاه. والغرفة التي حبس فيها فيروز وفرخو زاد، فعمد بهروز إلى غرفة بدران شاه وفتحها بآلة حديدية كان قد أعدها لذلك، ودخل عليه فوجده على سريره يغط في نومه غطيطًا، وكان بالغرفة مصباح ذو ضوء ضعيف فأخرج خنجره من طيات ثيابه وذبحه، ووجد تحت المخدة مفاتيح فأخذها وقصد إلى غرفة فيروز وأخيه وعالج فتحها بالمفاتيح فانفتحت، ودخل عليهما بهروز وفي يده مصباح جاء به من غرفة بدران شاه، فاستبشرا لرؤيته، وقال فيروز: حققت يا بهروز ما ظنناه فيك بمجيئك إلينا، وإن العقول السليمة تتلاقى في نقطة واحدة لاستقامة التفكير وصدق التقدير، ففك عنا قيودنا وآتنا سلاحنا، ففك القيود وأخذهما إلى غرفة بدران شاه فوجداه مذبوحًا، وأعلمهما بهروز أنه هو الذي ذبحه، ثم ناولهما سلاحهما وكان قد وضعه بدران شاه في غرفته وأخذوا رأسه وخرجوا من قصره، وقضوا ليلتهم على مقربة من جنده، في مكان مستتر.

أشرق الصبح وانتظر الجند قدوم حاكمهم بدران شاه وهم فرحون بالقبض على فيروز وأخيه، ويتحدثون عن شجاعتهم وشجاعة حاكمهم، وبينما هم في نشوة حديثهم هذا طلع فيروز وصاحباه عليهم وبهروز يحمل رأس بدران شاه على خنجره، فلما رأوهم بهتوا وسرى الهمس فيهم يتساءلون: هذا فيروز فكيف انطلق من أسره؟ إنهم يحملون رأسًا، فلمن هذا؟! ودنا فيروز وصاحباه منهم وقال: خلصت بقوة الله من أسركم، وقتلت حاكمكم بدران شاه وهذا رأسه، وجئتكم لأنتقم منكم.

كان قائد الجند عاقلا حكيما، فقال: أمهلنا قليلا حتى أطلع على رأي الجماعة، ثم أفضي إليك بما رأوه، فإن المدينة الآن من غير حاكم، وقد يرى أهلها ما فيه الخير لهم ولكم، فقال: أمهلتكم ساعة وما أنا بتارككم حتى ينفذ أمري فيكم.

اجتمع القائد بالكبراء من جنده وقال: هذا حاكمكم بدران شاه قد قتل، وهذا رأسه أمامكم، وهذه الصفراء الساحرة التي كنتم تعتمدون عليها قد قتلت، وهذا ملككم هورنك قد قتل، وتولي ابن عمه شورنك ملكه، وبدا ضعفنا أمام هؤلاء الذين أصبح ملك الزنوج في أيديهم، فإما حقنتم دماءكم وأطعتموهم، وإما عصيتم وحملتم وزر عصيانكم، فماذا ترون؟ فقالوا: بان لنا في قولك وجه الصواب والحق، وقد رأينا حقن دمائنا واستقامة أمورنا بطاعتهم واتباعهم، فبلغهم ذلك عنا، فمضى القائد إليهم وبلغهم إجماع الكبراء من أتباعه ومن تبعهم على الطاعة والولاء، وإنهم يدعون فيروز ليدخل المدينة وهم من حوله، فقال: عليّ بهم حتى أختار للمدينة حاكمًا قبل أن أدخلها. فمضى القائد إليهم وأخبرهم بما يريده فيروز، فقالوا: إن فيما رآه حزمًا وحكمة، ثم رجع بهم إليه فقال فيروز: اختاروا من بينكم حاكمًا عادلًا ليعاملكم بالعدل ورعاية حقوق الناس، فاختاروا هذا القائد، ثم التفوا هم وأتباعهم حول فيروز طائعين، ودخلوا المدينة، وأعلن فيها فيروز أنه أقام قائد الجيش حاكمًا فيهم، وعاهد الحاكم على أن يطيع شورنك ويكون عونًا له عند الضيق والشدة، ثم رجع فيروز وصاحباه والصياد إلى الشاطئ.

فوجدوا الصيادين نائمين فتقدم بهروز ووضع في أنوفهم ما أيقظهم من مراقدهم، وركبوا الزورق إلى جزيرة الملك شورنك، فلما قربوا من شاطئها رأوا سفنًا كثيرة وجموعًا من الناس يسارعون إلى ركوبها.

فقال فيروز شاه: يغلب على ظني أن شورنك حمله الخوف من الساحرة على أن يهجر المدينة، وأمر الصيادين أن يسرعوا بالزورق إلى الشاطئ، وهناك نزلوا، وعرف منهم فيروز ما ظنه فيهم، فلما رأوه صفقوا وكبروا وابتهجوا، وصاح فيروز فيهم قائلا: اطمئنوا وارجعوا إلى دياركم آمنين، فقد قتلت الساحرة وقطران شاه وبدران شاه، ودانت الجزيرة البيضاء بالطاعة لملككم شورنك، فرجعوا معه إلى المدينة فرحين، وحزنت شيطانة حزنًا أليمًا لموت العجوز الساحرة، لأنها كانت تعول عليها في طرد هذا الملك الذي أخذ ملك زوجها غصبًا بسيف فيروز وأخيه، وسأل فيروز شاه الملك شورنك: إلى أين كنتم ذاهبين؟ فقال: خشينا أن تستعين شيطانة بالساحرة فتطردنا من المدينة مشردين، فعولنا على الرحيل إلى أبيك الملك ضاراب لنعيش في ظله آمنين، ولنخبره بما جرى عليك من العجوز الساحرة، ولكن الله أراد لنا العزة والبقاء بنجاتك. ثم لبث فيهم يومين. ودّعوه بعدها إلى بلاد اليمن خير وداع، وأخذ القواد والجيش الذي كان معه في الجزيرة البيضاء.

❊❊❊

﴿ ٧ ﴾

سبق طيطلوس الملك ضاراب بجيشه وعدته ثمانون ألفا، وجد في المسير به حتى نزل على حدود البلاد التابعة للمدينة الخضراء، وكان في جيشه فارس اسمه سيامك، وهو طويل القامة، كامل الخلقة، قوي البنية جرىء القلب، خواض المعارك، طموح إلى المعالي، وثاب إلى أن يكون قائدًا لكتيبة من الجيش أو أميرًا؛ فقال للوزير طيطلوس: إن في نفسي طموحًا إلى العلا، ولا أحب أن أنال منزلة إلا إذا كنت أهلًا لها، مضطلعًا بأعبائها، قادرًا على حمل أثقالها في كفاية وقدرة، وبودي أن تلحظني في هذه الحرب، فإن رأيتني في معاركها جديرًا بأن أكون قائد كتيبة، أو أميرًا فساعدني لدى الملك ليجعلني في المنزلة التي أستحقها. فقال: إن وجدتك كما قلت فإني أعدك أن أزكيك لدى الملك ضاراب، وهو كما تعلم ملك حكيم عادل، لا يحبس المنازل عن أهلها الذين يضطلعون بأعبائها في كفاية وجدارة.

وكان أهل المدينة الخضراء قد شاع فيهم نبأ فيروز بن ضاراب، وارتقبوا نشوب حرب بينهم وبين أهل المدينة البيضاء المعروفين عندهم بالقوة والكثرة، فلما رأوا الجيش قد عسكر على حدود بلادهم رحلوا منها إلى المدينة الخضراء مخافة أن يقعوا في أيدي هؤلاء الغازين، وامتلأت المدينة الخضراء بالمهاجرين إليها من أقاصي البلاد، ووصل خبرهم إلى الملك سرور، فشرحوا له أمرهم وأنهم هاجروا من بلادهم خوفًا من جيش الملك ضاراب الذي نزل على حدود البلاد، فاغتم الملك وأحضر وزيره طيفور وقال له: ما كان أغنانا عن هذا القتال الذي أخشى منه ضياع الملك وخراب البلاد.

فقال له: لا بأس عليك ولا حرج في أمرنا، فإن جندنا كثير، وسوف ترى ما يحل بأهل المدينة البيضاء من الهلاك والثبور، وأرى الآن أن نرسل إليهم

هلالًا العيار يتعرف أحوالهم وينقل إلينا أخبارهم، وأن تكتب إلى عمالك ليمدونا بما عندهم من الجيوش على جناح السرعة حتى نلقاهم في قوة وكثرة.

فأمر الملك بما أشار به وزيره طيفور والأمل يملأ جوانب نفسه أن سينال به كل خير.

كان هلال العيار ماكرًا محتالا، ذا دهاء وخبرة، وموضع ثقة الملك وتقديره، فانفلت مسرعًا إلى جيش المدينة البيضاء، ودخل بدهائه في غماره دون أن يعرفه أحد، ولما عرف كثيرًا من أحواله قفل راجعًا إلى الملك سرور في سرعة خاطفة وقال له: إن عدة الجيش ثمانون ألفًا، وهو في قيادة الوزير طيطلوس، وفيه شجعان أقوياء مشهورون، ومنهم فارس اسمه سيامك عرف بالبسالة النادرة وقهر الأبطال.

فقال الوزير طيفور: يحسن أن نرسل ولديك هزبرًا وليثًا في مائتي ألف جندي، ليقاتل هذا الجيش بعيدًا عن البلاد، وهذا الجيش كفيل بإبادة جيش المدينة البيضاء مهما يكن أمره، على أن نكون دائمًا على صلة بجيشنا، واقفين على أخباره من حين إلى حين، فأمر الملك ولديه أن يسيرا في جيش عدته مائتا ألف، وأوصاهما أن يجتهدا في القضاء على جيش المدينة البيضاء، ووصاهما أن تكون أخبار الجيش لديه حاضرة. فصدع ابناه بأمره، وسارا بالجيش إلى ساحة القتال في حدود البلاد، حيث يعسكر جيش المدينة البيضاء.

انفض المجلس ودخل الملك قصره، وجلس إلى ابنته عين الحياة، فألفاها كئيبة حزينة فسألها عما بها فقالت: إن بي من الهم والغم ما لا تحمله الجبال، فقد أطعت وزيرك طيفور فيما رأى وأشار به، وما رأى لك إلا كل شر، فهذا أخي الغضنفر قد قتل، وأنت الآن قد أرسلت أخوي هزبرًا وليثًا ليقاتلا جيش المدينة البيضاء، وأخشى أن يكون فيه أمثال فيروز شاه في الشجاعة والقوة، فيبيدوا جيشك ويقتلوا أبناءك. وبعد ذلك الطامة الكبرى على بلادك وملكك.

فقال الملك: ما أخطأت في طاعة الوزير إلا في أني أسلمت فيروز وأخاه إلى الملك هورنك، ولو أطعت الملك سليمًا وعفوت عنهما، وأعطيتهما سلاحهما

لجنينا من وراء ذلك كل خير، ولكن الله أراد ذلك، وما علينا الآن إلا الدفاع عن البلاد بكل ما نستطيعه من قوة، ولا ينبغي لنا أن نقف أمام هذا الجيش المغير ضعفاء عاجزين، فاطمئني فإن جنودنا أكثر عددًا وأعظم قوة، وأيسر مددًا ومعونة.

***

كان الملك ضاراب قد وصى وزيره طيطلوس ألا يشعل حربًا بينه وبين خصومه حتى يدعوهم إلى السلام ولا يستجيبوا له، فلما ورد جيش سرور ونزل أمامه استعدادًا للقتال كتب طيطلوس إلى قائده هزبر يقول: إن الملك أمرني ألا أحاربكم حتى أدعوكم إلى السلام، فإن استجبتم له كنا أصدقاء متعاونين، وسرتم معنا إلى هورنك ملك الزنوج لتخليص ابنه فيروز الذي أنكرتم فضله، وجحدتم نعمته، وأسلمتموه إلى هورنك ليقتله، وإن أبيتم إلا القتال، وشويناكم بلهيبه فلا ذنب علينا، وإني لمرتقب منكم إجابة صريحة، فإما سلام ووئام وتعاون ومودة، وإما قتال وشقاق وخصومة.

قرأ هزبر الكتاب على أخيه ليث واستشاره فيه فقال أخوه ليث: لقد أمرنا والدنا بالقتال، وليس لنا أن نخرج عن أمره، أو نبرم أمرًا لا يوائم رغبته، وقد نختار السلام ولا يرضى عنه، ولو كان يميل إليه لرضى به حين عرضه عليه الملك ضاراب من قبل، فلا بد من القتال تنفيذًا لأمر أبينا. وقد كتب إلى عماله ليسعفوه بجنودهم، وعما قليل ستجد عند أبينا جيشًا ساحقًا لا يبقي ولا يذر.

فقال هزبر لرسول طيطلوس: بلغ سيدك أنه ليس لدينا إلا القتال، أو أن يرجع هو من حيث أتى إلى دياره.

ورجع الرسول وأخبره فقال: لقد أعذرنا ولا ذنب حينئذ علينا ثم أمر جيشه أن يستعد للقتال غدًا.

وتقدم سيامك إلى طيطلوس وقال: سنحت لي الفرصة، ولا تنس ما وعدتني به.

فقال: إن وفيت بما قلت فإني ذاكرك عند الملك بما أنت أهل له ولن أنقض لك عهدًا .

أطلت شمس الغد على طائفتين ذواتي جموع منظومة. وصفوف مرصوصة، وأسلحة شُرّع، وصهيل للخيل تتجاوب أصداؤه وتتدافع، وعزم مشبوب، وحماسة تفور في الصدور.

ودقت طبول الحرب وتدفق الجنود، ولعبت السيوف بالأجسام، وعبثت بالأرواح، ولقى جيش المدينة الخضراء من جيش المدينة البيضاء، الهوان والعنت، وكان سيامك فارس المعركة وفتاكها المروِّع، وشبحها المخيف المفزع، ودامت الحرب أربعة أيام دائرة بين تقاتل الجيشين ومبارزة الفرسان، وقتل فيها كثير من جيش المدينة الخضراء، وأسر هزبر بن سرور، وفي مساء اليوم الأخير عول ليث بن سرور وجيشه على الهرب ليلا وفي خفية، حتى لا يتبعهم جيش المدينة البيضاء ويبيدوهم، ولما خيم سكون الليل واطمأن الهجوع انسلوا في غير جلبة، وفروا إلى المدينة الخضراء خائبين .

***

استيقظ جيش المدينة البيضاء في الصباح فلم يجدوا من أعدائهم أحدًا، وتقدم سيامك إلى الوزير طيطلوس وذكره بوعده، وتزكيته عند مليكه، فقال الوزير: لقد كنت يا سيامك فارس حلبتها، وقطب رحاها، وسأبعثك إلى الملك ضاراب ومعك كتاب التزكية، وهزبر بن سرور الذي كان لك شرف أسره، وربما وجدته في طريقه إلينا في بقية جيشنا.

فقال سيامك: شكرًا لك أيها الوزير الحكيم. ثم ودعه وناوله الكتاب الذي شرح فيه ما وقع إلى أن قال: وأصبحنا فلم نجد إلا آثارهم، وقد كان الفارس سيامك في معاركنا كأنه ملك الموت، فما نزل من في ناحية إلا كسحها، ولا بارز فارسًا إلا قتله، والحق أني ما رأيت أشجع ولا أثقل وطأة على الأعداء من سيامك هذا، وهو الذي أسر هزبر بن سرور الذي أرسلته إليك معه، فإذا تفضلت عليه بجعله أميرًا، أو قائدًا كنت قد وضعت الأمر

في نصابه، وأعطيت الحق صاحبه، وسأمضي بالجيش إلى المدينة الخضراء حيث أنتظر قدوم جيشك الميمون الذي أرجو أن يصل إلينا سريعًا.

أخذ سيامك الكتاب، وهزبر بن سرور، وانطلق والدنيا لا تكاد تتسع له من شدة ما عنده من الفرح والأمل الواسع الذي أوشك أن يتحقق. وفي اليوم الثالث من مسيره ظهر له جيش تخفق أعلام المدينة البيضاء من فوقه، فعرف أنه جيش مليكه.

كان الملك ضاراب قد سار بجيشه إلى وزيره طيطلوس في بلاد المدينة الخضراء، وكان قد نزل في طريقه للراحة، وقبيل الغروب رأى وهو جالس أمام خيمته راية للمدينة البيضاء تخفق فوق اثنين يركض بهما جواداهما ركضًا، فقال لمن حوله من القواد والكبراء: هذان الفارسان المقبلان يحملان إلينا بشرى انتصار طيطلوس وجيشه، فالحمد لله الذي كتب لنا النصر حيثما حللنا أو رحلنا.

وبعد برهة كان سيامك وهزبر واقفين بين يدي الملك ضاراب، وكان هزبر مغلول اليدين إلى الوراء.

سلم سيامك وحيَّا وقبل يد الملك، ثم حكى له ما كان من طيطلوس وجيشه وناوله كتابه، ولما اطلع عليه وعرف ما فيه لمع الفرح في عينيه وناول وزيره «دوش الرأي» الكتاب وقال له: اقرأه على مسمع منا ومن الحاضرين، فكان يقرأ وأمارات الاستحسان والإعجاب تبرق في وجوههم، فلما فرغ من قراءته، التفت الملك إلى سيامك وقال: رفعتك إلى منزلة الأمراء، ومنحه القباء الأحمر، والرداء المنقوش بالذهب والفضة، وهما لباس الأمراء. ثم قال له: اختر لك من هذا الجيش كتيبة عدتها ثلاثون ألفًا، يكونون في طاعتك ويأتمرون بأمرك، فشكره سيامك، ودعا له بالعز والتأييد.

وهنأه الحاضرون فشكرهم، ثم سأله الملك عن ابنه فيروز شاه فقال: ما سمعنا عنه خبرًا، وأرجو أن يكون في خير وعافية. وبات سيامك ليلته فرحًا، وفي الصباح ألف كتيبته، وانتظر الأمر بالمسير وهو عازم على أن يرى الملك من كفاحه وقتاله ما يؤيد قول الوزير، ويعزز تزكيته. أما هزبر فقد

طمأنه الملك ووعده أن يرجعه إلى أبيه، ثم أرسله إلى المدينة البيضاء، وأمر رجاله بالمحافظة عليه وإكرامه حتى يعود إليهم.

***

وصل ليث بن سرور في بقايا جيشه المهزوم إلى المدينة الخضراء، فكان حديث المدينة الساخر وقال أهلها بعضهم لبعض: ذلك ما جره الملك على البلاد بطاعة وزيره طيفور، وهذه قطرة تسبق الغيث، وعسى الله أن يعجل بتخليصنا منهما، حتى يلي الحكم فينا رجل خبير حازم يحسن سياسة الرعية ويسعى في خيرها.

واجتمع ليث بأبيه ووزيره طيفور وقص عليه ما وقع لجيشه، فقال أبوه: وكيف تهزمون، وأنتم أكثر منهم عددًا، وفي بلادكم، والمدد من ورائكم؟!

فقال: إن فيهم فرسانًا إذا رأيتهم حسبتهم من العفاريت، وما قصرنا في القتال، ولكن فرساننا لم يكن لهم قدرة على الثبات أمامهم، وإني أحسبهم الآن قد أضعفهم الكفاح وأنهك قواهم، فإذا دهمتهم الآن بجنودك قهرتهم، وبلغت فيهم ما تريد، فإني أخشى أن يكونوا طليعة لجيش جرار قادم إلينا على آثارهم، لأني لا أصدق أن ملك المدينة البيضاء يغزونا في عقر دارنا بهذا العدد القليل.

فقال طيفور: لا تترك أيها الملك الرشيد الفرصة حتى تفوت، والحزم يقضي علينا أن نسارع إليهم بجنودنا لنبيدهم، ونوقع الرعب فيمن يأتينا على آثارهم. فأمر الملك بالاستعداد للمسير غدًا.

جاء الغد وركب الملك وقواده في ستمائة ألف فارس، ولاح لهم جيش طيطلوس بعد مسيرهم نصف اليوم فقال طيفور: لا ريب أن أعداءنا اليوم في ضنك من التعب والسفر، وعلينا أن نبغتهم الآن قبل أن ينالوا حظهم من الراحة، فإنهم لا ثبات لهم ولا قوة، ولن يأتي الليل بظلامه حتى يكونوا قد دمروا، أو طردوا طرد الكلاب، فأعجب الملك رأي وزيره طيفور، وأمر بالهجوم على هؤلاء المغيرين.

غر أهل المدينة الخضراء كثرتهم وأطمعهم قلة أعدائهم، وما كانوا يظنون أنهم قادرون على أن يثبتوا أمامهم، ولكن طيطلوس أحضر «بهمنزار» قائده الأكبر وقال له: أسلمت إليك أمر الجيش، ولا أريد منك إلا الثبات به في وجه هؤلاء الأعداء حتى يصل إلينا الملك بجنوده، وسيكون وصوله إلينا في مدى ثلاثة أيام على الأكثر، فقال بهمنزار: لن يكون إلا ما تحب، وسوف ترى مني ما يسرك.

انقض الجيشان بعضهما على بعض، وتلاطما تلاطم الأمواج الثائرة، وعصفت ريح المنون، واشتد الهول، واضطربت الظنون، وجال بهمنزار في الأعداء، وأبدى أهل المدينة البيضاء من الثبات والجلاد ما أخاف أعداءهم، وأرغمهم على أن يرتدوا مرجئين القتال إلى غدهم، ووافق هذا الإرجاء رغبة في نفوس أهل المدينة البيضاء، ليستريحوا ويستجموا.

أعجب طيطلوس بقائده بهمنزار وقال له: أرى أن تطاول الأعداء بالمبارزة فإني أخشى أن تأكل كثرتهم قلتنا، والغاية من ذلك أن نحول دون انتصارهم علينا حتى يأتي ملكنا، فقال: لك مني ما شئت.

وفي صباح الغد انفلت بهمنزار إلى ساحة القتال، ونادى من يبارزه من أهل المدينة الخضراء، فطمع فرسانهم أن يقتلوه أو يأسروه ليضعف جيشه وتفتر عزيمته، ولكنه خيب ظنهم وقتل كل فارس بارزه، وما جاء وقت الظهيرة حتى قتل من المدينة الخضراء خمسين من أشداء فرسانهم، فكفوا عن المبارزة، وقال طيفور: إن دام الأمر على هذه الحال أبادونا ونحن لا نغلبهم إلا بكثرتنا، ولا ينفعنا إلا أن نهجم عليهم دفعة واحدة، فأمر الملك بالهجوم، واشتبك الفريقان وعادت الحرب إلى أشدها، وكان الغلب في ذلك اليوم للمدينة الخضراء، ولما جاء الليل وأوى الجند إلى مضاربهم أشار على طيطلوس أحد قواده أن يرتدوا ويحموا ظهورهم بالجبل، ويحاربوا الأعداء بالنبال، وبذلك تطول مدة الحرب، ويمتد أجلها حتى يأتي الملك بجيشه؛ وفي سكون الليل ارتد أهل المدينة البيضاء واعتصموا بالجبل، وضربوا خيامهم على ظهره.

تنفس الصبح ولم يجد جيش المدينة الخضراء جيش المدينة البيضاء، ولم يعرفوا إلى أين هربوا، فأمر طيفور هلالا العيار أن يتبع آثارهم، ويعرف مكانهم، ويعود بأخبارهم سريعًا، فطار وراءهم كأنه الريح إذا اشتدت، ووجدهم قد عسكروا على الجبل، وانقلب إلى الملك يجري وأخبره بما وجد، وأشار طيفور أن يلحقوا بهم، ولا يتركوهم حتى يدمروهم.

كان طيطلوس قد أمر الجند أن يوتروا أقواسهم، ويستعدوا لرمي الأعداء بالنبال، وأن يكفوا عن رميهم حتى يبدأ بهمنزار الرمي ويأمرهم به.

وفي الصباح جاءهم أهل المدينة الخضراء، وجعلوا يتسلقون الآكام للوصول إليهم، وأهل المدينة البيضاء ساكتون لا يبدون حركة، ولا يفعلون شيئًا، فطمع أهل المدينة الخضراء وظنوا أنهم قد استسلموا، ونشطوا في تسلقهم، حتى كان أكثرهم معلقًا في الآكام، فبدأ بهمنزار الرمي وأمر الجند به، وتساقطت عليهم النبال فلم يجدوا لهم مناصًا إلا الفرار والارتداد، ونكصوا على أعقابهم نادمين بعد أن قتل منهم عدة ألوف، فقال طيفور: إن الجبل لا ماء فيه، فإذا حاصرناهم نفد ماؤهم، وماتوا عطشًا، أو حموا أنفسهم بإلقاء أسلحتهم وتسليم أنفسهم؛ ولكن الملك كان يخشى أن تطول مدة القتال، لأنه كان يتوقع مجيء مدد من بلاد المدينة البيضاء وقال: لقد رأيت أعينهم وهم يحاربوننا تديم النظر إلى الطريق كأنهم يرتقبون مددًا فأمر طيفور هلالًا أن يسير في الطريق ليعرف: هل هناك جيش قادم أو لا؟ فانطلق هلال ليتبين لهم أمر ذلك الجيش الذي يخشونه.

وقال طيطلوس لجنده: إن القوم حصرونا فأمسكوا عن الإسراف فيما عندكم من الماء، وخذوا منه بقلة حتى لا يقتلنا العطش قبل أن يأتينا جيش الملك.

بات الوزير طيطلوس وقواده وكبراء جيشه يتحدثون في أمرهم، ويعجبون من إبطاء الملك عليهم، وبينما هم في حديثهم دخل عليهم شبرلنك العيار فأنقذهم من ذهولهم وحيرتهم، وهبوا نحوه سائلين: ما وراءك من الأخبار يا شبرلنك؟ فقال: ورائي رجال لا يرهبون الموت، ورائي الملك

ضاراب ووزيره فيلزور، ورائي الأمير سيامك وأشداء الفرسان، ورائي راية المدينة البيضاء تخفق بصورة الأسد والشمس فوق الأسود الكاسرة، فانتعش القوم واطمأنوا، وقال طيطلوس: وأين الملك الآن؟ فقال: وصل بالجيش إلى الساحة التي أسر فيها هزبر، وهناك أقام حفلة عظيمة وسماها أرض سيامك تكريمًا له، وإعلانًا بأن الملك يسخو بالمكافأة على كل من خدم الوطن، وتركته قادمًا إليكم، ولكنه كلفني أن أسبقه وأرجع إليه بأخباركم، وأنا الآن عائد إليه. فقال طيطلوس: عجل بالعودة وبلغه ما نقاسيه، وأننا أصبحنا كالمريض الذي انقطع رجاؤه في الحياة.

فجرى شبرلنك إلى الملك ضاراب وأخبره أن الجيش حصره أهل المدينة الخضراء في الجبل، وإن لم تدركه الآن مات عطشًا، أو ألقى سلاحه عجزًا، وكلتاهما تقصم الظهر وتُدخل القبر، وكان ذلك بعد أن مضى جزء من الليل، فأمر الملك بالرحيل فورًا، ليدرك جيش طيطلوس عند الصباح.

أما هلال العيار فإنه دأب على المسير في الطريق حتى لقى جيش الملك ضاراب، فتنكر ودخل بين الجند وعرف مبلغه من الكثرة والقوة، ثم انفلت يجري إلى الملك سرور، فقال له: إن الأمر أعظم مما تظنون؛ فقد تركت خلفي جيشًا وعلى رأسه الملك ضاراب لا يستطيع أحد أن يقف في سبيله، وقد عرف كل شيء عن جيش طيطلوس، وإنه إن جاءكم في مكانكم هذا حبسكم فيه، وقطع ما بينكم وبين المدينة، فلا يصل إليكم زاد ولا ماء ولا مدد ولا سلاح، وكنتم لقمة سائغة له، فقال طيفور: يأمر الملك بالارتداد والوقوف أمام المدينة، فإذا وجدنا فينا ضعفًا دخلنا المدينة وأغلقناها واعتصمنا بها، فأمر الملك بالرحيل في سرعة عاجلة، وقال لوزيره طيفور نادمًا: أرأيت كيف حاق بنا الخطر من كل مكان؟! فقال: لا خطر علينا ولا خوف، فإن لدينا من الجنود وكثرة عددهم وعظيم قوتهم ما نستطيع أن نلقى به جيوش الدنيا، وهؤلاء أنصارنا وأعواننا الذين كتبنا إليهم قد استجابوا، ولا يزال الفرسان يأتوننا من كل مكان، فكن على ثقة من فوزنا وانتصارنا.

ورأى طيطلوس جيش الملك وهو قادم إلى المدينة الخضراء فانشرح

صدره، وأمر بالنزول من الجبل والمضي إليه، وجاءه شبرلنك حينئذ ودعاه إلى الملك ضاراب.

لقى طيطلوس الملك فسلم عليه وحياه، وشكر له الملك عظيم بلائه في قتال الأعداء وقال: ما كنت أود أن تقعوا في هذا الخطر، ويصل بكم الأمر إلى هذا الضيق وتلك الشدة، ولكن الله أراد ذلك وما علينا إلا أن نصبر ونرضى، وإن في وسعي الآن أن أهجم على الملك سرور وأنتقم منه، ولكنه ضعيف لا يحسن التدبير، وأحب أن أكتب إليه بالدعوة إلى الصلح والسلام، فإن رضى عفونا عما سلف، وسار معنا برجاله وسفنه إلى هورنك، وإن عصى وتمرد قاتلناه وملكنا بلاده، وأخذنا سفنه لتحملنا إلى بلاد هورنك، والله يفعل بعد ذلك ما يشاء، فقال طيطلوس: أظنه يرضى بالصلح والسلم لو كان عنده وزير عاقل حازم، ولكن وزيره طيفور غير حازم، وإن الملك يطيعه طاعة عمياء، فقال: إن لم يطع دعوتنا فقد أنذرنا وأعذرنا، ثم كتب إليه يقول :

– من الملك ضاراب إلى الملك سرور حاكم المدينة الخضراء، أما بعد، فقد كتبت إليك وأنا بعيد عنك، والآن أكتب إليك وأنا في أرضك وعلى أبواب مدينتك، ولا ريب عندك الآن في أنه ستقع حرب لا يعلم عاقبتها إلا الله تعالى، وحقنًا للدماء أكتب إليك مرة ثانية، وأدعوك إلى أن تأخذ بالحزم والحكمة، فتسالمنا وتسير معنا وتحملنا سفنك إلى بلاد هورنك لنخلص فيروز شاه إن كان حيًّا، ثم نعود به ونقوي الرابطة بيننا بزواجه من ابنتك عين الحياة، وإن كان قد نفذ فيه قضاء الله أخذنا بثأره، وجعلنا تلك البلاد تشرق بالإيمان وعبادة الله، ثم رجعنا على وئام و وفاق، وأرجعت إليك ابنك هزبرًا سالـمـًا مكرمًا. واعلم أني ما كتبت لك هذا عن خوف منك، أو من غيرك والسلام.

بعث الملك بكتابه هذا شبرلنك العيار، فناوله إياه، ولما قرأه أطلع وزيره طيفور على ما فيه وقال له: ماذا ترى؟

فقال: وهل يرضى العقل أن نجيبه بغير ما أجبناه أول مرة؟! وما لنا

وللملك هورنك؟ وكيف يحملنا ضاراب على أن نخلق عداوة بيننا وبين هورنك؟! إن ابن ضاراب قتل ابن هورنك، فأخذه هورنك ليقتص منه، ويجزيه على فعلته قتلًا أو تعذيبًا، فما شأننا حتى ندخل بين ضاراب وهورنك؟! إن كان صادقًا في تخليص ابنه، أو الأخذ بثأره فدونه من أخذه، وإن أصر على استبداده وعناده فنحن على استعداد لقتاله وتأديبه، وما نحن بأضعف منه قوة ولا أقل منه مالا وجندًا.

فتأثر الملك سرور بهذا القول، وكتب إلى الملك ضاراب به، وأعاد به رسوله شبرلنك العيار، فلما قرأ ضاراب كتابه قال: ما أجهل الملك سرورًا وما أضل رأيه!! لقد نسى أنه المسئول الأول عن فيروز شاه لأنه هو الذي سلمه إلى هورنك بعد أن دفع عنه وعن ملكه وبلاده البوار والدمار، ونسى أني عفوت عنه، وأني راغب في صداقته ومعونته، وتأكيد ذلك بزواج ابني من ابنته عين الحياة، وأبى إلا العناد الجاهل فدفع بنفسه ورعيته في تنور الحرب التي سوف لا تبقي منهم باقية، وسيجزيه الله على ذلك شر الجزاء، ثم أمر قواده وجنده أن يستعدوا لقتاله غدًا، ووصاهم أن يحافظوا على الدماء ما استطاعوا، ولا يقتلوا أهل المدينة الخضراء إلا إن كانوا مكرهين، لأنه لا ذنب لهم، فلا أظن إلا أنهم غاضبون على الملك ووزيره طيفور، ناقمون منه جهله وفساد رأيه وسوء تدبيره.

فقال طيطلوس: لقد جنحنا للسلم، وما جنحوا لها، وليس علينا بعد ذلك حرج إن أفنيناهم، فلندع الفرسان يقاتلون كما يشاءون فيقتلون ويأسرون.

فقال الملك: استعدوا للحرب غدًا، ثم أرسل شبرلنك العيار إلى الملك سرور يقول له: إن الملك ضاراب يأبى أن يأخذكم على غرة وغفلة، لأنه لا يحب الغدر والخيانة، وقد أرسلني إليك لأخبرك أن القتال غدًا، فبلغه شبرلنك هذا ورجع.

كانت عين الحياة حريصة على أن تعرف أخبار الجيشين، فكلفت أحد خدمها أن يوافيها بتلك الأخبار في أوقاتها.

وأطلت شمس الصباح لتنظر بني الإنسان وهم يأكل بعضهم بعضًا من

أجل مشكلة كان في الإمكان حلها لو لم تغب العقول، ولو لم تعبث بها يد الفساد، فماذا نظرت؟

رأت معركة حامية بين وحوش مفترسة مخالبها السيوف، وأنيابها الرماح، وزئيرها صباح من بني الإنسان، وكانت ضحاياها من المدينة الخضراء، واستمرت قائمة أربعة أيام متوالية، ولا ترى الشمس منهم إلا دماء تراق، وجثثًا تدوسها سنابك الخيل، واضطر جيش سرور أن يرتدوا ويضربوا خيامهم أمام مدينتهم ليسهل عليهم الفرار إليها إذا لم تنكشف عنهم هذه الغمة.

واستيقظ الوعي في رأس الملك سرور، فأحضر وزيره طيفور وقال له: أرأيت كيف فعل أهل المدينة البيضاء بنا؟! ألم تر كيف دارت علينا الدائرة؟! أما كفاك التعلل بالمحال والتعلق بخيوط الأوهام؟! لقد جنينا على أنفسنا بسوء تدبيرنا، وما بقى على ضياعنا إلا قليل.

فقال طيفور: لا يأس مع الحياة، وعندي حيلة تنجينا من هذه الورطة، فقال الملك: وما تلك يا طيفور؟ فقال: إن الملك ضاراب ذو عقل وحكمة ورحمة، وإنه يبغض القتال لأن فيه سفكًا للدماء، وقد رأيت أن نطلب منه هدنة مدتها عشرة أيام ونقول له: إن ما عرضته علينا من الصلح والوئام وأن نكون يدًا واحدة أمام هورنك ملك الزنوج أمر جسيم يحتاج البت فيه إلى تأليف مجلس من الكبراء والأعيان لفحصه، وبيان ما فيه من المنفعة والخير، وربما أجمع رأيهم على قبوله، وبذلك ينتهي ما بيننا من خصومة، ولهذا فإني أرجو أن تمهلنا وتعفينا من القتال عشرة أيام لننظر فيها ما عرضته علينا، ثم قال طيفور: وفي تلك المدة يكون المدد قد جاءنا من كل ناحية، وأصبحنا قوة لا يستطيعون أن ينالوا منها نيلا، فخدعه قول وزيره وقال له: اكتب إليه بما ترى، فكتب إليه بذلك كتابًا وأرسله مع هلال العيار.

قرأ الملك ضاراب الكتاب أمام وزرائه وقواده، ثم ابتسم ابتسامة البصير العالم وقال: إن الملك سرورًا يخدعني بكتابه هذا، لأنه يمنيني فيه بالصلح والمسالمة، ويطلب من أجل ذلك أن أهادنه عشرة أيام، والواقع الذي أظنه أنه

يبغي من الهدنة أن أعطيه فرصة يجمع فيها جموعه ليسترد قوة جيشه ويعود إلى القتال، ولكن رغبتي الملحة في حقن دماء المؤمنين تحملني على الاستجابة له، وعسى أن يهديه الله في تلك المدة سبل الرشاد، فاكتبوا إليه بالموافقة، وذكروه أن يبصر الأمور على حقيقتها، وأن ينشد الخير لنفسه ولشعبه. وليس بضائرنا من هذا التأجيل شيء، فنحن قادرون بعون الله وفضله على سحق جيشه مهما يكن عدده، فكتبوا بهذا كتابًا، وحمله هلال العيار، ورجع به إلى مليكه، وفرح الملك والوزير لنجاح الحيلة، وفرح الجيش وأهل المدينة للتنفيس عنهم هذه المدة. وأسرع الملك فأرسل إلى عماله في البلاد أن يسعفوه على جناح السرعة بالمدد من الرجال، فكانت تأتيه الجماعات كل يوم وهو يستقبلها ويجمعها في المدينة وحواليها، والملك ضاراب يعلم ذلك ولا يبدي أسفًا ولا ندمًا لأنه على ثقة من نفسه وجيشه.

بلغت هذه الحيلة عين الحياة فأسفت أشد الأسف لأن أباها بدا في ثوب من الغش والخداع لا يستر لابسه ولا يزينه، وجاش صدرها إعجابًا بالملك ضاراب وحلمه ورحمته، فقالت لخادمتها شريفة: أرأيت هذا الملك الجليل القدر كيف يحلم ويرضى أن يسالم أبي عشرة أيام وهو قادر على أن يقوض عرشه، ويملك بلاده في أقل من يومين؟! إن هؤلاء القوم جديرون بالحياة فيهم والاختلاط بهم، لأنهم برهنوا على أنهم مثل كامل للإنسانية الفاضلة، فقالت شريفة: وقد ورث فيروز شاه عن أبيه طباعه، فما وجدناه إلا كريمًا شجاعًا، عفيف النفس جميل الخلق وكان ذاك الشبل من هذا الأسد، فأغمضت عين الحياة عينيها، وغرقت في لجة من فكر عميق.

***

وفي اليوم السادس من الهدنة دخل هلال العيار على الملك سرور وكبرائه كئيبًا حزينًا مضطربًا، فسأله الملك عما أحزنه فقال: هلكنا يا مولاي وضاع ملكنا، وخربت ديارنا، وسبيت نساؤنا، ففزع الحاضرون وقال الملك: أوجز يا هلال وهات ما عندك، فقال: كنت في عسكر المدينة البيضاء طائفًا جائلا

لعلي أقع على خبر جديد عندهم، ثم رجعت من طريق الجبل الذي كان فيه طيطلوس وجنوده، وخطر لي أن أصعد فيه وأرسل نظري في وسيع البر لعلي أنظر شيئًا ينفعنا، فرأيت في الجهة الشرقية من مدينتنا هذه غبرة كثيفة تكاد تصل إلى عنان السماء، فظننتها الجيش جاء لمعونتنا، فسعيت إليه حتى دنوت منه، وعرفت أنه من المدينة الصغرى، وأنهم لا يحصون عدًّا، ومن بينهم رجل طويل القامة كأنه النخلة ضخم الجثة كأنه الفيل، يمتطي فيلا كبيرًا كأنه الأكمة، وفي يده عمود من حديد لو ضرب به جبلًا لأشفق منه الجبل، وعرفت أنه طومار وقد جاءنا بجنوده ليثأر لأخويه نيروز وميسرة اللذين قتلهما فيروز شاه فأسرعت بالحضور بين يديك لأبلغك، وتعد لهذا الأمر عدته قبل أن تؤخذ على بغتة.

سكت الملك وجميع الحاضرين ساعة فهم لا ينطقون، وخفقت قلوبهم بلعن الملك سرور ووزيره طيفور، إذ كانا السبب في هذه المصيبة الكبرى وما سبقها. وأدرك طيفور حرجه فابتدرهم وقال: لك البشرى أيها الملك السعيد، فما جاء هذا الجيش إلا لنجدتك وإسعادك.

فقال الملك وهو لا يكاد يفهم قول وزيره: وكيف ذلك وهو عدو لي، وقد قتل أخواه بسبب ابنتي، وقد جاء ليثأر لهما مني؟!! فقال: لا ينبغي للملك أن يخاف عدوًا، وعنده وزيره المدبر الحكيم طيفور.

فقال الملك: لقد أصبحت بين عدوين قويين لا طاقة لنا بأحدهما، فكيف نطيقهما معًا؟!

فقال طيفور: ستراني جعلت الملك طومار صديقًا لك وفيًّا، وناصرًا أمينًا؛ وسأجعله يحمل عنك عبء القتال، ويتصدى لملك المدينة البيضاء من دونك، وأنت مستريح وادع.

فقال الملك: إنك إن فعلت هذا كان لك الفضل الأكبر والمنة العظمى.

فقال طيفور: سترى وتسمع ما يسرك. ثم استأذن وخرج، وهم لا يعرفون ماذا يفعل.

أحضر الوزير من الهدايا شيئًا كثيرًا يسترعي الأنظار، ويستميل الأفئدة؛

من جوار ومماليك وجواهر نفيسة، ثم سار بها ثلاث ساعات حتى كان عند مقدمة جيش طومار، فعرفهم بنفسه، وأنه يريد أن يقابل الملك، فمضوا به إليه، وقالوا: هذا طيفور وزير الملك سرور قد جاءك طائعًا مختارًا.

فقال: أدخلوه، فلما دخل سلم عليه، وقبل يديه، وأذن له بالجلوس فجلس، ثم سأله عن حاجته فقال طيفور: بلغ ملك المدينة الخضراء نبأ قدومك، وهو في عنت من أمره، وظلمة حالكة من أيامه، وحرب آخذة بمخنقه، وكادت تكون القاضية، وهي قائمة بينه وبين ملك قتل ابنه، أخويك نيروز وميسرة، وقد أرسلني إليك بهذه الهدايا دليلا على الطاعة وصادق الولاء، ثم قدمها الوزير إليه فأعجبته وأعجبت الحاضرين معه.

فقال طومار: وكيف يكون هذا من الملك سرور بعد أن قتل أخوي العزيزين نيروز وميسرة؟!

فقال طيفور: ما امتدت إليهما يده بسوء، وربما عرفت هذا ممن فروا من جنودهما، والحق أن رجلا غريبًا جاء بلادنا وقت أن كنا في حرب مع نيروز، ولما عرفنا أن أخويك معه عزمنا على التسليم لهما، ولكننا فوجئنا بنبأ قتل هذا الرجل الغريب إياهما، كما قتل هولنك بن هورنك ملك الزنوج، فاغتاظ الملك سرور غيظًا أليما، فأمر بالقبض عليه وحبسه حتى يسلمه إليك لتقتله كما قتل أخويك، واتفق أن جاءنا هورنك ليثأر لابنه هولنك من قاتله فحكينا له قصته، وأسلمنا إليه هذا الغريب القاتل، فأخذه هورنك ورجع به إلى بلاده ليقتله على مشهد من أهلها.

وكان هذا الغريب قد جاءنا في هيئة مملوك أجنبي، ولما تبينا أمره وجدناه فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، وقد جاءنا الآن أبوه وطلب منا أن نتفق معه، ونمضي إلى هورنك ونقاتله للأخذ بثأر ابنه فيروز شاه، ثم ينقلب بنا إليك لنقاتلك، فأبينا أن نطيعه، وقال الملك سرور: لا يمكن أن أمضي إلى قتال طومار أبدًا ولو ضاع ملكي، وقامت بيننا وبين ملك المدينة البيضاء حرب ساحقة، ولما أشرفنا على الخطر طلبنا منه هدنة مدتها عشرة أيام عسى أن تصل إليك أخبارنا فتدركنا وتنفس عنا كربتنا، وهأنتذا قد

جئتنا فكان قدومك إلينا خيرًا وبركة، وقد بعثني الملك لنكون يدًا واحدة أمام هذا الملك المستبد الظالم.

كان طومار غفلا مغلق الفهم لا يعرف القول الخادع من صادقه، فوقع كلام طيفور من نفسه موقع صدق وقبول، وقال: ارجع إلى الملك سرور وبلغه أني قبلت هديته، وأني رضيت بصداقته، وسأنتقم له ولنفسي من الملك ضاراب وجنوده.

انقلب طيفور إلى ملكه، ودخل عليه مشرق الوجه يبتسم ابتسامة الظافر وبشره بما قاله طومار، ففرح الملك ومن معه من الأعيان والكبراء وأثنى الملك على وزيره ثناء جميلا.

وبينما هم غارقون في فرحهم دخل هلال العيار عليهم وقال: إن الملك طومار يريد أن يجتمع بالملك في ديوانه، وها هو ذا قادم إليك، فخرج الملك ومن معه من الديوان واستقبلوه في فرح وإجلال، وساروا به والناس تتوافد عليه لينظروه، فقد كان راكبًا فيله الكبير، وعليه من الحديد السميك ما لا يستطيع حمله أشجع الفرسان، وبيده عموده الحديدي الطويل، وعلى رأسه بيضة من الحديد زنتها نصف قنطار، ولما رأى تلك الحفاوة البالغة تأكد في نفسه صدق الملك ووزيره، ورغب في أن يوطد بينه وبين الملك وشائج المحبة والولاء، ولما انتظم المجلس بهم أعاد الملك سرور عليه ما قاله وزيره طيفور، فانتفخت أوداجه كبرًا وفخرًا وقال: ما جاءكم ملك إيران إلا ليقوض عرشه، ويخرب دياره، وسترون بأعينكم ما يحل به وبجنوده.

فقال طيفور: لا ريب في أنه مهزوم خاسر، ولن يستطيع أن يقف أمامك طرفة عين، ولهذا وجب علينا أن ننقض عهد الهدنة، ولا نصبر حتى تنتهي أيامها.

فقال طومار: غدًا يبدأ القتال، ونقضي على هذا الملك وجنوده القضاء الأخير.

***

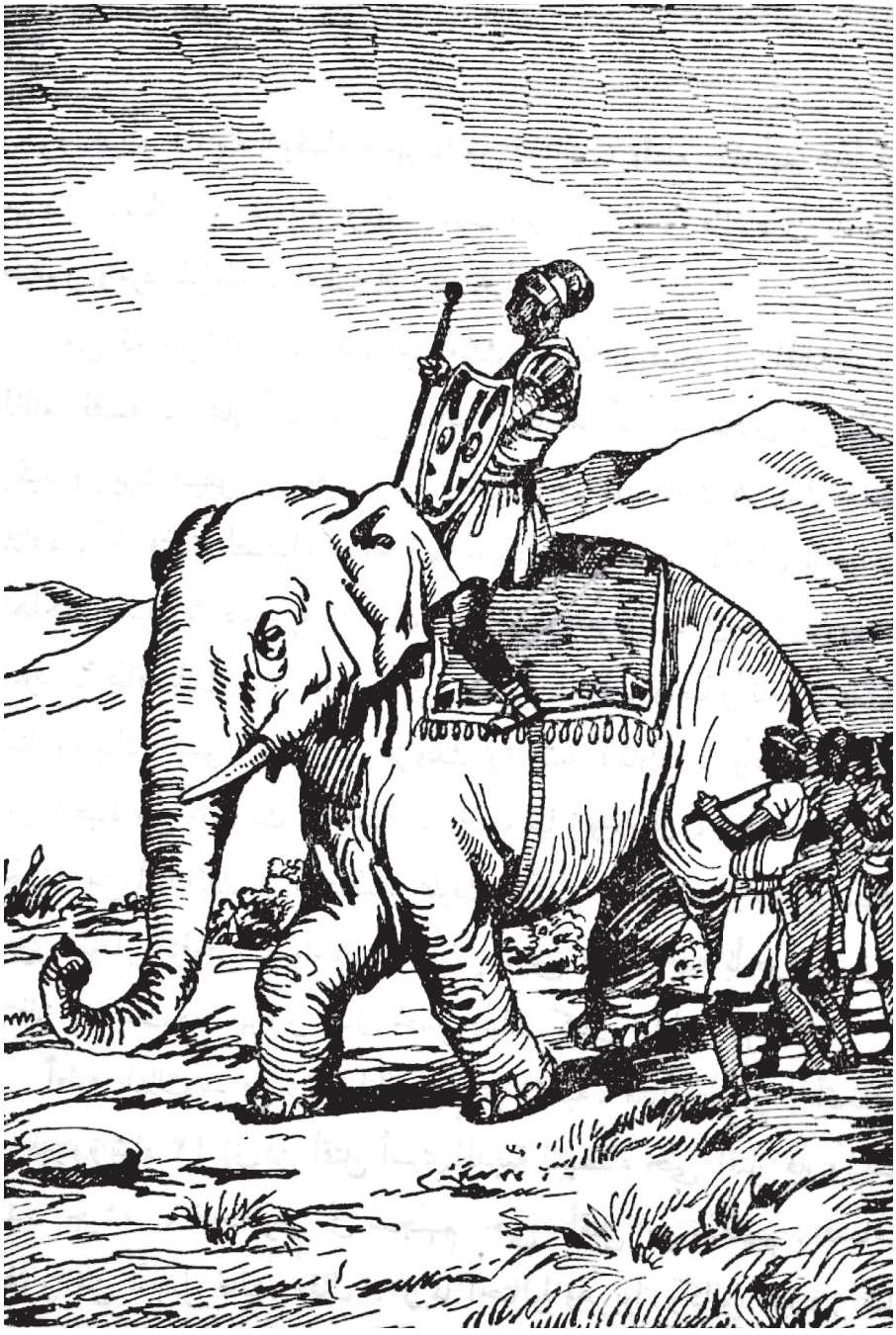

الملك طومار في سلاحه راكبًا فيله

كان الملك ضاراب قد رأى على بعد جيشًا قادمًا، فأرسل شبرلنك العيار ليأتيه بخبره ويعرف كل شيء عنه، وكان شبرلنك محتالا ماهرًا، فتنكر في زي خدم الملك سرور واختلط بهم وأقام فيهم، حتى عرف وحفظ ما دار بينهم من الحديث على وجهه، وعرف أن طومار سيحارب ملك المدينة البيضاء غدًا، ثم انفلت إلى ملكه وقص عليه كل شيء، ووصف له طومار أبين وصف وأوضحه اقشعرت أبدان الفرسان واصفرت وجوههم حين سمعوا حديث شبرلنك، ولكن فيلزور نهض قائمًا وقال: أحمد الله الذي قيض لي مجيء طومار، فقد كنت خائفًا من أن يدركني الأجل قبل أن ألتقي به في ميدان. وكثيرًا ما دعوت ربي أن يجمعني به لأنتقم منه، وأبين بانتصاري عليه أن القوة في الإيمان والقلب لا في الجسم وضخامته، ومع هذا فإن أضعف فارس من فرساني كفيل أن يقتله شر قتلة، فأمر الملك ضاراب أن يكون الجنود على استعداد للقتال غدًا.

طلعت الشمس على طائفتين متعاديتين، وانطلق طومار إلى ساحة القتال، ومن تحته فيل ما رأى الناظرون مثله ضخامة وقوة، ونشبت حرب حاصدة بين الطائفتين، وكافح أهل المدينة البيضاء أروع كفاح، وأسر طومار منهم فيلزور، وبعضًا من شجعانه..

وجلس طومار وحليفه وحاشيتهما ليلا يتحدثون عن شجاعة أهل المدينة البيضاء، وجميل بلائهم في القتال، وعن الأسرى الذين نالوا إعجاب طومار على الرغم من وقوعهم في أسره، فأشار طيفور عليه بقتلهم حتى تخور عزائم المدينة البيضاء ويهربوا من القتال، وقطع حديثهم هذا قدوم بهروز بكتاب، فتقدم وناول الملك سرورًا إياه، فألقاه في يد وزيره طيفور وأمره بقراءته، ففضه الوزير وقرأ:

– من فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء إلى الملك الظالم نفسه، اعلم أيها الرجل الغادر الجاحد أن الله نجاني من كيدك وكيد وزيرك طيفور، وقتلت أنا وأخي فرخو زاد الملك هورنك وملكت بلاده، كما قتلت الصفراء الساحرة وغنمت من قصرها الأموال والجواهر، وأهلكت قطران شاه

وبدران شاه وأدخلت جزيرتها في حوزتي، وجئتك بجنود لا طاقة لملك بها، فإما جئتني صاغرًا طائعًا، ومعتذرًا تائبًا، ومسلمًا إلينا وزيرك طيفور، وإما غزوتك ومحوت آثارك، وأنقذت ابنتك عين الحياة من عشرتك الخاطئة، واتخذتها زوجة لي، وقد عرفتني يوم نجيتك من أعدائك، وحفظت عليك ملكك، وقتلت نيروز وميسرة، أخوي طومار الزنجي، وأسأل الله أن يجمعني به لألحقه بأخويه، وإني منتظر إجابتك مع بهروز الذي حمل إليك كتابي هذا.

أطرق الملك سرور، وبدا الوجوم على صحبه، فقال طومار: أتخافون من فيروز شاه؟! إني لن أقتل أسرى المدينة البيضاء حتى أقتل فيروز شاه وأبدد جيشه، فاجعلوهم في سجنهم حتى أقتل ابن ملكهم، فخاف طيفور من تأجيل قتلهم وقال: ربما احتالوا وهربوا، وكانوا لفيروز شاه أعظم قوة، ومن الخير لنا أن نعجل بقتلهم.

فقال الملك سرور: احبسوهم في القلعة الجميلة فإنها حصينة تستعصي على الفاتح، ولا يمكن لأحد أن يهرب منها، فاستحسنوا رأيه، ودعا سرور فارسين من رجاله اسمهما تميم وتميمة، وأمرهما أن يسيرا في طائفة من الفرسان بالأسرى إلى القلعة الجميلة، وهناك يطرحونهم في سجنها.

عرف بهروز هذا فانسل من بينهم، وكان في سرعة الريح أمام فيروز شاه، وقص عليه ما سمع وقال له: انهض في طائفة من فرسانك إلى طريق القلعة الجميلة حيث تلتقي بالأسرى وتخلصهم، وتقتل من معهم. فنهض فيروز شاه وفرخو زاد في طائفة من أشجع الفرسان، وساروا خلف بهروز إلى أن كانوا في الطريق، وعرفوا من الآثار أنهم لم يمروا من مكانهم هذا، وأنهم عما قليل قادمون. فلبثوا ينتظرون.

ولم يمكثوا في مكانهم هذا كثيرًا حتى شعروا بهم قادمين، فهبوا إليهم كأنهم أسود غاضبة، وأعملوا فيهم أسلحتهم حتى أبادوهم جميعهم، ثم فكوا الأسرى من عقالهم وأغلالهم، ووجد فيلزور ابنه فضمه إلى صدره، وجعل يهنئه وأخاه فيروز شاه بالسلامة والعافية، ثم رجعوا حيث نزل

فيروز شاه بجيشه، وكان بينه وبين المدينة الخضراء مسيرة يوم أو أقل من يوم. وحكى فيلزور ما وقع لهم من أوله إلى آخره، وكان رجوعهم بعد أن ذهبوا إلى القلعة وهدموها وقتلوا من فيها.

وبينما هم سائرون أطرق فيروز شاه قليلا، ثم رفع رأسه كأنه يفكر في شيء ألم به، فسألوه عن شأنه فقال: أريد أن أعرج على المدينة الخضراء لآتي بجوادي الكمين منها.

فقال فرخو زاد: إنه عند عين الحياة، وقد وصيتها أن تحافظ عليه حتى تعود، وإن في دخولك المدينة خطرًا قد لا نستطيع دفعه.

فقال: وإني أحب أن ألقي والدي به، وأقاتل طومار وهو تحتي، ولا بد من دخولي المدينة وأخذه حيث يكون.

فقال فرخو زاد: ما دمت مصرًا على دخول المدينة فإني معك، وترك بقية صحبه يسيرون إلى معسكره، وذهب هو وفرخو زاد وبهروز إلى المدينة الخضراء، فلما كانوا أمام بابها رأوا رجلا خارجًا منه وهو يقود جواده الكمين.

فأوقفه فيروز شاه وقال له: إلى أين تذهب بهذا الجواد؟

فقال: ذلك جواد كان عند سيدتي عين الحياة، ثم أمرتني اليوم أن أذهب به إلى أبيها، وقالت لي: بلغه أن يقاتل عليه الأعداء لأنه جواد كريم.

فقال فيروز شاه: دع هذا الجواد وارجع إلى سيدتك، فقال: وماذا أقول لها يا سيدي؟ فقال: قل لها أخذ الجواد صاحبه، فقال: وإن سألتني عن اسمك فماذا أقول؟

فقال: اسمي صاحب الجواد والصورة التي عندها، ثم أخرج من جيبه حفنة من الذهب وناوله إياها، وقال: إن لم تسلم الجواد أخذته على الرغم من أنفك وقتلتك، فسلمه الجواد ورجع إلى سيدته عين الحياة، ورجع فيروز ومن معه وجدوا في المسير حتى نزلوا بمعسكرهم.

وقال فيروز شاه لهم: إن عين الحياة علمت أني وصلت إلى البلاد، وأني سأقاتل أباها، وأحبت أن تبعث إليّ بالجواد الكمين، فأرسلته إلى أبيها،

وأمرته أن يقاتل عليه، لأنها تعرف أنه إن وقع نظري عليه فلن أتركه حتى آخذه، وتلك حيلتها التي أرادت بها أن تبعث إليّ بجوادي، فعجبوا لذكائها ووفائها.

***

قعد طومار عن الحرب بعد أسره قواد المدينة البيضاء وقال: إني أريد الراحة، ولا خوف علينا من إمهال الأعداء وتركهم يستريحون أو يزيدون، فإني غالبهم لا محالة، وعجب ضاراب من سكوتهم وقعودهم وذهبت به الظنون كل مذهب، وهو لا يدري لذلك القعود سببًا حتى بدا له عن بعد غبرة لجيش فظنه مددًا آتيًا للمدينة الخضراء، وأرسل في الحال شبرلنك ليعرف أخبار هذا الجيش، ويعود إليه بها على عجل، فانطلق كالسهم إليه، وكان الجيش جيش فيروز شاه، وكان قد أمر بهروز أن يسبقه إلى أبيه ليبشره بقدومه، فلقى شبرلنك في الطريق، وتعارفا وسأل بهروز شبرلنك عن مقصده فقال: جرى علينا من المدينة الخضراء وطومار كيت وكيت، وشرح له ما أصابهم من ضيق وهوان وأسر للقواد.

فابتسم بهروز وقال: لقد كنت سائرًا إلى الملك ضاراب لأبشره بقدوم ابنه فيروز شاه وأخيه فرخو زاد في هذا الجيش الذي ترى غبرته تكاد تلمس السماء، وقد خلص أسراكم وهدم قلعة أعدائكم، وقتل هورنك، وقطران شاه، وبدران شاه، والصفراء الساحرة، وملك البلاد، وجاء لينتقم ممن ظلمه ويحقق رغبته بالزواج من عين الحياة التي اختارها صاحبة له، وقسيمة حياته، فارجع سريعًا، وبشره بما سمعت، وسأعود الآن إلى فيروز شاه شارحًا له ما قصصته ليدرك والده وجيشه، ولما رجع بهروز عجب فيروز لعودته في زمن يسير لا يفي بذهابه وعودته، فحكى له بهروز ما وقع من ملاقاته شبرلنك، وما كان من الحديث.

أما شبرلنك فإنه رجع يجري حتى كان عند الملك فقال في لهفة: بشراك يا سيدي بشراك ياسيدى. ..! فقال: بمن يا شبرلنك؟ فقال: بمن تهابه الأسود

في غاباتها! من أحاطته العناية الإلهية برعايتها، البطل الصنديد، قاهر كل جبار عنيد، فقال الملك: أطلت يا شبرلنك فمن أردت؟ فقال: رأيت قمرًا عم نوره وسناه، وأسدًا تهابه الأسود وتخشاه، رأيت سيدي ابنك فيروز شاه. فخر الملك ضاراب ساجدًا لله، ولبث في سجوده كالمغشي عليه، وصاح القوم من حوله فرحين: الحمد لله!! وانتقل الخبر إلى بقية الجيش فزاطوا من الفرح زياط الطير في أعشاشها أيام الربيع، ورفع الملك رأسه من سجوده وقال: أصحيح ما تقول يا شبرلنك؟ فقال: إنه الحق مثلما تسمعني الآن، وأخذ يسرد عليه ما عرفه من قصته، وإطلاقه فيلزور، ومن معه من أسرهم.

واستمر فيروز شاه سائرًا بجيشه حتى كان عند جيش أبيه، فدوت جوانبه بالتصفيق والتهليل غبطة وسرورًا، ولما قرب من أبيه نزل عن جواده، وسار إليه راجلا، فتلقاه أبوه بصدره، وأحاطه بيديه في دموع تنهمر وقلب يخفق. ثم أجلسه إلى جانبه، وسأله عن أخيه فرخو زاد، فأسرع إليه وقبل يديه، ثم أمره بالجلوس بجوار أخيه، وشكر له وفاءه وكريم صحبته، واستغفر فيروز والده، إذ غادر القصر من غير إذنه، فقال أبوه: الحمد لله الذي ردك إلى أبيك سالمًا، وجعلك له قرة العين ومسرة الفؤاد. ثم أنعم على شبرلنك إذ كان أول من جاءه بالبشرى.

وجلس الملك ضاراب في جمع من وزرائه وقواده وحاشيته وقال لهم: إن الله قد من علينا بعودة ابني وأخيه بعد أن كلأه برعايته في غربته، ونصره على الظالمين، وشكرًا مني لله أرى أن أكتب إلى الملك سرور وأدعوه إلى الصلح حقنًا للدماء، فإن أبى وامتنع قاتلناه مكرهين، وكان لنا العذر أمام الله، وبرئنا من هذه الدماء التي ستراق من غير ذنب ولا جريمة إلا أن الملك سرورًا هو الذي ساق أصحابها إلى الموت، فقالوا: حسنًا رأيت، والله معك في كلتا الحالتين، فأمرهم بكتابة ما سمعوه، وبعث شبرلنك بالكتاب، فلما قرأه سرور أمام طومار، وطيفور، وبقية حاشيته فزع طيفور وغضب وقال: أبعد أن تدفع الملك طومار إلى الحرب ويموت من جنده كثير، وبعد أن تتوطد العداوة بيننا وبين ملك المدينة البيضاء، ويكون لكل أسرة فينا ثأر

عنده - تزوجه من ابنتك، وتجعل بينك وبينه نسبًا وصهرًا؟! إن ذلك لا يرضي به ملكنا سرور المعروف بالحزم والحكمة! وقال طومار: لن أسكت عن هؤلاء القوم حتى أفنيهم وأملك بلادهم، رضى الملك سرور أو غضب، فخاف الملك سرور وبلع رغبته في المصاهرة وإنهاء الخصومة، وقال: ارجع إلى صاحبك، وبلغه أنه ليس له عندي إلا القتال. وناوله كتابًا ضمنه رأيه، فرجع شبرلنك ومعه الكتاب إلى الملك ضاراب وناوله إياه، وقص عليه ما دار من الحديث في مجلسه، فلما قرأ الكتاب قال: ما أوقع الملك سرورًا في الضلال إلا وزيره الخبيث طيفور، ولئن وقع في يدي لأذيقنه الموت ضعفين جزاء ما قدمت يداه من الفتك بعباد الله.

بات الفريقان وهما عازمان على القتال صبح غدهم، وكان أهل المدينة البيضاء قد اشتدت عزائمهم، وأيقنوا أنهم الفائزون بقدوم فيروز شاه وجنوده، وقد وصاهم الملك أن يجعلوا ضربهم وطعنهم في جنود طومار الذي غرته قوته، وأضله طيفور بمكره وكذبه، ولما بان وجه النهار أنف طومار أن يجرد جيشه السيف قبل أن يقتل هو فيروز شاه، فأسرع إلى الميدان ودعاه إلى مبارزته، وانطلق فيروز شاه على جواده انطلاق السهم، فاحتقره طومار حين رآه، لما بينهما من الفرق الشاسع في ضخامة الجثة وامتداد القامة، وما دري أن المرء قلب وجراءة، وقوة وشجاعة، وتدبير ومهارة؛ فجعل فيروز يعبث به في الميدان عبث القدم بالكرة، ثم ضربه بالسيف ضربة أردته قتيلا، وأمر أبوه ضاراب جيشه حينئذ أن يحمل على جيش طومار حملة ساحقة، فانهالوا عليهم، وجعلوا يتخطفونهم بأسلحتهم حتى فروا من وجوههم، وتشتتوا في القفار، وكان الليل قد جاء وأبطل القتال، فجلس الملك سرور إلى قومه وقال: لقد أشرفنا على الهلاك، وما كان لنا أن نركب الخطأ، ونأبى دعوة الملك ضاراب إلى السلام، وأرى أن أبعث إليه بالصلح، وأن أزوج ابنتي عين الحياة من ابنه فيروز، فإني لن أجد مثله شجاعة وخلقًا كريمًا، وما رأينا فيه إلا كل نبل ومروءة ووفاء.

لم يعجب هذا الرأي طيفور وخبثه فقال: ومن أين لك أن الملك ضاراب

سيرضى بالصلح الآن بعد أن أبيته ورددت رسوله خائبًا، وبعد أن بان له أنه المنصور الغالب؟! وهل كنا رجالا ذوي شمم وإباء ونخوة وحمية وطومار فينا، فلما قتل وطرد جيشه أصبحنا نساء لا تعيب من الكحل؟! إن لدي من الرأي والحيلة والتدبير والمكيدة ما يفوق شجاعة الشجعان، فلنقاتلهم في ثبات وجلد، وإذا ما ظهروا علينا لجأنا إلى المدينة، وسوف ترى حينئذ من رأيي وحيلتي ما يردهم على أعقابهم خاسرين. فوافق الملك على دوام القتال نزولا على رأي وزيره طيفور، وإن كانت نفسه غير راضية به والتفت إلى هلال العيار وقال له: اذهب الآن إلى جيش المدينة البيضاء، وانقل إلينا أحوالهم وما سيبيتونه لنا من الأمور، فقال: سآتيكم من عندهم بكل صغيرة وكبيرة.

وكان شبرلنك العيار حاضرًا متنكرًا في زي خادم لهم، وسمع حديثهم ووعاه وفهمه، فتبع هلالا العيار وهو ذاهب إلى الجيش، وهناك أمر شبرلنك بعض الفرسان أن يقبضوا عليه، ويسيروا به إلى الملك ضاراب، وكان قد سبقهم إلى الملك وحاشيته وأخبرهم وقال: إنه قادم إليكم الآن في قبضة فرساننا، فلما حضر بين يدي الملك قال أحد الفرسان الذين أحضروه: وجدنا هذا الرجل يتنقل بين الجنود ويطوف هنا وهناك، ولما رأينا أمره قبضنا عليه وجئنا به إلى مجلس المليك، فقال الملك: من أنت أيها الرجل؟ ولماذا تطوف بين الجنود وهم في وقت الحرب؟

فقال: إني رجل غريب وجدت طريقي هذه الخيام فقصدتها لعلي أجد فيها ما أقتات به، فضحك فيلزور وقال: أبلغني من أثق به أن هذا الرجل هلال العيار، بعثه الملك سرور لينقل إليه أخبارنا، ثم حكى ما دار من الحديث بين الملك ووزيره طيفور، وقال: وهذا الذي فعله هلال خيانة وربما كانت سببًا في ضياع الجيش وإبادته، ولا جزاء له إلا الإعدام فقال الملك: نطقت بالحق يا فيلزور، ولا ينبغي لنا أن نبقى على خائن، فقال هلال العيار وقد أدرك أنه لا مفر له: ذلك واجب أقوم به لمليكي وبلادي، كما أن لكم مثلي يقومون بمثل ما أقوم به، فكيف تقتلني في واجب أؤديه، بل كيف تؤذوني من أجل عمل

أنتم تكلفون به أمثالي من عندكم، وهبني من رجالكم وكلفتني هذا العمل، أيرضيك أيها الملك أن أعصيك أو أهمل فيه؟ على أني أنتهز هذه الفرصة وأرجو من الملك أن يقبلني عيارًا عنده أقوم بخدمته في وفاء وأمانة، فقال الملك: ومن يضمنك؟ أتضمنه يا بهروز؟ فقال: أنا لا أضمن خائنًا مثله، فإنه سيخونك كما خان الآن مليكه، فقال هلال العيار: إذا كان الله يقبل الكافر إذا تاب وأناب وآمن، أفلا تقبلونني إذا كرهت مليكي ووزيره لضلالهما وخبث طويتهما وسوء تدبيرهما، ورضيت عنكم لما رأيته من حبكم لعباد الله، وكراهتكم إراقة الدماء، وسعيكم إلى السلم والرحمة بكل وسيلة؟!

فتأثر الملك ضاراب من كلامه وقال: قد ضمنتك وقبلتك عيارًا عندي فاجعلوه منكم، وإن مكر بنا فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، وطالت غيبة هلال على الملك سرور، فأرسل من خلفه الجواسيس، فعرفوا مصيره ونقلوا إليه ما كان من أمره، فحزن حزنًا أليمًا وقال: ما كنت أنتظر من هلال العيار أن يخونني ويغدر بي، فقال طيفور: أعتقد أنه ما خانك ولا غدر بك، ولكنها حيلة سلك سبيلها لنجني من ورائها كل خير، فإني أعرف الناس بهلال ودهائه وخبثه، فقال الملك: لا آمن الآن على نفسي وبلادي، ولا بد من الصلح وزواج ابني من فيروز، فلن أجد في الدنيا رجلا نبيلا ذا خلق كريم مثله، فقال طيفور: ما دمت مصرًا على ذلك فأرسل إلى الخواجة إليان يأتيك من سجنه، وكلفه أن يقوم سفيرًا بينك وبين الملك ضاراب في هذا الأمر لينتهي إلى ما تريد في عزة وكرامة، فقال: أحضروه، فلما حضر أفهموه رغبة الملك في الصلح، وزواج ابنته من فيروز، وكلفوه أن يمضي إلى الملك ضاراب ويشاوره في هذا الأمر على أن ينتهي إلى ما يرغب فيه الملك سرور في إجلال وعزة، فقال: أرجو أن يكون ما يريد الملك.

حمل الخواجة إليان راية السلام، ومضى إلى جيش المدينة البيضاء، وهناك فرح فيروز بلقائه وأكرم وفادته، ورضى بالصلح الذي جاء به، وكذلك الملك ضاراب لأنه يكره أن تسفك دماء العباد، ولا يترك مذهبًا فيه حقن للدماء إلا ركبه، واشترط أن يقوم الصلح على أن يتزوج ابنه من عين الحياة، ثم

رجع الخواجة إليان مسرورًا بفوزه، وبلغ الملك سرورًا أنهم رضوا بالصلح على شرط أن يزوج فيروز شاه ابنته عين الحياة، فقال طيفور: اكتب ما أمليه عليك شروطًا للصلح:

أولا: أن يزوج الملك سرور فيروز شاه ابنته عين الحياة..

ثانيًا: أن يكون الزفاف بعد أربعين يومًا.

ثالثًا: أن يدفع المهر الذي يقترحه الملك سرور في آخر المدة المضروبة.

رابعًا: أن تجلو جنود المدينة البيضاء عن المدينة، وأن تفتح أبوابها، وأن يدخلها من يشاء ويخرج منها من يشاء.

ولما كتبها وختمت بخاتم الملك قال له طيفور: اذهب بها فإن رضوا فاكتب صورة منها واختمها بخاتم الملك ضاراب، وارجع إلينا بها، واترك عندهم نسختنا.

ذهب الخواجة إليان وكتبت الصورة وختمت وتم الصلح، وجلت الجنود، وعسكرت بعيدًا عن المدينة، وانتظروا يوم الزفاف.

وفي تلك المدة المضروبة أخذ طيفور يعبث بالصلح، ويلعب بعقل الملك سرور، فقال: إن ملك المدينة الصفراء كان قد خطب عين الحياة لابنه، ورددت رسوله بالخيبة، وهو قوي مهيب الجانب يخشى سطوته الملوك، وهو أرفع وأشرف من ضاراب وابنه، وأرى أن تكتب إليه وتصف له ما أنزله بنا ضاراب من الشدة حتى أرغمنا على الصلح، وعلى أن تزوج عين الحياة من ابنه فيروز، وهو جاثم بجيوشه حول المدينة، وقد اخترت ابنك لابنتي زوجًا، واخترتك من بين الملوك لتكون لي حمى وملاذًا، فإن حققت أملي فيك ورضيت بابنتي عين الحياة لابنك، فابعث إلينا جنودًا من عندك تطرد هذا العدو الجاثم، ليصفو الجو ويستقر الأمن وتزف ابنتي إلى ابنك، وقد أمهلت تنفيذ زواج ابنتي من فيروز بن ضاراب ملك المدينة البيضاء أربعين يومًا لأتمكن من الكتابة إليك، ولتتمكن من الحضور بجنودك، وإني في انتظار رأيك، واعلم بأني ما رددت رسولك خائبًا حين جاءني إلا مكرهًا، لأنه جاءني في وقت كان أكثر الملوك عندي يخطبون ابنتي لأبنائهم، فرأيت

أن أعتذر بأن ابنتي لا تزال صغيرة، وأبيت أن أرضى لأحد منهم حتى لا أخلق بيني وبينهم عداوة، وأخفيت رضاي بابنك في نفسي حتى أبديه لك في حينه، وقد جاء أوانه، وكتبت إليك به فانظر ماذا ترى؟

غر الملك سرورًا قول وزيره، فكتبه إلى ملك المدينة الصفراء، وبعث به خفيفًا العيار، فلما قرأه ملك المدينة الصفراء فرح فرحًا عظيمًا وكتب إليه أن يرحل هو وابنته وأهله إلى المدينة الصفراء في هدوء وسلام، أما ملك المدينة البيضاء فهو كفيل أن يطرده من المدينة الخضراء ويرده إلى بلاده صاغرًا ذليلًا.

ورد خفيف العيار بكتاب ملك المدينة الصفراء، فلما قرأه الملك سرور فرح به، كما فرح به وزيره طيفور، لأنه سيباعد بين فيروز وعين الحياة، ثم شدوا رحالهم ورحلوا إلى المدينة الصفراء، وأقام الملك سرور الملك سليمًا حاكمًا في المدينة الخضراء نائبًا عنه.

وكان الملك سليم يبغض الملك سرورًا لأنه كان مطيعًا لوزيره طيفور الماكر الخبيث، ويحب ضاراب وابنه وفرخو زاد، لعدالتهم وشجاعتهم وسمو أخلاقهم وعطفهم على الناس، والحرص على معاملتهم بالحسنى، فذهب إليه وقص عليه ما فعله الملك سرور، وألقى بين يديه أزمة طاعته، وقال: إن كنت في المدينة الخضراء حاكمًا، فإني أعتبر نفسي حاكمًا من قبلك وبأمرك لا من قبل سرور وأمره، فإني أبغضه ووزيره، ولن أمكنه من العودة إليها أبدًا، وإني أدعوك وجنودك إلى دخول المدينة، وأن تأمرني بتصريف أمورها كما تشاء، فإني تابع لك ومطيع لأمرك، وجنودي في قبضتك.

فشكره ضاراب ودخل المدينة في حفل رائع، وأظهر أهل المدينة حبهم له وإقبالهم عليه، وحفاوتهم البالغة بقدومه، فشكرهم وأعلن ولاية الملك سليم من قبله، ووصاهم بطاعته.

ورأى أنه لا ضرورة للبقاء في بلاد المدينة الخضراء، فأمر الجنود بالرحيل، وبعد ثلاثة أيام كانوا في طريقهم إلى بلادهم، ورجع فيروز وفرخو زاد إلى وطنهما بعد تلك الغيبة الطويلة.

❋❋❋

﴿ ٨ ﴾

أزمع الملك ضاراب على الرحيل إلى بلاده، ليستريح جيشه، وليتناول بالتدبير أمر الملك سرور الذي ترك ملكه ورحل إلى المدينة الصفراء بابنته، ولكنه جمع وزراءه وكبار قواده وقال: قد كنت عزمت على أن نعود إلى بلادنا، ولكني رأيت في الجيش قوة وحماسة، فرأيت أن يكون رحيلنا إلى المدينة الصفراء لأستخلص عين الحياة من أبيها، وممن تصدى لنا من أجلها.

فقال طيطلوس: أرى أن نكتب إلى حلفائك من الملوك ليمدونا بجنود من عندهم ليعوضوا ما طرأ على جيشنا من نقص في الأنفس؛ ثم نمضي سراعًا إلى المدينة الصفراء قبل أن يجري على عين الحياة القضاء بإجبارها على الزواج، أو بأن تقتل نفسها ضنًّا بها على غير فيروز شاه.

فرضى ضاراب بهذا الرأي، وكتب إلى ملكين من حلفائه يطلب ألوفًا من الجنود لمحاربة الوليد ملك المدينة الصفراء وسرور، ووزيره طيفور.

أما أحدهما واسمه مضفر شاه فإنه أحضر قائده بهزاد بن فيلزور - وكان يشبه فيروز شاه في الجسم والشجاعة - وقرأ الكتاب عليه وعلى أصحابه ذوي الرأي والمشورة، وأجمع رأيهم على الاستجابة السريعة؛ وبعد ثلاثة أيام رحل في ألوف من جنده، ومعه قائد جيشه بهزاد بن فيلزور، وأما الآخر - واسمه كرمان شاه - فإنه أسرع أيضًا في المسير بجند كثير، ومعه بلتا بن فيلزور وكان أصغر أولاده.

وصلت عين الحياة إلى المدينة الصفراء فوجدت حفاوة بالغة، ولكنها في شغل عن بهجة الدنيا بمن أرادته لنفسها زوجًا ـ وهو فيروز شاه الذي أعجبها فيه: شجاعته، وكريم خلقه - ولكنها رأت من الأدب أن تطل من بين ثقاب الهودج تحية لهذه الجموع التي جرت لاستقبالها.

فلما أطلت وقع نظرها على صالح بن الوليد ملك المدينة الصفراء، وهو بين الوزراء؛ فوجدته قصير القامة، قبيح المنظر، جاحظ العينين، وهما لا

عين الحياة في هودجها تقصد المدينة الصفراء

تكفان عن سح الدموع؛ ولحظت في حركاته خفة وطيشًا وفي حالف لسانه عيًّا. وفي قوله سخافة وضعفًا، فهزت رأسها، وابتسمت ابتسامة استهزاء وازدراء، وكظمت غيظها في نفسها، ولكن الشعب أعجب بها، وشخصوا بأبصارهم إليها، وكان جمالها حديث الناس في كل مكان.

ولما كانت أمام باب المدينة، وعلمت أن الوليد خرج يستقبلها قبل أن تدخل المدينة، وعلى بابها أكبرت ذلك، وأطلت من الهودج، وأشارت إليه تحييه، ثم رجعت إلى مكانها في هودجها.

دهش الوليد لفرط جمالها، وزادت رغبته في أن تكون زوجة لابنه؛ وأمر أن تكون في قصر ابنته «طوران تخت» وأن تكرم أعظم إكرام وأوسعه. وأن ينزل أخواها أسد والحارث في بيت آخر مكرمين.

وكان حينما لقيهما قد سألهما عن أبيهما سرور فقالا: لا يمضي يوم أو يومان حتى يكون في المدينة هو وأصحابه.

وبعد أيام حضر سرور ووزيره طيفور ومن معه، فاحتفل الملك احتفالا أعجبهم وسرهم، وأنزلهم الوليد ملك المدينة الصفراء قصرًا جميلا، يعج بالخدم، ويفيض بالنعيم والغنى، ويزهو بالأشجار والأزهار، ورأى سرور صالح بن الوليد فيمن استقبلوهم، فأحزنه شكله وقبيح منظره، وأفزعه أن وجده ضعيف العقل، ألكن اللسان، ثقيل الظل، وفي المساء قال لوزيره طيفور: إنني مسرور من الملك الوليد وحفاوته بنا؛ ولكن ابنه أحزنني وغمني، ولا أظن ابنتي عين الحياة ترضاه لها زوجًا، لأنه لا ينفع خادمًا لفيروز، وقد اشمأزت نفسي لرؤيته.

فقال طيفور: لا ينبغي أن تكون البنت صاحبة الكلمة في اختيار زوج لها، فأنت أبوها ووليها، ولابد أن ترضى بمن تختاره برغم أنفها.

فقال سرور: ولكن الدين يأبى أن يكون للأب سلطة مرغمة، جائرة في مثل هذا الأمر الذي جعل للبنت فيه حق الرضا والقبول.

فقال الوزير: ألا تعلم أن ابن الوليد على حالته هذه، لا يقدر على تصريف شئون الملك، وهذا يجعل ابنتك صاحبة الأمر والنهي، ويجعل ملك المدينة

الصفراء في قبضة يدها، وحينئذ يكون لك أكبر نفوذ في البلاد، حتى كأنها بلادك وأنت ملكها؟! وإذا تزوجت من فيروز شاه فقد خسرتها، وأصبحت في طاعته، فقال سرور: صدقت، وقد نبهتني إلى خير كنت عنه في غفلة.

فقال طيفور: ولكني أحذرك أن ترضى بزفافها إلى ابن الوليد حتى يقهر ملك المدينة البيضاء.

وبات سرور وطيفور متفقين على ذلك.

وفي الصباح ذهب سرور ووزيره إلى مجلس الوليد - وكان غاصًا بالوزراء والكبراء - فجلسا في حفاوة وإجلال، ثم سأل الوليد سرورًا ووزيره: ما مبلغ علمكم عن ضاراب ملك المدينة البيضاء: أهو سيقتفي أثركم ويجيء المدينة الصفراء غازيًا محاربًا، أم هو يئس منكم، ورجع إلى بلاده نافضًا يديه من المطالبة بابنتكم؟

فقال طيفور: من المحتوم الذي لا شك فيه أن فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء، لا ينثني عن عزمه، ولن يسمح لإنسان مهما يبلغ شأنه أن يمتد أمله ورجاؤه إلى عين الحياة ليحصل عليها، فهم قادمون إلى المدينة الصفراء لا محالة؛ وهو مصر على أن ينتقم من كل من تصدى له؛ والحق يقال: إن رجال المدينة البيضاء لا مثيل لهم في الشجاعة والإقدام، أما فيروز شاه فهو بطل زمانه، وواحد عصره وأوانه؛ إذا ضرب حصنًا هدمه وزلزله، وإذا ضرب جبلا دكه وحلحله؛ وقد عرفه بذلك كل من شاهده في حومة الوغى.

وأراد طيفور بقوله هذا أن يثير الحماسة في صدر الوليد - فقال الوليد: حينئذ علينا أن نستعد للقاء أهل المدينة البيضاء وأن نحاربهم، حتى نجعلهم حصيدًا كأن لم يغنوا بالأمس. ثم أمر أن يسافر العيارون بالكتب إلى عماله في الأقاليم التابعة له، لإخبارهم بالحرب المنتظرة، والتعجيل بإرسال المدد إليه من الرجال والأموال؛ فصدعوا بالأمر، وسافر كل عيار إلى جهته.

وأشهد سرور الحاضرين على أنه سيزوج صالحًا ابنته بعد أن يقهر أهل المدينة البيضاء، ويرده إلى ملكه، ويقتل فيروز شاه. وكان هذا العهد الذي

أبرمه سرور في نفس ابنته عين الحياة حين بلغها مثار فرح وغبطة، ومشرق أمل باسم، لأنها تعتقد أن فيروز شاه وأباه لن يغلبا، ولبثت ترتقب هذه الحرب التي سينهزم فيها الوليد وابنه، ويتحقق بها ما ترجوه من سعادة.

نزلت جيوش ضاراب في شرقي المدينة بينها وبين الجبل، وكان جيش الوليد قد عسكر خارج المدينة ينتظر قدوم الأعداء المغيرين.

عقد ضاراب مجلسًا حربيًا جامعًا في صيوانه، وأخذوا يتشاورون حتى انتهوا إلى رأي الملك ضاراب، وهو أن يكتب إلى الوليد ملك المدينة الصفراء كتابًا يبين فيه فضل ابنه فيروز على ملك المدينة الخضراء، وأنه أجدر الناس بابنته، برغم خبث طيفور، وغدر سرور، وأن أهل المدينة البيضاء مستمسكون بالعدل، ويكرهون سفك الدماء بغير حق، ويطلبون منه أن يسلمهم سرورًا وطيفور وعين الحياة ليرحلوا عن بلاده، وكتب إليه بهذا كتابًا، ثم أنذره فيه وقال: وإن غرك طيفور بكذبه ومكره، وأبيت إلا القتال، فلن تجد منا إلا الموت النازل، وخراب الديار العاجل.

أخذ شبرلنك العيار الكتاب، وألقاه في يد الملك الوليد، فناول الملك وزيره بيداندیش الكتاب، وأمره بقراءته على مسمع من جلسائه.

فلما قرأ الوزير الكتاب، وكان من الحاضرين الملك سرور، ووزيره طيفور، أطرق الملك سرور غمًا وحزنًا، وبدا على وجهه أمارات الاضطراب والخوف، وقال في نفسه: ما ألح ضاراب في طلب عين الحياة إلا عن قوة، وما هجر البلاد وساح بجنوده في الأرض إلا لوثوقه بنفسه وشدة بأسه، وربما كان أكثر مني جندًا وأشد بأسًا، ولمح طيفور على وجه الملك سرور هذا الاضطراب والخوف، فخاف أن يعجل بالخضوع له، وتنفيذ ما أمره به وقال: لقد كذب ملك المدينة البيضاء وافترى، فإن فيروز ابنه ما جاء بلادنا شجاعًا كريمًا، ولكنه جاءها لصًا محتالا، ومن العجيب أن يدعي ضاراب أن الملك سرورًا وعده أن يزوج ابنته هذا اللص المحتال، ضاربًا بأبناء الملوك الذين يتسابقون للزواج منها صفحًا، وبخاصة ابن ملك المدينة الصفراء الميمون الشاه صالح، ولقد أغراه جهله وحمقه أن يطلب منك تسليمنا

إليه ليقول للناس: إنك خفت بأسهم، وفزعت منهم، ويلحق بك عارًا لا يمحى أبد الدهر، إذ نكثت معنا عهدك، وأغمدت عن حمايتنا سيفك، وأنت الذي طلبتنا إلى جوارك. ومن العجيب أننا نكرهه ونكره أن نزوج ابنه حتى خرجنا من ديارنا وتركناها فرارا من وجهه، ثم هو يقتفي أثرنا محاولا أن يأخذ ابنة الملك بقوة سلاحه، ثم يدعي بعد ذلك أنه العادل البرىء، ونحن الظالمون الآثمون!! فهل سمعتم أعجب من هذا؟! !

فانخدع الوليد بقول طيفور وقال: إنه لملك مغرور أحمق، وجائر مستكبر، وسأجعل من بلادي مقابر لجنوده، ومغيبًا لملكه وسلطانه؛ فاكتب إليه يا بيداندیش بالرحيل، وإلا أقبرناه وجنوده.

فكتب إليه بيداندیش كتابًا بذلك.

وطوى الكتاب، وألقاه في يد شبرلنك العيار، وأخذه وطار به إلى ضاراب مليكه، وناوله إياه، وقص عليه ما دار من الحديث جميعه؛ وقرئ الكتاب على الملك وجلسائه فثارت ثائرتهم، وأصروا على القتال وباتوا وفي صدورهم هذا العزم المضطرم.

وكان طيطلوس حكيمًا منجمًا، فاستوحى في تلك الليلة علمه ونجمه، وفي الصباح أخبر الملك بما تلقاه وعلمه فقال: إن الحرب مصيرها لنا لا علينا، ولكن بعد متاعب ثقيلة الوطأة، وسيموت منا عظيم تهتز له البلاد.

فقال ضاراب: ومن هذا يا طيطلوس؟!

فقال طيطلوس: ذلك ما استأثر الله بعلمه، على أن نظرتي في النجوم قد تكون أشبه الأشياء بالفجر الكاذب، لأن ما نفهمه منها أساسه الظن لا اليقين، وإن بعض الظن إثم.

وشاب قلوب القوم شائبة من خوف مفزع، ودار هذا الخوف حول الملك وابنه، وعظيم من عظماء قواده. وأمر الملك ابنه فيروز ألا يدخل هذه الحرب نزولا على ما في نفسه من الخوف عليه، وعلى إرادة قومه وكبرائه الذين رجوا منه ذلك، وعبثًا حاول فيروز أن يرجع أباه عن أمره، ويجعله يعدل عن منعه؛ ولكن أباه رفض، وأصر على ألا يدخل فيروز الحرب، وألا

يخوض غمارها، فإن في ذلك منجاة له من خطر تنبأ به المنجمون، فآثر طاعته على معصيته وهو في أشد الأسف.

شبت نار الحرب بين الفريقين، واستعر لهيبها، وأخذت ترسل الأرواح إلى بارئها، وتفرش الأرض ببسط من الدماء لتستريح عليها جثث القتلى. ودامت يومًا وليلة ذاق فيها أهل المدينة البيضاء الأمرين، وقتل فيلزور بعد أن فتك بعدد لا يحصى، وما أغمد ابنه بهزاد سيفه حتى مزق قاتله وبعثر أجزاءه.

ولما رجع المتحاربون إلى خيامهم ليأكلوا ويستريحوا تقدم فيروز شاه إلى أبيه وقبل يده واستأذنه أن يخوض معركة القتال فقال: إن ما كنا نخشاه قد وقع بقتل فيلزور، فلا خوف عليك، وقد استودعتك ربي، وهو القادر أن يحميك ويحفظك. فطابت بذلك نفس فيروز، وانشرح صدره، وارتقب نصرًا عزيزًا بسيفه.

كانت عين الحياة مع طوران بنت الوليد في قصرها، ولما نقل إليها خبر الحرب وشدتها وفداحة خطبها قالت طوران: لقد كنت سببًا في هلاك هذه الأنفس، لأنك فتحت قلبك لفيروز شاه فأقام الدنيا من أجلك، ولو أعرضت مثلي عن الزواج وآثرت المقام في دار أبيك تنعمين في ظل من حنانه وعطفه ما كانت هذه الحرب، ولا كان هذا الفناء .

فقالت عين الحياة: وما قيمة الفتاة إن هي قضت حياتها راهبة؟ وإذا كانت حياتها كمماتها فأي خير فيها؟!

فقالت طوران: كان من اليسير عليك أن تتزوجي بأي إنسان دون أن تتشبثي بفيروز شاه وتكوني مسعر حرب في بلادك وفي المدينة الصفراء.

فقالت عين الحياة: إذا سمت نفس الفتاة حرصت على إرضاء الإنسانية الكاملة في نفسها واختارت من كملت نفسه، وعظم خلقه، وامتاز بمرؤته وشجاعته ونبله، وما فعلت غير هذا؛ ولو أن كل فتاة نهجت نهجي لرأيت الناس كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وإن قلبي يحدثني أن سمو نفسك ستجعلك تختارين رجلا من المدينة البيضاء.

فقالت طوران: إنك تتحدثين بالمحال، فإن نفسي لا تطاوعني أن أتزوج من أعداء أبي.

فقالت عين الحياة: سترين أن الفضائل الإنسانية ستجعل المحال عندك جائزًا ومرغوبًا فيه.

فقالت طوران: لله في خلقه شئون، ولا يقع في ملكه إلا ما أراده وسبحان من يقلب القلوب، ويداول بين شئون الحياة، ونوازع النفوس.

وفي صبيحة اليوم التالي اضطرم لهيب الحرب، وصب فيروز على أهل المدينة الصفراء الأهوال صبًا، وحاكاه القواد والفرسان حتى ألبسوهم ثياب الذل والمهانة، ورأوا قتالا ما رأوه من قبل في غابر الأيام؛ ولما جاء المساء فروا إلى خيامهم هاربين من ذلك النهار، وأوى كل من الوليد وسرور وطيفور إلى ديوانه يتعثر في أذيال من وجوم وصغار ومسكنة.

وبعد قليل عقد الوليد مؤتمرًا من الوزراء والقواد والعيارين والملك سرور وطيفور وقال لهم: لقد رأيتم ما فعله أهل المدينة البيضاء بنا على ما نحن فيه من الكثرة والقوة، وإن دام الأمر على هذه الحال فنحن هالكون.

فقال طيفور: وإن جمعت إلى جندك أمثالهم، فلن ينالوا من أهل المدينة البيضاء شيئًا ما دام فيهم فيروز شاه بن ضاراب.

وقال طارق العيار: ولن يأتي الصباح حتى أكون قد سرقت لكم فيروز وكفيتكم شره.

فقال طيفور: ولن تستطيع يا طارق سرقته لأنه في حراسة بهروز بن الغول الذي لا يغفل عنه لحظة.

فقال طارق: سأسرقه لكم من بهروز وإن كان متوسدًا فخذه.

فقال الوليد: وإن صح قولك يا طارق فلك عندي من الأموال ما يشبع رضاك.

فقال طارق: وستجدني عند وعدي، فصفه لي يا طيفور فإني لا أعرفه تمام المعرفة، فجعل طيفور يصفه حتى كانت له صورة تشبهه في نفس طارق، وخرج من المؤتمر وتنكر في زي أهل المدينة البيضاء وتسلل إليهم، وجعل

ينتقل من مكان إلى مكان حتى كان عند خيمة الملك ضاراب، فوجده في مجلس حافل من كبرائه وقواده، فانتظر حتى انفرط عقد المجلس، وكان أول الخارجين مصفر شاه ابن عم الملك ضاراب، وكان يشبه فيروز في شكله، وكانت أوصافه تنطبق على أوصافه، وكان معه «الأشوب» حارسه، فأيقن طارق أنه فيروز شاه وأن الذي معه بهروز بن الغول حارسه، فتبعه خفية حتى دخل هو وحارسه خيمته، وانتظر حتى ظن أنه غرق في نومه، وكان الليل قد سكن، والجند قد غرقوا في نوم ثقيل، ثم تقدم إلى ظهر الخيمة وأحدث فيها ثقبًا صغيرًا ونظر منه فوجد مصفر شاه نائمًا في فراشه، ووجد الأشوب حارسه قد أخذته سنة ثقيلة، فوضع قطعة من البنج على جمرة من النار، وأدخلها في الصيوان من تحت أطرافه، وانتظر حتى نشقا رائحة البنج وهما نائمان، ووقعا في غشية من البنج لا يحسان معها ما يجري عليهما، ثم وضع في أنفه شيئًا يبطل أثر البنج ودخل عليهما، فكتف مصفر شاه وحمله وانسل به من جيش المدينة البيضاء، وجعل يعدو حتى دخل به خيمته، ثم وضع في أنفه شيئًا أزال عنه نومه وغشيته، فدار بنظره في وعي فاتر، فوجد نفسه في خيمة غير خيمته، ووجد شخصًا واقفًا عند رأسه، وقد أوثق كتافه وأحكمه، فقال: أين أنا الآن؟! ومن أنت يا هذا؟!

فقال طارق: أنت الآن في معسكر المدينة الصفراء، وفي بيت طارق العيار الذي سرقك من بين يدي عيارك وحارسك بهروز بن الغول؛ وعند الصباح ستكون عند الوليد ملك المدينة الصفراء الذي وعدني الأموال الكثيرة إن سرقتك. وليس عندي أبرك من هذا الصباح الذي سأدخل فيه على الملك الوليد، ومعي فيروز شاه بن ضاراب ملك الفرس.

فأدرك مصفر شاه أنه أراد أن يسرق فيروز شاه، ولكنه أخطأ وسرقه لتشابههما في الجسم والهيئة، فسكت ولم يشأ أن يظهر الحقيقة ولا أن يعرفه بنفسه، ويبين له خطأه.

انتظر طارق حتى جاء الصباح وانعقد مجلس الملك، فانفلت يجري ودخل عليهم فرحًا وقال: قد جئتكم الليلة بفيروز شاه.

فقال طيفور: لا أكاد أصدق ما تقول، فإنه أمنع من عقاب الجو.

فقال طارق: إنه في بيتي وسآتيكم به الآن.

فقال طيفور: ذلك ما كنا نبغي؛ فهاته يا طارق.

فخرج طارق يجري، وبعد قليل دخل عليهم ومعه مصفر شاه وقال: هذا فيروز شاه الذي دوّخ الجند وروعهم.

فضحك طيفور وقال: ألم أقل لك.. إنك لن تستطيع له أخذًا؟! إن هذا ليس فيروز شاه.

فاضطرب طارق وسكت، وقال الوليد لمصفر شاه: من أنت يا هذا؟

فقال: أنا مصفر شاه ابن عم الملك ضاراب؛ أما فيروز شاه فلن يستطيع عياروك مجتمعين أن يصلوا إليه ما دام في حراسة بهروز بن الغول.

فقال الوليد: ما دمت من أمراء المدينة البيضاء وبيت الملك، فلن أصل إليك بشر أو أذي، وسأجعلك في سجن من قصري حتى نرى ما يكون بيننا وبين قومك، ثم التفت إلى طارق وقال: لن يضيع عندنا تعبك، وأمر له بجملة من المال.

وأراد الوليد أن يكسر قلب عين الحياة، ويصرفها عن الأمل في فيروز، فاختار أحد أتباعه وقال له: اذهب إلى ابنتي طوران وقل لها: بلغي عين الحياة أننا أسرنا مصفر شاه ابن عم الملك ضاراب، وغدًا سنأسر فيروز شاه، وحينئذ يضعف جيش المدينة البيضاء وتذهب ريحه، ويكون لجيشنا لقمة سائغة، وقد أمرت بحبسه في سجن من قصري، وأمرت أن يسير به الفرسان من تحت قصرك لتنظري إليه وهو في طريقه إلى سجنه، ولتتأكدي من صدق ما نقول.

جاءها رسول أبيها فوجدها في غرفتها، وألقى إليها الرسالة وقال: إن الأسير في طريقه الآن إلى السجن، وعما قليل ترينه سائرًا من تحت قصرك.

ثم خرج، وأطلت طوران من نافذة قصرها وأرسلت في الطريق نظرها، فوجدت جماعة من الفرسان قادمين، فظنت أنهم حرس الأسير وهم سائرون به إلى السجن.

ولبثت مطلة ونظرها لا يتحول عنهم، ولما قربوا من القصر ملأت عينها من الأسير، وملأ هو عينه منها، ولم تستطع أن ترد طرفها حتى غاب عن رؤية العين، ولكنه طلع واضحًا ظاهرًا في القلب، فكان شغلها الشاغل، وموضع تفكيرها الدائم.

مسكينة.. عين الحياة!! ظلمتها بالعتب عليها..! !

أدركت الحياة وسرها فتطلعت إلى أسمى منزلة فيها..

تشبثت بها..!! أثارت الحروب من أجلها..! !

أصرت على أن تنالها..!!

لا يهمها أن تضيع في سبيلها كثير من الأنفس الجاهلة..!!

وما لي لا أكون مثلها.. هذا مصفر شاه تبدو على وجهه سما الكمال الخلقي والرجولة.. وما لي لا أبتغيه لي زوجا. .؟! إنه الآن لي وأنا له..!! هدفي من الحياة!! أملي في الوجود..!! فأنيَّ لي به..؟! وكيف أرتبط به رباط مودة وعشرة إنسانية فاضلة تسمو بالمجتمع وتقوم عوجه؟!

وفزعت إلى خادمتها هند، وأفضت إليها بذات نفسها، وأنها تحب أن تكون فتاة تؤدي رسالتها في الحياة.

فقالت هند، وكانت ذات دلال عند سيدتها لأنها تعزها وتعتمد عليها في شئونها، لحزمها، وكمال عقلها، وأدبها: عجبت لهذا الانقلاب المفاجئ على الرغم من إلحاحي عليك أن تخلدي آثارًا لك في حياة الإنسانية التي شرع الله نهجها، وجعل الفتاة أساسًا لعمرانها، وأنت تأبين إلا حياة العزلة والانزواء!! وأكثر عجبي أن يشغف قلبك بأمير من المدينة البيضاء هو أسير أبيك وخصيمه وعدو له، ولا يزال أبوك يصلي نار حرب بينه وبين قومه؛ وهل تظنين أنه يقاسمك هذا الميل، وذلك الهدف الذي حملت نفسك أثقال الحصول عليه؟

فقالت طوران: إنه قريب مني وفي حوزة أبي، ولا بأس أن يجمعنا هذا القصر الفسيح لنتفق على تأدية رسالتنا في أكمل صورها وأشرف أهدافها، وهذا ما دعوتك من أجله.

مصفر شاه يسير أسيرًا بين الحراس، وطوران تطل عليه من نافذة قصرها

فقالت هند: ذلك أمر فوق طاقتي، وليس له إلا صديقتك عين الحياة، فإنها ذكية مجربة بصيرة بتدبير الأمور في كرامة وشرف وأمانة.

فاستراحت طوران لرأي هند، وذهبت من فورها إلى صديقتها عين الحياة في غرفتها، ودخلت عليها كالتائهة المضطربة.

وأدركت عين الحياة أن بها مسًا من حادثة مروعة، فسألتها عما بها فقالت: صديقتك الوفية في حاجة إلى معونتك.

فقالت عين الحياة: إني لا أملك في قصرك هذا إلا نفسي، وما أنا بضنينة عليك بها.

فقالت طوران: حياك الله وأبقاك! ! فما عهدتك إلا صائبة الفكر، كريمة الخلق، يزينك الوفاء، وصدق الرأي والتدبير، وقد حملت من الحياة مثل الذي تحملين، وسعيت إلى الغرض الأسمى الذي إليه تسعين، وقد جئتك لأستمد منك الرأي والمعونة.

فقالت عين الحياة: حدثيني بما في نفسك، فلن أبخل عليك بمعونة.

فقالت طوران: أخبرني أبي أن فيروز شاه أهلك جنده، وأبدى في البطولة ما أفزع القواد والفرسان؛ فعقد مجلسًا حربيًا للنظر في أمره، وأجمع رأيهم على أن فيروز ما دام في جيش المدينة البيضاء فلن يغلبه أحد، لن يمضي على القتال يوم أو يومان حتى يكون قد أسقط عرش أبي وملك بلاده؛ وانفض المجلس على أن يسرقه طارق العيار الليلة الماضية، ولما ذهب ليسرقه سرق أميرًا يشبهه لا يكاد يختلف عن صورته في شيء، وكان هذا الأمير هو مصفر شاه ابن عم الملك ضاراب، ولما وجده من الأمراء، ومن بيت الملك أمر بحبسه في سجن من قصره؛ ثم أرسل إليّ رسولا يخبرني أنه وهو في طريقه إلى السجن سيمر من تحت القصر ويقول: فإذا نظرت إليه فرحت بأسره، لأنه من وسائل الفوز لأبيك.

رأيت هذا الأمير وهو سائر من تحت القصر مكتّفا، ومن حوله حرس شداد، فلمحت فيه شمائل الرجولة، وسمات البطولة، ودلائل السمو النفسي، ونضارة الخلق الكامل الرفيع، ووجد قلبي فيه غايته وهدفه، فسار

معه وتعلق به، وأود أن تساعديني في لقائه، والتحدث إليه حديث الأخت إلى أخيها، والصديقة إلى صديقها، فضحكت عين الحياة وقالت: وكيف تغير رأيك في الحياة، فنظرتِ إليها نظرة غير التي كانت لكِ من قبل، ونبذت حياة العزلة والانزواء العاطل؟ فقالت: لم يقيض لي فيما مضى من حياتي ما يثير المواهب الفطرية في الإنسان، والتي هي من عوامل الإنتاج والعمران، ولم تتح لي حياة العزلة أن أعرف الواجب عليّ نحو الجماعة التي أنا عضو في جسمها، والذي ينبغي أن يكون سليمًا يؤدي عمله الذي خلق له كبقية الأعضاء، أما الآن فقد فهمت منزلتي من الجماعة، وعرفت أنه لا ينبغي أن أعيش على شريعة الوحش في الغاب أهلك ولا أنتج، وأهدم ولا أبني، وهذا ما جعلني أسير على نهجك، وأطلب معونتك.

فقالت عين الحياة: أحضري رئيس السجن وقولي له: جاءك أسير من المدينة البيضاء، وصديقتي عين الحياة تود أن تراه لتسأله عن شأن من شئون بلادها يغيبها، ولا أحب أن أخالف لها رغبة، وسيكون مجيئه إلينا ليلا على أن تأخذه قبيل الفجر، وإذ ذاك يحضره إليك، وسأكون حاضرة هذا القول حتى يصدق ما تقولين، وإذا ما طلبته بعد ذلك أحضره في يسر وسهولة لأنه يكون قد خف على نفسه وقع إحضاره لأنه اعتاده، وحينئذ يتحقق ما تبغين، وفي ظني أنه إن رآك عرف سمو نفسك، وكمال خلقك.

أضاء وجه طوران فرحًا وسرورًا، ودعت بهند خادمتها وأرسلتها إلى رئيس السجن لتأتي به إليها، فلما حضر أفضت إليه بما اتفقت عليه مع عين الحياة، وطلبت منه في سر وخفية أن يحضر إليها الشاب الأسير الأمير مصفر شاه ليقابل الأميرة عين الحياة لتتحدث إليه في بعض الشئون.

فقال السجان: إني لا أستطيع أن أخرجه من السجن؛ لأني أخشى أن يقتلني أبوك الملك.

فأسرعت إليه عين الحياة باكية متوسلة وقالت: إنكم يأهل المدينة الصفراء رحماء، تكرمون الغريب، وتأخذون بيد الضعيف المستذل، وإني أسيرة في قصركم، لا أستطيع أن أغادره، ولا حول لي ولا قوة، وأود أن أسأل الأمير

عن أشياء تغيبني وتهمني في جيش أبي، وستجيء به مكتفًا مقيدًا إلى قصر طوران وهو قصر أبيها، على أن يكون ذلك سرًا خفيًا لا يعلم به أحد أبدًا؛ ولو كنت أملك في قصركم مالا لكافأتك على معروفك هذا.

فقالت طوران: القصر وما فيه ملك لك أيتها الصديقة الوفية، وها أنا أقوم عنك بالمكافأة.

ثم مدت إليه يدها بشيء من الذهب فأخذه وقال: سآتيكما بالأسير على شرط ألا يعلم الملك ولا غيره بحضوره.

فقالت طوران: اطمئن فلو ذبحنا ما أفضينا بسرك هذا، ولك بعد حمايتي وذمامي وعهدي، والدفاع عنك في كل وقت تحتاج فيه إلى الدفاع.

وفي المساء جلست طوران مع عين الحياة في غرفتها، ووقفت خادمتها هند عند باب القصر تنتظر قدوم مصفر شاه؛ ولما ثقل الظلام جاء به السجان إلى هند، ووصاها بالمحافظة عليه حتى يعود لأخذه قبيل الفجر، ثم كر راجعًا إلى السجن حتى لا يراه أحد. فأكرمتا قدومه، وأمرتا جاريتيهما: هند وشريفة، أن تفكا قيوده وأغلاله بمبردين حادين كانت طوران قد أعدتهما لذلك.

كان السجان قد أخبره عن سبب مجيئه إلى القصر، فلما جلس وفكت قيوده أخذ يتحدث إليهما عن فيروز شاه وبطولته، ويقص عليهما كثيرًا من المعارك التي خاض غمارها، وكان فيها الفارس الذي لا يشق له غبار. وبعد جلسة طويلة أبدت عين الحياة حاجتها إلى النوم، واستأذنت، وخرجت إلى غرفتها؛ وأرادت بذلك أن تخلي الغرفة لهما، ولتتركهما الآن يتحدثان في شرف وعفة وبراءة.

كان لطوران ابن عم اسمه «زيان» وكان غنيًا مسرفًا لا يعف عن دنيّة، ورغب أبوها الوليد في أن يزوجه ابنته طامعًا في أن يقيم الزواج عوجه، ويرده إلى عقله ورجولته حتى لا يكون في انتسابه إلى البيت الحاكم ما يدنسه ويشينه، وعرض الأمر على ابنته فقالت: لا تكرهني على الزواج من رجل لا مروءة له ولا رجولة عنده، فإني لا أحب أن أعصى لك أمرًا، كما لا تحب أن تظلمني وتسوقني إلى أمر لا رغبة لي فيه، ولا صلاح لأمري به.

فبلغه أني لا أرغب في الزواج من أحد سواء أكان ابن عمي أم غيره.

ولما عرف زيان أن طوران بنت عمه لا رغبة لها فيه، ولا تريد أن يكون لها زوجًا ظن أنها على صلة بأحد الأمراء على غير علم من أبيها وقد اختارته زوجًا لها؛ فأصر على استطلاع أمرها والانتقام منها، فهداه بحثه إلى «سنبل» بواب قصرها، واستعبده بماله وسخائه وإحسانه، ثم قال له: بلغني أن طوران بنت عمي ترغب في الزواج من أحد الأمراء، وهي تخفي رغبتها هذه عن أبيها وعن جميع الناس، وأحب أن تعرف ذلك، وأن تعرف من هذا الأمير الذي اختارته.

فقال سنبل: ما سمعت بهذا ولا عرفته.

فقال زيان: إنها أخفت رغبتها عنك وعن غيرك، وأريد أن تتجسس ليلا ونهارًا حتى تأتيني بالخبر اليقين. وناوله قبضة من الذهب، ففرح العبد «سنبل» وقال: سأعرف لك كل شيء، وإن لم أذق للنوم طعمًا.

جلس العبد «سنبل» لطوران بالمرصاد وأخذ يسهر الليالي في التجسس ومراقبة طوران في حديثها وحركاتها وتنقلاتها ومقابلاتها ليلا ونهارًا، فما وجد فيها ريبة ولا شيئًا مما قاله ابن عمها «زيان»، ولم يجد في أي تصرف من تصرفاتها ما يؤخذ عليها، لأنها لم تكن قد عرفت مصفر شاه. حتى كانت تلك الليلة التي جاءها فيها من السجن، وجلس إليها يتحدثان في شئون الحرب القائمة بين أبيها وملك المدينة البيضاء، فانفلت يجري إلى «زيان» وقال: تعال وانظر الجالس مع ابنة عمك في غرفتها.

فتقلد «زيان» سيفه، ومشي مع العبد حتى دخل القصر، وذهب إلى غرفة طوران، وفتح الباب فجأة، ودخل عليهما شاهرًا سيفه، وقال: كيف ساغ لك أن تتصلي برجل غريب؛ وتختلي به في غرفتك ليلا؟! وفي الوقت نفسه تفهمين أباك أنك راغبة عن الرجال، وأنك آثرت الرهبانية على الزواج؟! لقد حل قتلك وقتل هذا الغريب الآثم.

فلم تنطق بكلمة، ولكن مصفر شاه قال له: إني رجل غريب، وما ارتكبت ذنبًا، فمن أنت يا سيدي؟!

فقال: أنا زيان ابن عمها، وقد خطبتها لنفسي فأبت، واعتذرت بأنها لا ترغب في الزواج، وقد بان لي كذبها وسوء فعلتها.

فقال مصفر شاه: وإني أسير أبيها وفي سجنه، وما رأيتها قبل هذه الليلة، ولكن جيء بي من السجن إلى هذا المكان وسأعود إليه، ولا أعرف لماذا جئت! ! فهل ترى لي ذنبا؟

فقال زيان: لا ذنب لك! فاخرج وامض إلى سجنك، واتركني لأقتل هذه الخائنة الآثمة.

فقام مصفر شاه، وخرج من الحجرة، وظن زيان أنه انفرد بطوران ليحاسبها ويؤنبها على ما فعلت معه، وعلي أنها استباحت لنفسها أن تستحضر هذا الأمير من السجن في غفلة من أبيها، وأن تجلس معه وحدها تتحدث إليه في غرفتها، ولكنه لم يكد يخرج من الحجرة، ويطمئن زيان إلى خروجه حتى عاد إليها؛ وكان زيان مقبلا على بنت عمه يعاتبها، ويقسو عليها في العتاب حتى هجم عليه مصفر شاه من خلفه.. هجمة الأسد، وألقاه على وجهه، وأخذ السيف من يده، وضربه ضربة قطعته قطعتين، وأخذ السيف وخرج، ولما وصل إلى باب القصر - وكان الظلام شاملا - ظنه سنبل ابن عمها «زيان» فقال: هل عرفت يا سيدي أني ما كذبت عليك، فيما أخبرتك به من أن الأسير جالس معها في غرفتها..؟!

فعرف مصفر شاه أنه هو الذي كشف الغطاء عن هذا السر المكنون، وضربه بالسيف فأرداه قتيلا، وانفلت إلى المدينة يبتغي الخروج منها إلى عسكره.

اضطربت الفتاة، وحارت في أمر القتيلين، وخافت أن يقبض على مصفر شاه، وينكشف أمرها؛ فذهبت إلى عين الحياة، وأحضرتها إلى غرفتها، وقصت عليها ما جرى، وقالت: أنقذيني - يا أختاه - من هذه الورطة.

فضحكت عين الحياة وقالت: إنك مسكينة تغرقين في شبر من الماء، ما حصل شيء يستوجب هذا الاضطراب، فاطمئني ولا تفزعي؛ ثم أحضرت الخادمتين: هند وشريفة، وقالت لهما: احملا القتيلين واصعدا بهما إلى سطح

القصر، وألقياهما في الساحة الواسعة التي بجوار القصر من خلفه. فصدعتا بالأمر في الحال، ثم قامت هي وطوران والخادمتان بغسل الغرفة والمكان الذي قتل فيه العبد «سنبل» حتى نظف القصر من دماء القتيلين، وأصبح لا أثر لهما فيه، ثم قالت: سيعثرون على القتيلين في الصباح، وسيقول الناس عنهما: إن ابن عمك جاء القصر يريدك بسوء، فقتله سنبل، وقتل جماعة ابن عمك العبد فيه وانتهى الأمر.

ثم أوت كل إلى غرفتها ونامت حتى الصباح.

أما مصفر شاه فإنه مضى في سيره حتى رآه الحرس عند باب المدينة فهبوا ليقبضوا عليه، ولكنه ابتدرهم بسيفه، وقامت حرب عنيفة بينه وبينهم، حتى استصرخوا طائفة من الجند، فأسرعوا إليهم وبعد كفاح وقتال أليمين تكاثروا عليه وأمسكوه، ووصل خبره إلى السجان، فخاف أن يقتله الملك، وعمد إلى الحيلة لينجو بها من غضبه، فأحدث ثقبًا واسعًا في السجن وأغلقه، وفي الصباح مضى يجري إلى الملك صارخًا وقال: دخلت السجن في الصباح أتفقد الأسير فلم أجده، ووجدت ثقبًا واسعًا في الجدار الخلفي من السجن، فجئت لأخبرك.

فقال الملك: وأين الحرس؟! وكيف يحدث الثقب ولا تشعرون؟! لا بد من قتلك أيها الضعيف العاجز.

فقال وزيره بندانديش: إن له عذرًا، ولا ذنب له، لأن العيارين يأتون بأعمال عجيبة في سرقة الرجال، وفي جيش المدينة البيضاء كثير منهم، وأرى ألا تقتله، وأن تفصله من عمله.

فأمر الملك بطرده، فخرج يجري فرحًا بنجاته من القتل، وحزينًا لأنه طرد من عمله الذي يأتيه منه رزقه، ومضى إلى طوران وشكا لها ما فعله أبوها، فأعطته شيئًا من المال، وقالت له: هذا يغنيك عن الوظيفة، فأخذه ومضى إلى بيته.

وبعد أن خرج السجان جيء بالأسير إلى الملك، وقص الحرس عليه قصته.

سكن غضب الملك لفراره حين رآه، وأراد أن يعرف كيف هرب وفر من السجن؟ فسأله: كيف فررت من السجن؟!

فقال: لا أعرف إلا أن الحرس أمسكوني، وأني واقف بين يدي الوليد، ولا تطمع أن تعرف مني غير ما سمعت، واعلم بأن الأقدار ستساعدني على الفرار من أي سجن تحبسني فيه.

فاغتاظ الملك وقال: خذوه إلى سجن العفاريت ليرينا كيف يستطيع الفرار منه. فذهبوا به، وأسلموه إلى سجانه، ووصوّه أن يحافظ عليه، ولا يمكنه من الهرب.

وكان هذا السجن متين الجدران، شديد الظلام، لا يدخله ضوء النهار، ولا يلقي فيه إلا من حكم عليه بالإعدام أو بالسجن المؤبد.

وكانت شريفة قد خرجت إلى المدينة لتعرف ما يقوله الناس عن القتيلين، وعن هرب مصفر شاه ومصيره، وهل انكشف للناس ما بينه وبين طوران؟ فكانت كلما وقفت لتسمع حديثهم، أو سألت عن هذا الهرج الذي انتشر في المدينة سمعت أو قيل لها: عثر على قتيلين هما: زيان ابن عم الملك، وسنبل بواب قصر ابنته طوران، ورفع أمرهما إلى الملك وما عرف أحد قاتلهما، ولا السبب الذي من أجله قتلا؛ ويظن بعض الناس أن زيان انتهز فرصة اشتغال الملك بالقتال، وأراد أن يدخل قصر الأميرة ابنته قهرًا، فقتله البواب، ثم قتل أنصاره وأشياعه البواب وهربوا، وقد عثر على مصفر شاه هاربًا من سجنه، وقتل كثيرًا من الحرس الذين بباب المدينة، ثم تكاثر الجند عليه وأمسكوه، وساروا به إلى الملك، فسأله: كيف هربت من السجن، فقال في ثبات وجرأة: لا أعرف كيف فررت، ولكني أعرف أني واقف أمامك ولا تطمع أن تعرف غير ما سمعت، وستراني بعون الله فارًا من أي سجن حبستني فيه؛ فأمر بإلقائه في سجن العفاريت.

فاطمأنت، ورجعت إلى سيدتها وصديقتها، وأخبرتهما بما عرفت، فاطمأنتا وعرفتا أن سرهما لا يزال في طي الكتمان، ولكنهما حزنتا لحبس مصفر شاه في سجن العفاريت.

وكان الوليد قد أرسل إلى ضاراب أن يرجئ القتال ويهادنه ثلاثين يومًا لدفن القتلى، وحماية الجنود والبلاد من الخطر إذا ما تركوا في الخلاء تنبعث منهم الروائح الكريهة، وتنتشر الأمراض الفاتكة، فأجابه إلى ما طلب لأن فيه صلاحًا لجيشه وجيشهم. ووقاية للأنفس من الأمراض الفتاكة، التي إذا أغفل أمرها أبادت الجيوش وخربت الديار.

❊❊❊

﴿ ٩ ﴾

عقد ضاراب مجلسه في الصباح كعادته كل يوم، ولم يجد في الجالسين ابن عمه مصفر شاه فسأل عنه فقيل: ربما طرأ عليه ما أخره.

وحضر شياغوش في هذا الوقت فقال: إن عسكر مصفر شاه يؤكدون أنه قد سرق من خيمته الليلة، وما سرقه إلا عيار من المدينة الصفراء، لأن آثار أقدامه تدل عليه. وما إن انتهى من حديثه حتى أقبل بهزاد بن فيلزور فأكد ما أخبرهم به شياغوش وقال: وأغلب الظن أن سارقه طارق عيار الوليد.

فغضب ضاراب وقال: أيسرق من بينكم ملك وأنتم ساهون؟! وتفقد شبرلنك العيار فلم يجده في الحاضرين، فأصابه غم من بعد غم، وخيم على الجالسين وجوم ثقيل، وما كشفه عنهم إلا حضور شبرلنك العيار، فقال الملك: أين كنت؟!

فقال شبرلنك: كنت أتجسس في جيش الوليد، وبينما أنا واقف بين خدمه أقبل طارق العيار وقال: سرقت الليلة فيروز شاه. فصدقه الملك وجلساؤه إلا طيفور، فإنه قال: محال أن تصل يدك إليه ومعه بهروز بن الغول.

فقال طارق: إذا أحضرته الآن بين أيديكم عرفتم أن طارقًا عيار الوليد لا يعجزه المحال.

وأسرع فأحضره، وإذا هو مصفر شاه، ولما عرفت ذلك أسرعت إليكم وجئتكم.

فأبدى الجلساء أسفًا وحزنًا؛ فقال الملك: لا ينبغي أن نضيع الوقت في الأسف على ما فات ووقع، فدبروا أمر خلاصه من أسره قبل أن ينزل به من الأعداء ما نكرهه.

أصر فيروز شاه على أن يذهب إلى المدينة ليعرف منها أين مصفر شاه؟ ويرسم لنفسه الخطة لإنقاذه. وصحبه بهروز بن الغول، ودخلا المدينة من الناحية الخالية من الحرس، وكان يعرفها بهروز من قبل.

وبينما هما سائران في المدينة سمعا رجلين يتحدثان في قتل زيان وسنبل، وفرار مصفر شاه من سجن الملك الوليد في قصره؛ وأنه فر من السجن وقبض عليه الجنود بعد أن قتل منهم كثيرًا، وساروا به إلى الملك فأمر بإلقائه في سجن العفاريت. فقال لبهروز: هيا بنا إلى سجن العفاريت لأخلص مصفر شاه.

فقال بهروز: إن إخراجه من سجنه لا يكون إلا بسرقته، ، وأنت لا تعرف شيئًا في فن السرقة، فدعه لي فإن السرقة حرفتنا.

فقال فيروز شاه: لا بد من السير معك الآن.

الظلام حالك، والمدينة هاجعة، والسبل خالية، لا يسير فيها إلا من دفعته الضرورة لشأن من شئونه، وهم قليل، وفيروز وعياره يخشيان أن يسألا أحدًا عن سجن العفاريت حتى لا يظهر أمرهما، فكيف السبيل إليه؟!

مشيا في المدينة كأنهما من أهلها، على نور من أمل يقويه العزم، والاعتماد على الله الذي يهدي الضال، ويرشد الحائر، وجعلا يجوسان خلالها على غير هدى، ولكن الأمل كان يفتح لهما في سيرهما سبيلا بعد سبيل.

عثر العسس عليهما وهما يسيران، فارتابوا في أمرهما، وهموا بالقبض عليهما؛ ولكن فيروز شاه ابتدرهم بسيفه، فقتل ثلاثة منهم، وفر رابعهم يطلب النجدة من العسكر، وأحس رجل من أهل المدينة حركة عنيفة أمام بيته فنزل إلى الباب وفتحه ليتبين ما يجري أمام منزله، وكان جزارًا أصله من المدينة البيضاء، فأدرك أن القتال لا يدور في هذا الوقت من الليل إلا بين عسس الوليد وأحد من جيش المدينة البيضاء، فلما نزل وشاهد المعركة عرف من منظر فيروز شاه وعياره، ومن لهجتهما في الكلام – أنهما من المدينة البيضاء. وأحس في نفسه ميلًا لهما، وعطفًا عليهما، وحمله الميل إلى جنسه من أهل تلك المدينة إلى معونتهما، فقال لهما: ادخلا بيتي، واختفيا فيه قبل أن يأتي جنود الوليد للقبض عليكما؛ ولا تخافا، فإني من المدينة البيضاء، نزح أبي إلى هذه المدينة وطاب له المقام فيها.

وغلب على فيروز شاه من حديث الرجل وشكله ولهوجته وتلهفه أنه

صادق في قوله، والتفضل بمعونته؛ فدخلا بيته وخبأهما في غرفة من غرفه، ثم وقف بالباب ينتظر عودة الجنود، فلما جاءوا سألوه عن الرجلين فقال: رأيتهما يجريان في هذا الطريق.

فأسرعوا يركضون من خلفهم، ثم أغلق الباب وذهب إليهما وأخبرهما بما قاله.

فقال فيروز شاه: لقد حقت علينا مكافأتك، فما اسمك حتى أجزيك خير الجزاء؟!

فقال الجزار: ما فعلت إلا ما يمليه عليّ الواجب لوطني، وأهل جنسي، ولا أبغى مكافأة من ورائه؛ واسمي أبو الخير، وأبي وأمي من المدينة البيضاء.

فقال فيروز شاه: وما وقع معروفك إلا على فيروز ابن مليكك.

فأقبل الرجل عليه وقبل يديه وقال: ذلك فضل الله عليكما ورعايته لكما، وأنتما في بيتي حتى يقيض الله لكما سبيل النجاة. وأرجو أن تلبثا في هذه الغرفة ولا تخرجا منها أبدًا، لأن طارقًا العيار صديقي ويكثر من زيارتي. ولا أحب أن تقع عينه عليكما، وسأوصي زوجتي أن تقوم بخدمتكما، وكأني لا أعرفكما ولا أعرف شيئًا عنكما حتى يأتينا فرج من عند الله.

فشكرا له صدق معونته. ووصياه أن يخفي أمرهما بحيث لا يشعر أحد بهما، وأن يزودهما بالأخبار حينًا بعد حين.

وفي الصباح شاع الخبر في المدينة، ونقل إلى الوليد في مجلسه فقال: لعل مصفر شاه هرب من سجن العفاريت.

فقال طيفور: لا يا سيدي، وإن صدق ظني فلن يكون الرجلان إلا فيروز شاه وعياره بهروز بن الغول. ولعله انسل إلى المدينة طمعًا في أن يجتمع بعين الحياة. وأعتقد أنه لا يزال في المدينة ولم يغادرها. وأرى تفتيشها والبحث عنه في بيوتها، وأن يكون ذلك فورًا حتى لا تفلت الفرصة، فإني على يقين من أنهما لا يزالان في المدينة.

استحسن الوليد ما قاله طيفور وقال: إن مصفر شاه لا يستطيع الهرب من سجن العفاريت، وقد قضى عليه فيه بالعذاب الذي سينتهي به إلى الهلاك،

وجدير بي أن أنفق ما في خزائي في البحث عن فيروز، وتفتيش بيوت المدينة بيتًا بيتًا، إذ أن أسره انتصار لنا وقهر لخصومنا، وليس من الحكمة السكوت عن طلبها.

وعز على وزيره بنداديش أن يغفل الملك مشورته، وأن يبرم أمرًا أشار به طيفور وهو جالس معه لا يلتفت إليه ولا يستشيره فيما أبرم.

فقال الوزير: إن المدينة الصفراء كثيرة السكان، الخطأ أن تزعج بالتفتيش رجالها ونساءها وأولادها وشيوخها، فيفهموا أنك انتقلت في معاملتهم بسبب هذه الحرب من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الظلم، ومن ثَمَّ يميلون كلهم أو بعضهم إلى أعدائنا كل الميل أو بعضه، وأرى أن ترسل أحد العيارين إلى جيش المدينة البيضاء، فإذا وجد فيروز شاه بينهم عرفنا أنه غادر المدينة وفر إلى جيشه، أو أن الذي في المدينة رجل غيره، وإن لم يجده عرفنا أنه في المدينة ودبرنا السبيل الصالح للقبض عليه.

فأمر الملك طارقًا العيار أن يمضي إلى جيش الأعداء ليعرف ما إذا كان هناك فيروز شاه أو لا.

فقال طارق: سمعًا وطاعة.

لبس طارق ثياب الدراويش، وتسرب إلى جيش المدينة البيضاء حتى كان عند صيوان الملك، وكان قد جلس تلك الليلة في جمع من وزرائه وقواده وهم يتململون من الآلام التي أصابتهم من حبس مصفر شاه في سجن العفاريت، وغيبة فيروز وعياره بهروز من الجيش، وجهلهم مكانهما، ولبث عند الصيوان في هيئته التي اختبأت شخصيته فيها حتى انفض المجلس، وأيقن أن فيروز في غيبة، وأن قومه لا يعرفون مكانه.

ورأى بهزاد بن فيلزور خارجًا من الصيوان يبغي خيمته لينام، فمشى من خلفه حتى دخل خيمته، وانتظر طارق خلف الخيمة حتى أوى بهزاد إلى فراشه، وأيقن طارف العيار أنه غرق في نومه. فبدأ يحاول الدخول عليه لقتله أو أسره، ليرجع إلى مليكه بأعظم البشرى.

أوى بهزاد إلى فراشه وصدره يضطرم حزنًا على مصفر شاه وفيروز فما

غمضت له عين، ولا هدأ له بال، ولا استقر له قلب، وأحس أن وتد الخيمة ينزع من مكانه، فأدرك أن عيارًا يريد به الشر، وسكت مستعدًا للقائه، ودخل طارق يمشي الهوينا مختلسًا خطواته. فهب في وجهه بهزاد هبة فاجئة مفزعة، وسقط طارق على الأرض محاولا أن يفر زاحفًا من تحت أذيال الخيمة، فانكب بهزاد عليه وأخذ من يده خنجره، ثم كتفه ومضى به إلى الملك ضاراب في صيوانه، فوجده لا يزال يتحدث إلى طيطلوس وزيره. فلما دخل عليه وطارق معه قال الملك: لعل خيرًا أرجعك بعد انفضاض المجلس يا بهزاد؟ ومن هذا الأسير الذي معك؟!

فحكى له قصته حتى كان به بين يديه، فقال طارق: أرجو أن يمهلني الملك حتى أبدي له ما فى نفسي.

فقال الملك: هات ما عندك ولا تخف.

فقال طارق: أنا طارق عيار الوليد. وأخذ يقص ما وقع في المدينة، وما دار من الحديث في مجلس الوليد بشأن فيروز والقبض عليه ثم قال: وكان قد وصاني خطار بن خطير أن أقتل بهزاد لأنه قتل أباه. ووعدني أن يغنيني بالمال، فلما دخلت عليه في صيوانه حماه الله من يدي، ووقاه موتة خائنة، وأرجو أن يلهمكم الله المحافظة على حياتي كما حافظ على حياة بهزاد.

عرف الملك أن ابنه فيروز في المدينة، وظن أنه عند عين الحياة، وسأل طارقًا فقال: ألا تعرف شيئا عن مصفر شاه؟

فحكى له قصته إلى أن حبسه الملك في سجن العفاريت، فدعا الملك شبرلنك وقال له: احفظ طارقًا عندك إلى الصباح لننظر في أمره.

ثم أوى جميعهم إلى فراشهم.

❊❊❊

الجاسوسيّة الخائنة

﴿ ١ ﴾

انعقد مجلس الملك ضاراب، وأمر شبرلنك أن يأتيهم بطارق، فجاء به على عجل، وأمره الملك أن يقص عليهم قصته، وكل شيء يعرفه عن فيروز ومصفر شاه، ولأي غرض جاء إلى الجيش متنكرًا، فنفض طارق ما في نفسه، وقال ما عنده. فقال الملك: ألا يستحق طارق القتل بعد أن سمعتم منه ما سمعتم؟

فقالوا: ومن أولي بالقتل من هذا الغادر الخائن؟!

فقال طارق: لا ريب في أني أستحق القتل بالنسبة إليكم، ولكني لا أستحقه بالنظر إلى مولاي الوليد، ولا أحب أن أوصف بخيانته، فقد قمت بخدمته أمينًا وفيًّا حتى هذه الساعة التي حكمتم على فيها بالقتل، وإني أعتبر حياتي قد انتهت مع مولاي الوليد بحكمكم هذا في وفاء وصدق، وأعتبرني ولدت من جديد، وبدأت حياة ثانية إن أنتم عفوتم عني وقبلتموني خادمًا لكم في أمانة ووفاء، وكان لي بذلك حياتان مستقلتان منفصلتان لم تشب إحداهما شائبة من غدر أو خيانة.

فقال الملك: إن أمرك يا طارق لعجيب، فقد بالغت في الدفاع عن نفسك حتى رمت أن توقعنا في حبائل مكرك لتنجو من القتل، ولتمكن لنفسك الإيقاع وأنت في عصمة من مكرك وخداعك.

فقال طارق: أقسم بالله العظيم الذي خلق الحياة والموت ما أردت بقولي هذا نجاة لنفسي، ولا نصبته لكم حبائل مكر وخديعة، وما أردت به إلا خدمتكم في وفاء وأمانة، فإن أحييتني فقد أحييتني لكم، وإن قتلتني فقد خسرتموني، والأمر بعد ذلك لكم.

فقال الملك: لقد خدعنا هلال العيار كما أردت خداعنا الآن.

فقال طارق: إن الرجال أجناس ومعادن، وما جاز على أحدهم قد لا يجوز على غيره، وأمري واضح بين أيديكم.

وقع قول طارق في نفوس الجالسين موقع الرضا، فقال طيطلوس: إني لأظنه صادقًا، وصلاح أمرنا في العفو عنه.

فقال الملك: عفونا عنك يا طارق، وجعلتك عبارًا لي، وسترينا الأيام أينا أكرم نفسًا وأشرف غاية.

فقال طارق: لن يكون إلا الخير والوفاء الكريم. وما جزاء المعروف في نفس الكريم إلا معروف مثله.

ثم قال طارق: أيسمح لي الملك أن أرجع الآن إلى الوليد لأخبره أن فيروز شاه بينكم حتى يسكت عن البحث والتفتيش عنه في المدينة؟ فإن تأخيري يحمله على إرسال عيار غيري يعرف الحقيقة، ويفتح له السبل إلى فيروز شاه.

فقال الملك: افعل ما شئت يا طارق، فقد منحناك ثقتنا، وجعلنا الله شهيدًا بينك وبيننا، وسترينا الأيام أينا أهدي سبيلا.

رجع طارق إلى الوليد فوجده في صيوانه بين جلسائه، وكانوا في قلق لغيبته، فانتعشوا لرؤيته وقالوا: ما وراءك يا طارق؟

فقال طارق: وجدت فيروز شاه من بين جلساء أبيه، وهو يحرضه على القتال، وإبطال الهدنة، لأنها طويلة المدي، ولا يستفيد منها إلا خصومهم، فقال:أبوه من المحال يا بني أن أنقض عهدًا أبرمته.

فقال الوزير بيداديش: الآن قضي الأمر واطمأنت النفس، ولسنا في حاجة إلى إقلاق الناس وإزعاجهم بتفتيش بيوتهم.

وفي الليل ذهب طارق إلى بيته، وأخذ ما يحتاج إليه، ومشي إلى جيش المدينة البيضاء على عين الجنود والرقباء لأن أمره لا يزال خفيًا عنهم، وهناك بات حتى الصباح، ثم ذهب إلى الملك ضاراب وبلغه ما فعله، وأقام فيهم.

بلغ الوليد أن طارقًا نفض يديه من خدمته، وأصبح للملك ضاراب من أكبر عياريه، فغضب وأنذره القتل إن وقع في يده، وجعل الأموال الجزيلة لمن يأتيه به، فقال هلال عيار للملك سرور: سآتيك به وإن حالت الجبال بيني وبينه.

وخرج يستحث أنصاره من العيارين، وجعلوا يطوفون في الأسواق

والميادين والشوارع لأنه يتوقع مجيء طارق في مكيدة، وهو لا يخفي عنه شكله وإن بالغ طارق في تنكره.

أما الملك ضاراب فإن الوساوس أقضت مضجعه، وبلبلت أفكاره، خوفًا على فيروز الذي لا يزال غائبًا ولا يعرف عنه خبرًا، فقال له طارق: إني ذاهب إلى المدينة، وسأعود إليك بما يذهب عنك الوساوس ويريحك.

***

﴿ ٢ ﴾

كان في المدينة رجل سقاء اسمه قنوش، وهو يحمل قربته ويسقي الماء منذ عشرين سنة، ويعرفه الناس، ولا يجهله إلا قليل منهم، فقلده طارق وصنع له لحية كلحيته، وجعل صوته في الحديث كصوته؛ ثم انفلت إلى المدينة، وقبل أن يدخلها وجد طارق قنوشًا على النهر يملأ قربته، فدنا منه ودفعه إلى النهر فأغرقه، ولما مات أخرجه، ونزع عنه ملابسه، ثم رماه ثانية في النهر، ولبس هو ملابسه، وحمل قربته، وملأها، ومضى ليجتمع بالناس ويسقيهم متوسلا بذلك إلى أن يعرف منهم: أين فيروز شاه؟

وبينما هو يسقي الناس في سوق من أسواق المدينة رآه هلال العيار وعرفه، فذهب إليه هو وأصحابه، ورجا منه أن يسقيه، فملأ الكوز وناوله إياه، وكان طارق قد عرفه، وساوره الخوف من أن يعرفه هلال، وبعد أن شرب أثنى على طارق، وأمر أصحابه أن يمسكوه، فلما أمسكوه أظهر دهشته وقال: ماذا تريدون؟! وماذا فعلته بكم حتى تمسكوني؟!

فقال هلال العيار: أمسكت لأنك طارق العيار.

فصاح طارق بملء فيه، مقلدًا صوت قنوش: اشهدوا أيها الناس، وتعالوا إلى هذا الظالم، الذي يوزع التهم، واسمعوا ما يقول.

فاجتمع الناس وأحاطوا به، وقالوا: لم ظلمت هذا الرجل الفقير الذي يحمل قربته على ظهره ويسقينا منذ عشرين سنة؟

فقال هلال: ليس هذا السقاء الفقير الذي يسقيكم منذ عشرين سنة! هذا طارق العيار الخائن.

فضج الناس ونظروا في وجهه وتكاثروا عليه، وقالوا: كذبت ما أجهلك!! إنك ظالم آثم!! إنك ظالم آثم! إنك لمعتوه! ما أعظم حمقك!

لم يعبأ هلال العيار بما يقول الناس وأصر على أن يأخذه إلى الوليد، واشتد

الشقاق بين الناس وبينه وتكاثر جمعهم، وكلهم يسفهونه ويطلبون منه أن يخلي سبيله، ولكنه مصر على أخذه، فأصروا هم أيضًا على أن يصحبوه.

ومشوا معه إلى الوليد وهم ثائرون يضجون، فلما كانوا بين يديه قال هلال: هذا طارق العيار الخائن، وقد عرفته فأمسكته، واجتمع أهل المدينة ليفلتوه من يدي واهمين أنه قنوش بن عبيد السقاء، فجئنا رافعين الأمر إليك، وما زلت مصرًا على أنه طارق العيار.

فقال الناس: كذب هلال، وما هو إلا قنوش السقاء الذي نعرفه منذ عشرين سنة، ونراه كل يوم بأعيننا، ونشرب من مائه الذي يحمله في قربته، وغير جائز في العقل أن يكون هلال وحده صادقًا، ويكون أهل المدينة كلهم كاذبين.

فقال الوليد لوزيره: ماذا ترى؟

فقال الوزير: إنه قنوش السقاء.

فقال هلال: إنه طارق العيار.

فقال الناس: ما أحمقك! أتكذبنا وتكذب الوزير؟!

فقال الوزير: إن عندي من يعرفه وهو تلميذ من تلاميذه، واسمه بدر فتات، وهو عيار ماهر، أثق به، وأعتمد عليه، وسأحضره ليفصل بينكم.

حضر بدر فتات وعرف أنه طارق العيار، ولكنه تلميذه، وله عليه فضل التعليم والتربية وشرف الأستاذية، وحياته الآن في يده، فهل يلقي به في التهلكة ويقول: إنه طارق؟ أو ينكره ويحافظ على حياته؟

لم يدم التفكير في ذلك طويلا، وقال - والناس في صمت عميق -: ليس في هذا الرجل صفة من صفات طارق العيار، وما أبعد الفرق بينهما.

فقال هلال: إنه طارق.

فقال بدر فتات: إذا أراد سيدي الوليد أن يحفظه هذه الليلة حتى أذهب إلى جيش المدينة البيضاء وأرى هل هناك طارق أولا...! فإن كان هناك انتهى ما بيننا من خلف، وإن لم يكن هناك عدنا إلى البحث عن شخصية هذا الرجل: أهو طارق أم قنوش؟

استراح الملك لهذا الرأي، وأمر أن يحفظ هذا الرجل في مكان حتى صبيحة الغد، وانصرف الناس على أن يجتمعوا عند الملك في موعدهم هذا.

ذهب بدر فتات إلى جيش المدينة البيضاء، وارتاب فيه العيارون فأخذوه إلى الملك ضاراب وقالوا: هذا رجل وجدناه قادمًا من ناحية أعدائنا؛ فأمسكناه لأننا نظن أنه عيار، وقد جاءنا للكيد والخديعة.

فقال له الملك: وما رأيك فيما سمعت؟

فقال بدر فتات: إنهم لصادقون، وأنا عيار من المدينة الصفراء، ولكني ما جئتكم للكيد والخديعة، بل جئتكم لشيء فيه خيركم.

فقال الملك ضاراب: وما هو؟

فحكى له قضية هلال، وطارق وأهل المدينة، وبين موقفه من أستاذه، وأنه يبغي خلاصه من يد هلال العيار، ثم قال: ولهذا جئت لأعود إلى الوليد، وأخبره أن طارقًا العيار الخائن عند الملك ضاراب، ولم يفارق صيوانه.

فقال الوزير طيطلوس: ونحن الآن بين أن نصدقك، وأن نظن قصتك هذه خديعة لتفلت بها من أيدينا.

فقال بدر فتات: لو أنكرت أني عيار من المدينة الصفراء ما استطعتم أن تعرفوني؛ ولكن صدقي في خدمة أستاذي، وحرصي عليه، واعتقادي أن الوليد قد أدبرت عنه الأيام، وأنه بعد قليل سيقتل – جعلني أعرفكم بنفسي، وبالغرض الذي جئت من أجله، وأزيدكم على هذا أني أود من صميم قلبي أن أكون في خدمتكم، وأعمل لصالحكم، وأنا عند وزيري بيداندیش، أنقل لكم أخبار المدينة الصفراء، وأشير عليكم بما ينفعكم، وإذا أقمت عند وزيري مخلصًا لكم كنت أقدر على نفعكم مني لو كنت مقيمًا فيكم.

فقال الملك: قد صدقتك، وأمرت لك بمكافأة شهرية من الآن؛ فقد أصبحت منا وفي جماعة العيارين. فشكر له ورجع.

وحشر الناس عند الوليد في صباح الغد ينتظرون، فلما حضر بدر فتات تطلعت إليه الأنظار، وامتدت نحوه الرقاب، وأصغى الناس إلى ما يقول، وكان طارق يرجو من تلميذه كل خير.

الملك ضاراب في مجلسه وأمامه العيار بدر فتات بين الحراس

وقال الملك: ماذا وجدت يا بدر فتات.

فقال بدر فتات وجدت يا مولاي طارقًا في صيوان ضاراب يقوم بخدمته، ولبثت أنظر إليه ساعتين حتى أجيء إليكم باليقين.

وصاح الناس فرحين إذ نجوا هذا الفقير الذي يسقيهم من العذاب المهين، أو القتل الأثيم.

فقال الملك: اذهب يا قنوش إلى شأنك، وخذ هذا المال لترفه به عن نفسك.

فقال هلال: ينجو طارق من يدك ويأخذ مالك!! اعلم يا طارق أنك ما خفيت على هلال، وغدًا ستقع في يده ولا تنجو، ويعرف هؤلاء الناس أني ما كنت في أمرك إلا على الحق اليقين.

وخطر لطارق العيار أن يذهب إلى صديقه أبي الخير، فأسرع إليه، ولما كان عنده أجلسه وأكرمه، ثم قص عليه ما كان منه من ترك الوليد وقيامه بخدمة الملك ضاراب، وأنه جاء ليبحث عن ابنه فيروز شاه، وقد جرى بيني وبين هلال العيار كذا وكذا. وحكى له حكايته.

فظهر على وجه أبي الخير علامات الاضطراب، وخاف أن يكون هذا الكلام حيلة من طارق أراد به أن يخدعه، ويدله على فيروز شاه وأدرك طارق منه اضطرابه وخوفه فجعل يحدثه ويزيل الشك من نفسه حتى صدقه، ودخل عليهم حماه فجلس وحدثه أبو الخير حديث طارق وما جري من نفسه حتى بينه وبين هلال، فقال: إنه لصادق، ولا خوف عليك منه.

ثم استأذنه أن يقضي حاجة داخل بيته، ومضى إلى فيروز وبهروز وأخبرهما بكل شيء جاء به طارق وقال: الأمر الآن لكما، فإن اطمأننتما إليه كشفت له أمركما، وإلا بقى في طي الكتمان.

فقال فيروز: إن قلبي يحدثني أنه صادق، فهاته لنتأكد ويزيد اطمئناننا، فإن رأيناه خادعًا ماكرًا قتلناه، وبقى أمرنا خفيًا.

دخل على فيروز وعياره: طارق وأبو الخير وحموه، وبان من حديث طارق صدقه فاطمأنوا إليه، وطلب إليه فيروز ألا يعود إلى أبيه حتى يخلص مصفر

شاه من سجن العفاريت، فقال: انتظرنا هنا فنحن عيارون نجيد السرقة، وبعد قليل ستجدنا عندك ومعنا مصفر شاه.

وطلب طارق من أبي الخير أن يأتيه بثلاثة ثياب من ملابس التجار الأجانب، فلبس كل من أبي الخير وطارق وبهروز ثوبًا، وحمل كل منهم وعاء فيه طعام، وانصرفوا جميعًا إلى سجن العفاريت؛ وهناك قال طارق للسجان: نحن تجار غرباء وحبستنا الحرب في هذه المدينة، ومن عادتنا أن نزكي عن أموالنا بإطعام المساجين، فافتح لنا السجن لنطعمهم، ولا يمضي علينا أكثر من ربع ساعة حتى نكون قد أطعمناهم، ثم ناوله الذهب، فخدعه المال وقال: سأفتح لكم باب السجن لتطعموا من فيه من المساجين، وسأقف هنا بعيدًا أرقب الطريق، فإذا أشرت إليكم فاختفوا في السجن حتى يخلو المكان، ثم أخلي سبيلكم.

فقالوا: سمعًا وطاعة.

وفتح باب السجن، وقال طارق لبهروز: ادع المساجين ليسمع مصفر شاه صوتك، ويعرف أننا احتلنا لخلاصه، فيأتينا.

فنادى بهروز: تعالوا يا مساجين، وكلوا من طعامنا.

وعرف مصفر شاه، صوته، وفهم أنه جاء لخلاصه. فأقبل إليه مسرعًا، ثم أخذ طارق خنجره ومضى إلى السجان وتغفله، وجاء من خلفه وضربه وقتله؛ ثم حمل مصفر شاه إلى خارج السجن، وأغلق الباب، ورمى المفاتيح أمامه، وفك قيود مصفر شاه، وعادوا به إلى فيروز، فلما رآه فرح فرحًا عظيمًا، وشكر لطارق همته ومهارته، ثم انسلوا في ظلام الليل، ودأبوا في السير حتى كانوا عند الملك ضاراب. فلما رآهم نهض واقفًا، وكاد يخرجه الفرح عن صوابه، فقد قدم عليه ابنه ومصفر شاه، وأثنى على طارق ثناء جميلًا، وأغدق عليه المال الجزيل؛ وانتشر في الجيش نبأ قدومهما، فكان الفرح شاملًا.

أما السجان فإن ابنه قدم إليه بالطعام في الصباح فوجده قتيلًا، فصاح صارخًا، واجتمع الناس جزعين مستنكرين هذه الجريمة، وذاع نبأ موته، وجاء الجند سراعًا إليه، وفتشوه، فوجدوا في جيبه ذهبًا، ونقلوا الخبر إلى

الوليد وقالوا: وجدنا ذهبًا كثيرًا في جيبه، وذلك برهان على أن جماعة اشتروا بالمال ذمته، فقضوا منه حاجتهم، ثم قتلوه ومضوا. فقال الوليد: هذا جزاء خيانته، فألقوا جثته في الفلاة، وانظروا: أهرب مصفر شاه من السجن، أم لا يزال فيه؟

وفتحوا السجن فلم يجدوا مصفر شاه، وسألوا من كانوا معه فقالوا: جاءنا ثلاثة بطعام، وفتح السجان الباب فأكلنا، وخرج مصفر شاه، ثم أغلقوا باب السجن علينا، ولا نعلم بعد ذلك شيئًا.

❊❊❊

﴿ ٣ ﴾

انتهت مدة الهدنة، وبدأ القتال، وكان شؤمًا على الوليد وجيشه؛ فخلا بوزيره ليلا وقال له: لا أمل في أن نغلب أهل المدينة البيضاء، وعما قريب سيدخلون المدينة، ويملكون البلاد، وإن لم نجد مخرجًا من هذا الضيق، فعلى الدولة العفاء.

فقال الوزير بيداندیش: ليس أمامنا إلا مخرج واحد، وهو الاستعانة بالمقنطر الساحر الذي لو تفل في النهر لجف ماؤه، ولو نظر إلى الجبل لتحلحل من مكانه، ولو أشار بيده إلى السحب لانقشعت وفرت من وجهه، فأشرق الأمل في وجه الوليد وقال: ذلك حق. فاذهب إليه الآن، وبُث إليه الشكوى، وبين له الخطر الذي يستعجل موتنا وفناءنا.

أخذ الوزير عياره وانطلق في الفضاء ومضى إلى حيث يقيم المقنطر الساحر، وكان قد اتخذ له قصرًا في الخلاء، ومن حوله روضة غناء يحيط بها سور حصين له باب جعل عليه بسحره أفعى تخرج النار من فمها فلا يستطيع أحد غريب أن يجتازه حتى يأذن له الساحر، ويصرف عنه الأفعى. وكان معه تلاميذ يتعلمون سحره، ولا يغادرون قصره ولما كان الوزير عند الباب لقيه أحد تلاميذ المقنطر الساحر، فقال له: أنا وزير الوليد، وقد بعثني إلى الساحر العظيم لأمر يهمه.

فمضى التلميذ إلى أستاذه، وبلغه؛ فاستأذن للوزير أن يدخل، فأذن له وأعطاه ورقة يلقيها على الأفعى لتكف عن إخراج النار من فمها حتى يدخل الوزير وعياره. ورجع إليه، وألقى الورقة على الأرض، فامتنعت النار ودخلا، ثم عادت إلى إخراج النار من فمها كعادتها، وسار بهما التلميذ في روضة القصر بين أشجار ملتفة الأغصان، وأرض مخضرة الجوانب، ومياه جارية تحكي ذائب الفضة حتى دخلا على الساحر في حجرته.

جلس الوزير إلى الساحر بعد أن قبل يده، وشكا له ما نزل بالملك والجيش من الضيم والهزيمة، ورجا منه المعونة بسحره، فقال: اختر الطريقة التي أفني بها أعداءكم، أو اطردهم بها من بلادكم.

فقال الوزير: إن بجيش الفرس أمراء وقوادًا، إن خلا منهم أكلته سيوف فرساننا، وذلك ما نحبه ونختاره حتى يكون النصر منسوبًا إلى سيوفنا وفرساننا، فتكون لنا عند الملوك هيبتنا واحترامنا، وإن كان الفضل في النصر راجعًا إليك.

فقال الساحر: اكتب أسماءهم.

فكتب له الوزير أسماء الأمراء والقواد الذين في القتال، والذين إن خلا الجيش منهم لم يكن شيئًا مذكورًا، واستطاعوا أن يهزموه.

كتب الساحر اسم كل أمير في ورقة وسحرها، وقال له: إذا بدأ القتال فألق هذه الأوراق على جيش الأعداء، وستجدون بعد ذلك أن الفرسان تطير في الهواء، وتأتيني في قصري هذا، وسأعذبهم العذاب الأليم حتى ينتهي القتال، وتأتوا لتشهدوا مصرعهم وفناءهم. ثم قال: وخذ هذا الخاتم فإنه يبطل السحر، فإذا عرض لكم أمر لم يكن في الحسبان فائتني على عجل، وإذا أريته الأفعى بطل سحرها، ودخلت من غير استئذان.

فشكر له الوزير فضله، وأخذ الأوراق والخاتم ورجع إلى مليكه، وأعطاه الأوراق وبلغه ما حصل، وبشره بالنصر العاجل، أما الخاتم فإن الوزير حفظه مع عياره بدر فتات.

وفي الصباح بدأ القتال وبعثرت الأوراق على جند المدينة البيضاء، فوجدوا فيروز شاه وغيره من الأمراء يرتفعون في الجو ويطيرون إلى حيث يختفون. وبقي الجيش خاليًا منهم، فذاق من جند المدينة الصفراء العذاب الأوجع، وقتل منهم كثيرون. وما جاء الليل حتى أحسوا هزيمة منكرة، وأنهم على أبواب الفناء والدمار.

واجتمع ضاراب بوزيره وجعلوا يفكرون: كيف يدفعون عنهم هذا البلاء؟! وكيف يعرفون أين ذهب الأمراء والقواد الذين طاروا من بينهم

وعلى مرأى من أعينهم؟! وكيف يرجعونهم قبل أن يصيبهم شر الأعداء؟!

فقال الوزير: من الواجب أن نرجع بالجنود إلى الوراء، ونعتصم بالآكام والأدغال حتى يقيض الله لنا سبل النصر والتغلب على الأعداء ورأى الملك وجه الصواب في رأيه، فأمر الجند بالرحيل والاعتصام بالآكام والأدغال التي من خلفهم، وكان الرحيل سريعًا إلى حيث يأمن الملك على الجند، ويستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم وهم سالمون.

وفي الصباح لم يجد جند المدينة الصفراء لجيش المدينة البيضاء أثرًا. فكان فرح الوليد لهذا الهرب عظيمًا، لأنه يدل على عجز وعدم قدرة، وكلف العيارين أن يبحثوا عنهم ليعرفوا مكانهم حتى يقتفوا آثارهم ويبيدوهم، فقال هلال العيار: سأعرف لكم أين رحلوا، وآتيكم بخبرهم عاجلا.

وبعد ليلة جاءهم هلال وأخبر الوليد أنهم اعتصموا بالآكام والأدغال، وجمع رجاله ليبحثوا كيف يحاربونهم في معاصمهم هذه، وأجمع رأيهم على أن يقسموا الجيش، أحدهما يحاربهم بالنهار، والآخر يحاربهم بالليل، حتى لا يتركوهم يستريحون ويعجلوا لهم الفناء.

تسلل بدر فتات من جيش الوليد، ولقى الملك ضاراب وقال له: إن القوم أجمعوا على قتالكم ليلا ونهارا، وقسموا الجيش قسمين، ليتناوبا قتالكم، أما أمراؤكم الذين طاروا من بينكم فكان ذلك من سحر المقنطر الساحر، وحكى له قصته ثم قال: وهذا خاتم من الساحر يبطل السحر ويمحو أثره. وكان الوزير قد كلفني بالمحافظة عليه عندي لأن أعماله كثيرة، ويخشى أن يضيع منه.

فقال بهروز: أعطنيه وسر معي إلى ذلك الساحر لأقتله، وأخلص أمراءنا من قبضة سحره، وإن عندنا ثلاثة أثواب للساحرة الصفراء تقي لابسها شر السحر والسحرة؛ فالبس أنت ثوبًا، والأشوب عيار مصفر شاه يلبس ثوبًا؛ وأنا ألبس ثوبًا؛ ونذهب جميعًا إلى حيث المقنطر الساحر لنقضي عليه ونبطل سحره.

وقال طارق العيار: وأنا سأكفيكم شر الأعداء، وأحمي الجيش، حتى

تفرغوا من عملكم، وتأتونا بالأمراء، لتعود إلينا قوتنا، ونسحق جيش الوليد سحقًا، وأخذ معه شياغوش وشبرلنك ومضى إلى صيوانه ليدبر المكيدة التي سيحمي بها الجيش، ويقيه شر الضر.

وكان قد عرف أن جيشًا قد جاء لمعونة الوليد، ونزل للراحة في واد متسع، قريب من الأكمات التي لاذ بها جيش المدينة البيضاء، فلبس هو وصاحباه ملابس تجار غرباء، وسار إلى أن قرب من جيش الوليد الذي أرسله ليقاتل ضاراب بالليل، فأخذ يبكي، وأمر صاحبيه أن يفعلا كما يفعل، ثم لقى قائد الجيش واشتد بكاؤهم، فسألهم عما أبكاهم فقال: إننا تجار غرباء وكانت معنا بضاعة كثيرة، فمررنا بطريقنا إلى المدينة الصفراء بجيش نزل في هذا الوادي وأشار إلى الجيش القادم - وملكه ضاراب، فنهبوا البضاعة، وخفنا منهم أن يقتلونا فجرينا إليك وأخبرناك لترجع إلينا بضاعتنا.

فنظر إلى ناحيته فبان له أشخاص وأشباح وقال: لعل جيش المدينة البيضاء اشتد به الخوف منا، وبلغه قدومنا، فترك الآكام ولجأ إلى هذا الوادي ظنًا منه أننا لا نعرف مكانه، ولكن العناية الإلهية بعثت إلينا من أخبرنا بمكانه، فلنسر إليه لنفتك به، ونرد البضاعة إلى أصحابها.

أسرع الثلاثة بهروز والأشوب وبدر فتات إلى روضة المقنطر الساحر ولما كانوا أمام بابها أخرج بدر فتات الخاتم السحري، وأشار به إلى الأفعى التي بالباب، فأمسكت عن إخراج النار من فمها، ثم دخلوا الروضة وعادت الأفعى فجعلت تخرج النار من فمها كعادتها حتى لا يدخل غريب روضة المقنطر الساحر، وأدهشهم ما رأوا في الروضة من سعة الرقعة، وكثرة الأشجار المختلفة الأنواع والأشكال، وانسياب المياه في مجاريها المتعددة، وركبوا طريقهم فيها إلى قصره وكان خارجًا منه، وقبل أن تعظم الدهشة في نفسه لاجتيازهم باب الروضة الذي تحرسه الأفعى بنارها وجدهم قد خروا جميعهم أمامه ساجدين له، ثم رفعوا رءوسهم وقال بهروز: أيها الساحر الكبير، والإمام العظيم جئناك من أقاصي الأرض، لنغترف من بحر علمك، ونكون خدمًا لك، ونعيش في كنفك، وننعم بظلال نعمتك،

ونحظى برضاك، وإنا لنشكر الشياطين الذين حملونا إليك، لنقبل الأرض بين يديك، ونكون من أبنائك.

فنظر المقنطر إليهم نظرة طويلة مملوءة بالفحص والتفكير في أمرهم، ثم أيقن من حالتهم هذه، ومن ثيابهم المنقوشة نقشًا سحريًا، ومن اجتيازهم باب الروضة الذي تحرسه الأفعى دون أن تحرقهم نارها أنهم من السحرة فقال: من أنتم؟ يبدو لي أنكم قد كملتم أدبًا وعلمًا وتربية، وأنكم على علم بالسحر وفنونه، فقال بهروز: إننا عبيدك وخدمك جئناك من أقاصي الأرض، ونحن إخوة أشقاء، وقد وكلنا أبونا إلى ساحر عظيم فعلمنا السحر، وأخذنا بأكل الحشرات وشرب العلقم، وكنت أنا أصنع الطعام والشراب لأستاذنا وتلاميذه، ولما مات حزنا عليه حزنًا أليمًا، ثم أجهش بالبكاء هو وصاحباه حزنًا على أستاذهم الساحر، ثم استمر في حديثه الذي كانت تقطعه الآهات والأنات وقال: وحينما رآنا أبونا أننا سنموت حزنًا على أستاذنا الذي علمنا السحر، قال لنا: ألا تحزنوا يا أولادي، فإن في المدينة الصفراء ملك السحر وأستاذ السحرة، وهو كريم حليم، ولا تجدون في الأرض أعظم منه، وإنه ليأتي بالمعجزات السحرية، وليس له مثيل في بقاع الأض فاذهبوا إليه وكونوا له عبيدًا، وستجدون عنده ما لم تجدوا عند أحد غيره من علم السحر، وعلو المنزلة ونباهة الشأن.

ظن المقنطر كلام بهروز صدقًا، ففرح وقال له ولصاحبيه الأشوب وبدر فتات: تعالوا إلى قصري لنأكل شيئًا من الطعام بعد سفركم هذا، وعليك أنت - مشيرًا إلى بهروز - أن تقوم بإعداد الطعام والشراب لأذوق طهيك، ثم دخل بهم إلى ساحة فسيحة من قصره قد صفت فيها الكراسي الفخمة، وتدلت من سقفها القناديل الجميلة، وفرشت أرضها بالبسط الحريرية الفاخرة، وأحضر تلاميذه وجلسوا جميعًا معه، أما بهروز فإن المقنطر دله على المكان الذي يعد فيه الطعام والشراب، فأسرع وجهز شرابًا وضع فيه بنجًا، ثم جاءهم به وناول كلا منهم كأسه، وجعل كأسي صاحبيه فارغين من البنج، وما انتهى المقنطر وتلاميذه من شرب أقداحهم حتى وقعوا في غشية

كأنها الموت، فتركهم صرعى البنج، وجعل هو وصاحباه يبحثون عن الأمراء في قصره، ودخلوا غرفة نوم المقنطر فوجدوا بلاطة فيها حلقة، فنزعوها من مكانها من أرض الغرفة وبان لهم سلم نازل في الأرض، فنزلوا فيه، وانتهى بهم إلى ساحة فسيحة، كان المقنطر قد سجن فيها الأمراء الذين اختطفهم بسحره، وما كاد الأمراء يرونهم حتى دهشوا وأسرعوا إليهم، وكانوا مقيدين فألقوا أنفسهم أمامهم، وقد اطمأنت قلوبهم في صدورهم، وعلت وجوههم نضرة الفرج والخلاص من سجنهم هذا، وأسرع بهروز وصاحباه إلى قيودهم ففكوها عنهم وخرجوا بهم من ذلك السجن سالمين، وذهب جميعهم إلى المقنطر وتلاميذه وكانوا لا يزالون غارقين في غشيتهم، فأوثقوهم بالأغلال والقيود، وطافوا بالقصر فأخذوا أسلحتهم، ثم شهروها، ووقفوا حول المقنطر وتلاميذه يرتقبون يقظتهم وخروجهم من إغمائهم.

لم تطل مدة انتظارهم. فقد انتهت مدة الغيبوبة التي كانت مقدرة للبنج وأفاق المقنطر وتلاميذه ووجدوا أنفسهم موثقين بالحبال، ووجدوا بهروز وصاحبيه وبقية الأمراء واقفين حولهم شاهرين عليهم أسلحتهم، فخافوهم وتوقعوا أن يصيبهم منهم قتل عاجل، وجعل المقنطر يتوسل إليهم، ويبدي لهم خضوعه وطاعته واستسلامه، ثم أرشدهم إلى ما كان يخفيه في زوايا قصره من المال والجواهر النفيسة والتحف الثمينة، فأحضروها جميعها وحملوها، وساقوا أمامهم المقنطر وتلاميذه وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم بالحبال، واتخذ بهروز المقنطر الساحر مطية له، فركب على ظهره وسار به حتى كانوا عند الملك ضاراب وجيشه، وكان الفرح بقدومهم عظيمًا، وتزاحم الفرسان ينظرون أمراءهم، وينظرون المقنطر الساحر وتلاميذه، وأخذ بهروز يقص عليهم ما فعله، والفرسان معجبون به وبصاحبيه، ثم تقدم فيروز شاه إلى المقنطر الساحر وضربه بسيفه على رأسه فشقه نصفين، وسقط على الأرض قتيلا كأنه جذع مشقوق. وأقبل الفرسان على تلاميذه فقطعوهم بسيوفهم، وبذلك انتهت تلك المحنة، وبطل ما دبره الأعداء لهم من الاستعانة بهذا الساحر العظيم.

بهروز يركب المقنطر الساحر، وزميلاه يسوقون تلاميذ الساحر وأتباعه مكتفين بالحبال

وذهب خفية إلى الجيش القادم وقال لقواده: إن جيش المدينة البيضاء قادم إليكم، وإنه عازم على أن يهجم عليكم وأنتم نيام، فخذوا حذركم، واستعدوا للقائه حتى تبيدوه.

وسار جيش الوليد حتى التقى بالجيش القادم لمعونته، ونشب القتال بينهما في الظلام واستمر جميع الليل، ولما ظهر ضوء الصباح انكشف الأمر، وعرف كل منهما أنهما وقعا في مكيدة عيار من المدينة البيضاء كانت نتيجتها قتل الألوف من الجيشين، ثم اتفقا على أن يمضيا إلى المدينة، ويخبرا الوليد بما حصل.

أما طارق وصاحباه فقد رجعا إلى ضاراب، وأخبروه بما فعلوه، و بما وقع للجيشين، ففرح، واستعد للقاء جيش النهار في ثبات وعزم وجرأة.

وصل جيش النهار واستعد للقتال، وإذا جيش مقبل يجاوز عدده مائة ألف، فظن كل من الجيشين أنه مدد جاءه، وانتظر حتى كان بينهما، وكان قائده ملثمًا لم يظهر من وجهه إلا عيناه، فابتدر ورمى قائد جيش الوليد بنبل فأرداه وأماته. ثم أمر الجيش أن يهجم عليه، فانهالوا كالجراد يتخطفونه، وأدرك جند ضاراب أنه جاء لنجدتهم، فانضموا إليه، وأوقعوا بالجيش الفتك والدمار حتى هرب وانهزم خائبًا مدحورًا.

وعلم الوليد بما حل بجنوده فحزن حزنًا أليمًا، وأظلمت الدنيا في وجهه، وزاده حسرة وغمًا أن جند ضاراب رجعوا إلى مكانهم الأول الذي تركوه مهزومين، وسمع ضجة فيه ومظاهر فرح وبهجة، فأرسل أحد عياريه ليعرف ماذا جرى، فذهب العيار إليهم وعرف السبب في فرحهم، ورجع إلى الوليد فقال له: إن الأمراء الذين طاروا بالسحر إلى المقنطر الساحر قد رجعوا جميعًا سالمين، وإن المقنطر الساحر جيء به أسيرًا ذليلًا، وقد قتل هو وتلاميذه، وهذا سبب فرحهم. وأما الجيش الذي أعانهم في القتال فهو جيش من المدينة الخضراء أرسله إليهم الملك سليم، بقيادة ابنته أنوش، وهي فارسة لا يشق لها غبار، وهي التي قتلت قائد جيش النهار.

كاد الوليد يجن، ونقم من ابنه صالح تشبثه بعين الحياة، وأنه كان سببًا في

هذه المصائب التي نزلت برجاله، فكتب إلى ابنته طوران بذلك وأخبرها أن تشبث أخيها بعين الحياة كان السبب في ضياع الملك وهلاك العباد، وكان هذا الكتاب بردًا وسلامًا على طوران وصديقتها عين الحياة. وأمر الملك أن تنقل الخيام والمؤن إلى المدينة استعدادًا لهرب الجنود فيها إذا ما نشب القتال في الصباح وحقت عليهم الهزيمة. وأعلن كل حاكم جاء لمعونته في جنده أنهم يتركون القتال، ويرجعون إلى بلادهم إذا ما لاحت لهم بوادر الهزيمة، وحذرهم من الثبات واستمرار القتال وقاية لأنفسهم من هلاك محتوم.

بدأ القتال، ورأوا السيوف تتخطف أرواحهم، وتمزق أجسامهم وجموعهم، ففروا من الميدان سراعًا، وهرب جيش المدينة الصفراء وأتباع الملك سرور إلى داخل المدينة، وبعثر الحلفاء في الخلاء، لائذين بالهرب إلى أوطانهم، وهكذا أصيب الوليد بالهزيمة التي لم تنشأ عن ضعف في جيشه، أو خلل في صفوفه، أو وهن في قيادته؛ وإنما نشأت عن خيانة الجواسيس والعيارين الذين باعوا بلدهم بالمال ورضوا لها الهزيمة بعد أن تحقق لهم نفع شخصي؛ وهكذا نرى أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة – آفة الأمم، وسر تدهورها وتأخرها، والعامل الأول في هزيمتها.

❊❊❊

﴿ ٤ ﴾

انتعشت نفس ضاراب بهذا النصر العظيم، الذي هيأه له الخونة من الجواسيس والعيارين، ولكن ساءه أن خورشيد ابن عمه أسره جيش مدينة تابعة للمدينة الصفراء، ومضى به إليها مهزوما؛ وهناك استشار حاكم تلك المدينة أعوانه فيما يفعله بهذا الأسير الذي فتك بكثير من جنوده؛ فقال وزيره الأول: إن أردت أن تجنب البلاد الضر فدعه يرجع إلى جيشه ومليكه، وإن أنت مددت يدك إليه بسوء أوقعت البلاد في نكبة لا مخلص لها منها، فقد رأيت أنه لا طاقة لنا بجنود ضاراب، وليس بيننا وبينهم عداوة، ومن الخطأ أن ننتقم من فارس يجر على البلاد الخراب والدمار.

فقال الحاكم: حينئذ أحبسه في قصري، وأرجيء البت في مصيره إلى وقت آخر.

فقال الوزير: على شرط أن يكون مكرمًا، فلا يعامل معاملة الأسرى، ولا يمس يديه أو رجليه غل أو قيد.

فسلمه الملك إلى أحد الحراس وقال له: ضعه في غرفة من قصري وقم على حراسته.

كانت كومندان بنت حاكم تلك المدينة قد سمعت بشجاعة خورشيد وبطولته، وكانت عاقلة حازمة، كريمة الخلق، بريئة الدّخلة، طاهرة نقية عفيفة، فأحبته وأخفت حبها له في قلبها!

رأت كومندان الأمير خورشيد والحارس سائر به إلى غرفته، فوجدت شكله يؤيد ما سمعت عنه من صفات النبل والبطولة، فقوي ميلها إليه، ورغبت أن تلقاه لتتحدث إليه، ويتحدث إليها، ولتطارحه أحاديث البطولة حتى تصبح على يقين من فهمه ومعرفته، وحتى لا يخيب اختيارها إياه. فأسرت إلى خادمتها بما في نفسها وكلفتها أن تجمع بينهما فقالت: ذلك أمر

يسير يا سيدتي، لأن الحارس طوع أمرك.

وذهبت الخادمة إلى الحارس وقالت: إن سيدتي تأمرك أن تأتيها بالأسير الذي هو من المدينة البيضاء لتسأله عن بلاده وأحوالها، ليكون لها إلمام بالشعوب وحكوماتها، على أن يكون ذلك سرًا، وإذا ظهر وبان فهي حاميتك من أبيها، وقد أفهمتني ذلك.

فقال الحارس: ما كنت أستطيع الإقدام على ذلك لولا أنها بنت سيدي وكفلتني بحمايتها؛ ثم وعدها أن يجيء به إليها في منتصف الليل.

فرجعت الخادمة وأخبرت سيدتها بما قال الحارس.

وفي الموعد المضروب جاء الحارس به، ودخل خورشيد غرفة كومندان، وجلست إليه تحدثه في شئون مختلفة؛ فأعجبه فصاحة لسانها، وسلامة تفكيرها، وجمال ذوقها وما لحظه فيها من خلق كريم، وأحس من نفسه ميلًا إليها، وإن كان على وعد من النعمان أن يزوجه ابنته تاج الملوك، ولما جاء الفجر رجع إلى غرفته وسلم نفسه إلى النوم لأنه قضى ليلته سهران متيقظا.

أما ضاراب فإنه أرسل كرمان شاه في مائة ألف فارس إلى تلك المدينة التابعة للمدينة الصفراء ليأتيه بالأمير خورشيد، فأخذ معه بدر فتات العيار الخائن الذي باع بلاده ليدله على الطريق، لأنه من أهل تلك البلاد وخبير بها وبسبلها، فلما نزل بجيشه على مقربة من المدينة بعث بدر فتات العيار إلى حاكمها بكتاب، خيره فيه بين السلام إن أعطاه خورشيد ابن عم الملك ضاراب، والحرب المدمرة إن أبى وامتنع.

فأجاب حاكم تلك المدينة: لن أعطيه طلبه وليفعل ما يشاء.

رجع بدر فتات إلى كرمان شاه وبلغه ما سمعه، فقال: وما جئت إلا للحرب وسأخلص خورشيد برغم أنفه، فقال بدرفتات: انتظر الليلة حتى أتسلل إلى المدينة خفية، وأعرف مكان خورشيد وحالته، فإني أخشى أن يغضب حاكم المدينة ويعجل له بالشر قبل أن نفتح المدينة وندركه.

فقال كرمان شاه: لا بأس في ذلك، وهذه الليلة تتبعها ليلة أخرى، وكل آت قريب.

تنكر بدر فتات، ودخل المدينة نهارًا على أنه واحد من أهلها، لم ينكشف أمره فهو من أهل تلك البلاد في لبسه وفي لونه وفي كلامه، ولا يعرف أحد أنه خائن لبلاده، وأنه مصيدة في يد الأعداء يصيدون بها ما يشاءون من بلاد وأرواح. دخل المدينة بسهولة، ولبث يتنقل فيها متنسمًا أخبار خورشيد حتى عرف من الحديث في المجالس أن الملك حبسه في غرفة من قصره حبسًا كريمًا. فانتظر حتى أظلم الليل، وهجع الناس، واحتال على واحد من خدم القصر، واستعار منه ملابسه، ولبسها ودخل القصر في شكل خادم من خدمه، ثم سرق الخطا ومشى فيه على أطراف أصابعه حتى سمع صوت خورشيد في غرفة كومندان؛ فوقف ببابها قليلًا حتى عرف أنهما يتجاذبان أطراف الحديث في شئون مختلفة سامية الغرض نبيلة الغاية، ثم طرق الباب وفتحه وفجأهما بدخوله، وأسرع فأزال دهشتهما بقوله: لا خوف عليكما، فأنا بدر فتات العيار.

فعرفه خورشيد، وسلم عليه وأجلسه؛ وأدرك أنه آت في ذلك الوقت ليسرقه.

ثم حكى له بدر فتات ما كان من حزن ضاراب على فراقه وأسره، وأنه أرسل كرمان في جيش عدته مائة ألف، وحكى له بقية القضية إلى أن جلس معهما في تلك الغرفة، ثم طلب إليه أن يخرج معه إلى كرمان شاه في جيشه.

فقالت كومندان: لن أرضى بفراقه، ولن أدع الأخ الكريم والصيد الثمين الذي اخترته يفلت من يدي وإن قتلت وأكلتني سيوف جيشكم.

فقال بدر فتات: كأنك تريدين لأبيك القتل ولمدينته الخراب.

فقالت كومندان: سأحمي أبي ومدينته، وسأمكنكم من دخول المدينة من غير أن تريقوا قطرة من دم؛ وذلك أني سأركب بعد ليلتين في جماعة من الفرسان، وأمضي إلى باب المدينة، وآمر الحرس بفتحه لأني ذاهبة إلى التجسس ومعرفة أشياء عن جيشكم، ويكون كرمان شاه مستعدًا لدخول المدينة بجنده، فإذا ما فتح الباب اقتحمه الجنود، وقتلوا الحرس، ودخلوا المدينة، واستولوا عليها والناس نيام؛ وإن اعترض سبيلكم أحد فاقتلوه.

فشكر لها بدر فتات حسن معونتها، وانطلق راجعًا إلى جيشه، وبات في خيمته.

وفي الصباح مضى إلى كرمان شاه، وبلغه الحديث على سرده، فوافق وأخذ يعد جيشه لدخول المدينة في الموعد المضروب. وكان أن تم فتح المدينة، غير أن امتناع أبيها عن إلقاء سلاحه كان سببًا في قتله، وفي الصباح جلس كرمان شاه على عرشها، وجاءه الوزراء والأعوان والقواد يعلنون طاعتهم وعظيم ولائهم لضاراب ملك المدينة البيضاء، فقال لهم: ما أردت أن أكون ملكًا على مدينتكم، ولكني باسم ضاراب ملك المدينة البيضاء وليت عليكم وزيركم هذا الذي سمعت عن ذكائه وحزمه وعقله الشيء الكثير، ولو أن ملككم أطاعه وأنفذ رأيه لسلم وسلم له ملكه ومدينته.

فقالوا: سمعًا وطاعة.

وجلس الوزير واليًا، ورفعت راية المدينة البيضاء على المدينة خفاقة تعلن استيلاء ضاراب عليها، وإقامة وزيرها ملكًا.

❊❊❊

﴿ ٥ ﴾

وهكذا دبر العيار بدر فتات لجيش ضاراب، وهكذا يسر لهم دخول المدينة. وأدهى من ذلك أن بنت الحاكم تبيع حياة أبيها وسلطانه ومدينته وجيشه وكل شيء في الدنيا لترضي نفسها، ولترضي قلبها، لذلك كانت خيانتها أمرّ من خيانة العيار وأقسى. ومن الجائز أنه لولا هذه الخيانة لاستعصت المدينة على قواد ضاراب وجيوشه.

ودخل خورشيد غرفة من قصر الملك بعد موته تطل على البحر فرأى على بعد قطعة من دخان كالسحاب جاثمة على المياه ينبعث من خلالها ضوء ضئيل كأنه ضوء الشموع، فسأل كومندان قائلا: ما لي أرى دخانًا يتخلله ضوء في البحر ولا أرى من تحته أرضًا لجزيرة، فسكتت قليلًا وهي حائرة مضطربة تحاول إخفاء حيرتها واضطرابها ثم قالت: دعك من شيء لا أعرفه ولا يعرفه أحد.

وأدرك اضطرابها فقال: لعلك تريدين إخفاءه عني، وسأذهب أنا نفسي إلى هذه الناحية، ولا أكرهك على قول ما لا تريدين.

فقالت كومندان: ما أخفيت عنك شيئًا أعلمه ولكني سمعت ما لا يعنينا، ولا غناء لنا فيه.

فقال خورشيد: قد يكون هذا رأيك فيه، ولكن غيرك يرى ما لا ترين؛ فماذا سمعت؟

فقالت كومندان: سمعت أنها جزيرة يغطيها سحب من دخان كثيف، من فعل السحرة الأولين، ليحفظوا به كنزًا ثمينًا خبأوه في تلك الجزيرة، حتى لا تمتد إليه يد الطامعين، وقد طمع فيه كثير من الناس على اختلاف أجيالهم، فذهبوا إلى تلك الجزيرة ولم يرجعوا، وأرسل إليها أبي المحكوم عليهم بالإعدام فلم يرجعوا ولم نعرف عنهم خبرًا، فكانت مخافة للناس لا

يجسر أحد على الدنو منها. وذلك ما علمته فهل لك فيه نفع أو حاجة؟

فقال خورشيد: حاجتي أن أذهب إليها وآتيكم منها بالنبأ اليقين.

ففزعت كومندان وقالت: تلك تهلكة، ولا ينبغي لعاقل أن يدنو منها، وهو عالم بها، وإلا كان مثله مثل من تناول السم القاتل للتجربة.

فقال خورشيد: إنها تهلكة للجبان العاجز، وسترين ما يكون.

فقالت كومندان: إنك غير واجد من الملاحين من يوصلك لها.

فقال خورشيد: سأغريهم بالمال الكثير..

وأمر المنادي ينادي في المدينة: إن ابن عم الملك ضاراب يريد أن يذهب إلى الجزيرة المسحورة، وجعل لمن يوصله لها من الملاحين ألف دينار.

وقضى المنادي نهاره طائفًا مناديًا فلم يقبل عليه أحد، فأمره خورشيد أن يرفع الأجرة إلى خمسة آلاف دينار، وسمعه أربعة من الملاحين عضهم الفقر بنابه، ويئسوا من الحياة في صحبته، فقال بعضهم لبعض: إن حياتنا مع هذا الفقر موت، ولسنا بأحسن من الأمير، ولا أشد منه رغبة في الحياة وحرصًا عليها، فلنصحبه إلى الجزيرة، وإن عاش عشنا معه، وإن مات متنا معه وتركنا لأولادنا خمسة آلاف دينار يعيشون منها.

وأقبل الملاحون على المنادي وقالوا: رضينا بصحبة الأمير في زورقنا إلى الجزيرة المسحورة. فأخذهم المنادي إلى الأمير وقال: هؤلاء الملاحون الأربعة رضوا أن يحملوك في زورقهم، ويصحبوك إلى الجزيرة المسحورة، فناولهم الأمير خمسة آلاف دينار، وقال لهم: موعدنا في السفر إليها صباح الغد. فأخذوا المال واقتسموه ورجعوا إلى منازلهم فرحين، ولما علم أولادهم ونساؤهم حزنوا، وحاولوا أن يمنعوهم فما استطاعوا.

وفي الصباح جاءوه في قصره، وحملهم من المئونة ما يكفيهم شهرًا، ومضوا إلى شاطئ البحر وركبوا في الزورق.

سار الزورق يتهادي فوق صدر البحر الهادئ الساكن ولا ندري هل أحس البحر أنه يحمل خمسة أنفس إلى الموت فخيم عليه الوجوم، وأسكنته رهبة الموت، وقبض أيدي الأمواج عن الحركة، فلا تمتد إلى الزورق بدفع أو

غيره حتى يكون بريئًا من ذنب هذه الأنفس التي قد يكون مصيرها الفناء، أو أنه أغراهم بسكونه إلى المضي قدمًا إلى الجزيرة لأنهم سيكونون سببًا لإزالة هذا الكابوس الجاثم فوق صدر الجزيرة، وكان مقبرة لكثير من الرجال في الأجيال المتعاقبة؟!

ولما ابتلعهم الدخان وجدوا أنفسهم في ظلام حالك، إذا أخرج أحدهم يده لم يكد يراها، واستمر الزورق سائرًا حتى ارتطم في شاطئ الجزيرة، فنزلوا إليه، ولم يريدوا أن يبرحوا مكانهم حتى لا يبتعدوا عن الزورق وفيه زادهم فيهلكهم الجوع، وارتقبوا فرجًا من الله في تلك المدة التي يحتملها ما معهم من المئونة.

أما كرمان شاه وكومندان وغيرهما من أهل المدينة فكانوا في حزن أليم، وسألهم كرمان شاه: أليس عندكم شيء من الكتب القديمة عن هذه الجزيرة، وما وقع لها في الأزمان الغابرة؟

فقالوا: في خزانة الملك كتب قديمة تحوي حديثًا عن هذه الجزيرة والسحرة وأعمالهم، ولكنها بلغة لا نعرف قراءتها.

فقال كرمان شاه لكبير الوزراء الذي ولاه الملك: هاتها من الخزانة، وعندي من يقرؤها، سأرسلها إلى وزير الملك ضاراب الحكيم طيطلوس، فإنه يعرف لغات عدة، وله إلمام بعلوم الحكمة والتنجيم.

فجاءه بها الوزير، وبعث بها كرمان شاه مع بدر فتات العيار، ووصاه أن يقص على طيطلوس نبأ الجزيرة وأن خورشيد ذهب إليها ولم يعد وقد حاولنا صرفه عن المضي إليها فأبى.

ذهب بدر فتات في سرعة الريح إلى الملك ضاراب ووزيره طيطلوس، وناوله الكتب، وبلغه كل شيء عن امتلاك المدينة، وقتل ملكها، وعن الجزيرة وخورشيد وكومندان.

أخذ طيطلوس يقرأ في الكتب أكثر من ساعة، ثم رفع رأسه وهو يبتسم وقال: حمدًا لله على رعايته، فقد تبين لي من هذه الكتب أن هذا الكنز لا يناله إلا فيروز شاه ابن الملك ضاراب ملك المدينة البيضاء، وأن هذه الجزيرة لا يبطل

خورشيد والملاحون الأربعة في الزورق وسط الدخان الكثيف

سحرها إلا فيروز شاه، وقد عرفت من الكتب أن هذه المدينة بنيت في عهد سيف بن ذي يزن، وقد دانت له الأقطار، وملأ بالجواهر والأموال خزانته؛ ولما مات أجمع السحرة على أن يحفظوا هذه الأموال والجواهر في تلك الجزيرة، وأقاموا على حراستها ماردًا من الجن، إلى أن يأتي الموعود بها، وهو فيروز شاه.

ثم قال: وقد بين الكتاب الطريقة التي يسير عليها فيروز شاه ليبطل السحر، ويستولي على الكنز.

وفرح الملك ومن معه وشكروا الله شكرًا جزيلًا.

ركب طيطلوس وفيروز شاه وصحبهما بدر فتات وبهروز، ومضوا إلى تلك المدينة التابعة للمدينة الصفراء، ودخلوها في استقبال رائع وحفاوة بالغة، وباتوا ليلتهم في قصر كومندان.

وفي الصباح كانوا في ديوان الملك، وكان حافلًا بالوزراء والأعيان. وقال لهم طيطلوس: إن الكتب تقول: لا يفتح الجزيرة المسحورة، ولا يبطل سحرها، ولا يأخذ كنزها، إلا فيروز شاه. فتعالوا معنا إلى الجزيرة لتشهدوا أعمال فيروز العجيبة.

ثم قال لهم: هيا بنا إلى قلعة خربة في هذه المدينة اسمها قلعة نصر.

فقالوا: إنها قلعة خربة يسكنها الجان، ولا يجسر أحد على الدنو منها.

فقال لهم طيطلوس: أعرف ذلك من الكتب، فهيا بنا إليها.

ذهبوا جميعًا إلى القلعة فوجدوها كأنها قطعة من جبل لا نافذة فيها، فأمر فيروز شاه بالبنائين والعمال أن يفتحوا نافذة في جدارها، ففعلوا ودخل طيطلوس وفيروز وأناس كثيرون، فوجدوا فناء واسعًا، وأرضه مبلطة بالبلاط الأبيض، وفي وسطه بلاطة حمراء كبيرة؛ وفي ذلك الفناء قبة كبيرة، يرفرف عليها بأجنحته طائر ضخم شبيه بالنسر، وله صوت يشبه نعيب الغراب.

فتح طيطلوس الكتاب وقرأ فيه قليلًا ثم أغلقه وقال لفيروز: قف عند البلاطة الحمراء، واذكر اسمك ونسبك ثلاث مرات، ثم قل: أنا الموعود

بالكنز، فاخرجوا أيها المردة، فقد عزمت على رفع البلاطة وإخراج القوس والسهم.

ففعل فيروز ما طلبه منه طيطلوس. ولم يكد يذكر اسمه ونسبه ثلاث مرات حتى سمع دويًا هائلًا، وقعقعة أسلحة أفزعت الحاضرين، وبعد قليل سكت الدوي والقعقعة، وخيم الهدوء والسكون وكان فيروز شاه يبتسم ابتسامة تنم عن ثبات ورباطة جأش.

وأمر طيطلوس العمال أن يرفعوا البلاطة الحمراء فرفعوها، ووجدوا تحتها صندوقًا مقفلًا من الحديد ففتحوه، وأخرج منه فيروز شاه قوسًا وسهمًا، فأخذهما، وقال له طيطلوس: سر ثلاث خطوات، ثم اذكر اسمك ونسبك، وضع السهم في القوس، وأطلق السهم على هذا الطائر، فإذا وقع على الأرض فأقبل إليه، وشق جوفه، تجد مفاتيح الكنز فانزعها منه.

فعل فيروز شاه ما أمره به طيطلوس، ووقع الطائر، وشقه طيطلوس وأخرج من جوفه علبة ذهبية صغيرة، ففتحها وأخرج مفتاح الكنز منها ووضعها في يد فيروز شاه.

ثم قرأ طيطلوس في الكتاب، وأمر العمال أن تحفر بجوار قبر هناك، فجعلوا يحفرون حتى بان لهم السيف المرصود فأخرجه، وقال: ذلك السيف الذي تقتل به المارد الأكبر. فأخذه فيروز وحمله، ثم رجعوا إلى قصر كومندان فأكلوا وشربوا واستراحوا قليلا، ثم نهضوا إلى الجزيرة المسحورة.

ركب فيروز ومن معه زورقه، وركب أناس كثيرون زوارقهم، وجروا إلى الجزيرة المسحورة، وكان فيروز يتقدمهم بزورقه، وبينما هم سائرون خرج من البحر مارد طويل ضخم مخيف أمام زورق فيروز، وصاح قائلًا: ويل لك يا فيروز!! قد جئت تبغي قتلي.

ثم مد يده إليه يريد اختطافه فضربه بالسيف المرصود وقطعها، فغاص في الماء صارخًا؛ ثم خرج منه، ومد إليه يده الأخرى، فضربه وقطعها، فغطس في الماء قليلًا، ثم خرج يريد أن يهجم عليه بجسمه ليقتله، ولكن فيروز بقر بطنه، فهوى في البحر وغاص فيه مقتولًا ولم يعد. وانقشع على إثر ذلك

الضباب، وبانت الجزيرة واضحة لا غبار عليها، فصاحوا فرحين، ورفعوا أصواتهم بالدعاء للملك ضاراب وابنه فيروز شاه و فرح خورشيد ورفقاؤه حين رأوا ضوء الشمس، وانكشفت لهم الجزيرة، وسمعوا نداء فيروز شاه، فعرفه خورشيد ففرح فرحًا عظيمًا، وانتظر قدومه ومن معه، حتى التقوا على شاطئ الجزيرة لقاء سعيدًا، وهنأوه بسلامته وسلامة رفقائه الملاحين. وحكى له طيطلوس ما فعله فيروز شاه حتى بطل السحر وانكشف الدخان عن الجزيرة، ورأوا في وسطها قصرًا عظيمًا أقيم على تسعين عمودًا من الرخام، تعلوه قبة من المرمر المنقوش، وحول القصر سلم من النحاس الأصفر.

كان يسكن تلك القبة بنتان من بنات الجان، إحداهما المرهفة وهي الكبرى، والأخرى جهان إفروز وهي الصغرى، وكانت من أجمل بنات الجان، ولما سمعنا صوت المارد الذي قتله فيروز شاه قالت جهان الصغرى: ما هذا يا أختي؟!! أسمع صوت مارد عظيم، وأرى البحر مملوءًا بالزوارق الغاصة بالناس.

فقالت المرهفة: هذا صوت المارد الذي وكل إليه حماية هذه الجزيرة، وإن صح ما كنت أسمعه من أبي يكن هذا المارد في قتال مع فارس من الإنس اسمه فيروز شاه بن الملك ضاراب.

فقالت جهان: ولأي شيء يقتتلان؟

فقالت المرهفة: بالجزيرة كنز يحرسه هذا المارد، وقالت الحكماء إن الموعود بهذا الكنز فيروز شاه، وإنه سيقتل المارد ويأخذ الكنز.

فقالت جهان: وكيف وصل هذا الفارس الإنسي إلى هذه الجزيرة؟!

فقالت المرهفة: سمعت من العفاريت الذين كان المقنطر الساحر يستخدمهم أن فيروز شاه أحب عين الحياة بنت الملك سرور، وقد لقى في سبيلها كل عناء ونصب، وركب أهوالًا وأخطارًا، لا يقدر على ركوبها فارس غيره، وكان ينجو منها فائزًا منصورًا، وهرب الملك سرور بابنته إلى المدينة الصفراء عند ملكها الوليد، فجاءه فيروز وحارب الوليد وانتصر عليه، وهو

الآن يقاتل المارد، وبعد قليل سيقتله وينكشف الدخان عن الجزيرة، وتعمر بالناس القادمين معه.

ولبثتا تنتظران حتى تحقق هذا كله فقالت جهان إفروز: أريني يا أختي فيروز شاه من بين هؤلاء الناس.

فقالت المرهفة: هو ذلك الرجل الذي يقدم الناس، ويشرق جبينه وضاءة ونضرة، وسيأخذ الكنز من هذا القصر ويرجع من حيث جاء.

فقالت جهان إفروز: إنه جميل يا أختي، وهل تعرفين أن عين الحياة التي أحبها جميلة مثله؟ وهل تحبه كما يحبها؟

فقالت المرهفة: هما متماثلان في الجمال والحب.

فقالت جهان إفروز: لقد أحببته، ووقع في قلبي موقعًا جميلًا، فساعدي أختك ويسري لها لقاءه، فقالت المرهفة: اطمئني واصبري، فسأجمعك به، وأزوجك منه قبل أن يتزوج من عين الحياة، وأنت تعلمين أني لا أقول شيئًا إلا أمضيته، ثم قالت: هيا لنبرح من هذه القبة، فليس من اللائق أن أيسر لك لقاءه الآن في هذا الجمع الحاشد من الناس.

ثم أخذتا ما لهما في القبة وأخفتاه في مكان بعيد، ثم طارتا وذهبتا إلى موطنهما.

دخل فيروز شاه ورجاله القصر، وطافوا في جنباته، ووجدوا القبة خالية، ولكنها نظيفة فظنوا أنه يسكنها جماعة من الجن، وهي التي كان ينبعث منها الضوء والجزيرة مظللة بسحب من الدخان. ووجدوا في أرض القصر قبرًا من الحجر، فأمر طيطلوس بهدمه، فلما هدموه وجدوا فيه سلمًا حجريًا نازلًا في الأرض، فأمر فيروز أن ينزل فيه أمامه، فنزل ونزل من خلفه طيطلوس وبهروز وبدر فتات، وانتهى بهم السلم إلى دهليز فسيح، فمشوا فيه حتى كانوا أمام مغارة واسعة في الأرض، فدخلوها على ضوء الشموع، ورأوا بابًا من النحاس الأصفر به قفل من الحديد، فقال طيطلوس: هذا باب الكنز، فأخرج المفتاح الذي جئنا به من جوف الطائر وافتح القفل.

فتح فيروز القفل، ثم فتحوا الباب، فرأوا أكداسًا من الذهب والجواهر

لا توجد في خزائن ملوك الدنيا، فقال طيطلوس: هيا احملوا هذه الأموال والجواهر لنرجع بها إلى الملك ضاراب، وإذ ذاك يفتخر بها على ملوك الأرض.

ثم بدءوا في نقلها، فنقلوها إلى قصر كومندان وباتوا فيه ليلة، ثم رحلوا إلى الملك ضاراب، ووعدوا كومندان أن يأخذوها إلى المدينة الصفراء بعد فتحها، لتتم حفلات الزفاف لفيروز وغيره من الفرسان، ويكون الفرح شاملًا.

وكان كرمان شاه قد أحب كومندان وقال في نفسه: إن ابن عمي خورشيد لن يتزوج منها لأنه على عهد بينه وبين تاج الملوك بنت النعمان، فإذا تركها تزوجتُ منها، ولا أكون بذلك قد نافسته فيها وأخذتها منه؛ وأضمر كل هذا في نفسه ولم يبده لأحد.

كان قدومهم على الملك ضاراب مشرق الفرح والهناءة، ولما علم من طيطلوس الوزير كل شيء، ورأوا الأموال والجواهر في صناديقها، زاط الجيش زياط الطير في الأعشاش وقت الربيع، وقال الملك: احفظوا هذه الأموال والجواهر حتى نفتح المدينة الصفراء ونعود بها، لننفق منها عن سعة في حفلات النصر، وفي حفلات الزواج. ونصلح بها شئون الناس، ونكشف عنهم بؤسهم، ونبسط لهم رزقهم.

وأرسل الوليد هلالا العيار إلى جيش ضاراب ليعرف سبب هذا الزياط والفرح، فذهب ورجع حاملًا تلك الأنباء؛ فقال الوليد: ضاع ملكناوذهبت ريحنا، وقُضي علينا. وما فيروز شاه إلا رجل موفق في حياته، ولن يغلبه أحد.

ولكن طيفور وزير الوليد ومستشاره الأول - لم يفارقه حقده وجبنه فقال: ما أظن هذه الأنباء صادقة، وما هي إلا افتراء وكذب أراد الأعداء أن يشيعوه لتقوي شوكتهم ويضعفوا شأننا.

فقال الملك سرور: ما زلت ترمينا بسفه رأيك، وتظن أنك مفكر مدبر، تأتينا بالآراء السديدة، التي ما جنينا منها إلا الخراب والدمار، وضياع الملك، وفراق الأوطان.

وكان معه وزيره الثاني «إليان» فقال: لو استمعت لنصحي ما وقعنا في هذه الحالة السيئة.

ثم حملوا أكدارهم وأحزانهم، وذهبوا إلى مضاجعهم أما عين الحياة وصديقتها طوران فقد كادت الدنيا لا تسعهما من الفرح والسرور.

كان الوليد وجنوده في المدينة وهي مغلقة الأبواب، وأسوارها عالية حصينة، فجرى بين الفريقين قتال بالنبال، قتل فيه كثير من الفريقين، وقتل ميمون السوداني، وحزن فيروز عليه حزنًا أليمًا، ووجد ضاراب أن الحرب على هذه الحال غير مجدية، وضررها أكثر من نفعها؛ فجلس هو وأصحابه يتشاورون فيما يفعلون لفتح المدينة، وبينما هم يتحدثون جاءهم فارس من الجيش ومعه كرة نحاسية في حجم البيضة، وهي مغلقة ولا أثر فيها وقال: هذه الكرة ألقيت من سور المدينة إلقاء هينًا، وكأن راميها لا يقصد أن يؤذي بها أحدًا، فجئت بها إليكم.

فأخذوا ينظرون فيها، ويقلبونها، وهي تنتقل من يد إلى يد، وهم لا يهتدون إلى سرها، أو الغرض من إلقائها، إلى أن قال بهروز: إن صدق ظني فلن تكون هذه الكرة إلا حاملة في جوفها رسالة من أحد في المدينة، ثم عالج فتحها حتى انشقت في يده نصفين، فظهر منها ورقة مكتوبة، فأخذ يقرأ فيها:

– من عبدكم إليان وزير الملك سرور، إلى مولاي الملك ضاراب، وسيدي فيروز شاه.

إن للوليد عيارًا ماهرًا اسمه روضة، وهو يأتيكم كل ليلة، وينقل إلى الوليد أخباركم، وقد بلغه ما دار بينكم من الحديث في أمر القتال وأنكم عاجزون عن فتح المدينة، وأن حرب النبال ستفني جنودكم، ولهذا فقد استمسك الوليد بالاستمرار في إغلاق المدينة ومحاربتكم بالنبال، وإن روضة العيار هذا يأتيكم في الساعة التاسعة من مساء كل ليلة، ثم يعود الساعة العاشرة، وهو يجيئكم من طريق يعرفه، فإذا ترصده عياروكم وأمسكوه عرفتم منه مدخل المدينة الذي يأتيكم منه، وحينئذ تدخلون منه المدينة وتفتحونها؛ ولكم تحياتي.

فعجب الحاضرون من ذكاء بهروز، وذكاء الوزير إليان الذي استطاع أن يبلغ رسالته بحيث لا يعرفه إنس ولا جان. لأنه رمى بها في كرة نحاسية جهرة، كأنه يريد أن يقتل بها أحدًا من أعداء مليكه. وأمر الملك العيارين أن يقفوا لروضة بالمرصاد حتى يمسكوه ويحضروه بين يديه.

كمن شبرلنك، والأشوب، وطارق، وبدر فتات، وبهروز، وشياغوش، في مظان طريق روضة العيار، وما لبثوا غير قليل حتى رأى بهروز في ناحيته التي كمن فيها رجلًا ينساب في مشيته انسياب الأفعى في ظلام الليل الحالك، وهو قادم من جهة المدينة وقد ولى وجهه شطر المعسكر، فسار من خلفه خفية حتى انتهى إلى صيوان الملك ضاراب، ثم انقض عليه وأمسكه وقال: ويل لك يا روضة، أتظن أن عياري المدينة البيضاء في غفلة عنك، وأنت تأتي كل ليلة تنقل أخبارنا إلى ملكك الوليد؟!

فخفق قلب روضة وظن أن أمره عرف؛ ولكنه عمد إلى المكر والحيلة فقال: ومن روضة هذا الذي تعنيه؟ إني رجل من الدراويش، أنتقل من بلد إلى آخر، وما خشيت من مروري في مكانكم هذا لأني رجل فقير لا أبغي إلا ما أقتات به، وليس على من حرج إذا مررت بأي إنسان أو طرقت أي مكان.

فقال بهروز: إن كنت لا تعرفني فأنا بهروز العيار الذي لا يخفى عليه عيار، ولا تغيب عنه حيلة من حيل العيارين، فسر أمامي إلى الملك ضاراب، فهو رجل حليم عاقل، ولعله يعفو عنك، ويقرنك إلى طارق أستاذك، ويجعلك من عياريه الذين يغدق عليهم نعمه.

دخل بهروز صيوان الملك وفي يده روضة، وقال: هذا روضة الماكر الذي يأتينا كل ليلة فينقل أخبار الجيش إلى الوليد مليكه.

فقال الملك: لقد كنت أظن أنك يا روضة تنهج نهج أستاذك طارق، وزميلك بدر فتات، فتأتينا، وتعيش في ظلال وارفة من إنعامنا، وتخلص في خدمتنا!!

فقال روضة: وأين روضة يا سيدي؟! إني من عباد الله الدراويش، ولا أعرف أحدًا اسمه روضة.

فقال ضاراب: لقد اعتصمت بالإنكار الذي لا ينجيك، وعندي من يعرفك حق المعرفة.

ثم أمر أن يحضر العيارون جميعًا، فجاءوه عن بكرة أبيهم، ولما رآه طارق أستاذه قال: هذا روضة عينه، فلم يجد روضة بعد هذا مخلصًا في الاستمساك بالإنكار، وإلا كان مصيره الهلاك، وأحس من نفسه ميلًا إلى أن يقيم مع أستاذه طارق، ويخدم الملك ضاراب، ويخلص إليه؛ وأقبل على الملك فقبل يده، وعلى طارق أستاذه فقبل يده، وقال: لا أنكر فضل أستاذي طارق، وأحب الآن أن أقيم فيكم مخلصًا لكم، صادق الولاء، سليم الوفاء.

فقال الملك: وقد قبلناك يا روضة، وجعلناك من أكبر العيارين الأوفياء المخلصين؛ وما أريد منك الآن إلا أن تدلنا على طريق ندخل منه المدينة.

فقال روضة: لن تنقضي هذه الليلة حتى تكونوا قد دخلتم المدينة، وعهد الله بيني وبينكم أن أكون لكم مخلصًا وفيًا، لا أغدر ولا أخون. ثم قال: سأسير إلى المدينة ومعي ثمانون من أشدائكم، فإذا دخلناها قبضوا على الملك، وفتحوا الأبواب للجنود الذين يكونون على استعداد لدخولها، وحينئذ تمتلئ المدينة بكم، ولا يقدر أحد أن يرفع سيفًا في وجوهكم، وينتهي الأمر بامتلاك المدينة، واستيلائكم عليها.

وكذلك فعل روضة وفتحت المدينة، وما أشرق وجه النهار حتى كانت أعلام المدينة البيضاء تخفق في نواحيها، وكان قد وصى الملك ضاراب جنوده ألا يتعرضوا بالأذى لأحد من أهلها، وألا يصيبوا بسيوفهم إلا الجنود المحاربين، فكانوا لا يقتلون إلا من عارض وقاتل. وألقوا في سجن المدينة جميع الأسرى ومنهم الوليد الملك.

وأعلن الملك ضاراب أنه لا يريد شرًا بأهل المدينة، وأن يكون كل منهم آمنًا على نفسه وماله وأهله، وأن يباشر كل عمله في غير خوف ولا اضطراب، وأنه إذا اعتدى جندي من جنده على أحد منكم فلا جزاء له إلا القتل.

فانشرحت صدور أهل المدينة وتنادوا، أن اخرجوا من بيوتكم، وزاولوا أعمالكم في ظل هذا الملك العادل الرحيم، وكان أن ألقوا إليه أزمة الطاعة،

واستقامت أعمال المدينة، وزاول كل عمله، كأن حربًا لم تكن، وكأن ملكًا لم يقم على أنقاض ملك آخر.

لم يجد الملك ضاراب سرورًا ووزيره طيفور وبنته عين الحياة في المدينة وضاع البحث عنهم فيها سدى، أما سرور ووزيره فقد هربا من المدينة، وفرا إلى الملك الأكبر، وأما عين الحياة فقد عرفت أن الملك ضاراب دخل المدينة وأضحت سلطة الحكم في يده فدار بنفسها أمران: إما أن يصالح أباها ويعيده إلى ملكه وبلاده، وحينئذ تتزوج من ابنه فيروز في عزة من الملك وكرامته، وإما أن يقبض عليه أو يفر من وجهه هاربًا لاجئًا، وحينئذ تقع في يده ويزوجها من ابنه وهي في ذلة المسبيات وذلك ما تأباه نفسها ولا ترضى به. وكانت بينها وبين امرأة سيف الدولة الذي جاء من قبل الملك الأكبر لمعونة الوليد، وأسكنه قصرًا بجوار قصر ابنته طوران تخت - كان بينهما - صداقة، فعزمت على أن تذهب إليها وتلقي ما في نفسها بين يديها، وترجو منها أن تخفيها عندها، فلا يعلم بها إنسان حتى زوجها، إلى أن ينكشف الأمر وتستطيع أن تقرر مصيرها في شرف وعزة وكرامة، وقالت: إني قادرة على أن أطيق أعباء الحب ومتاعبه، ولا أطيق أن أحتمل خزي أبي، وإغفال أمره، وأن أتزوج في غير وجوده.

فقالت امرأة سيف الدولة: إن والدك السبب في هذا كله..

فقالت: إن أبي يستحق القصاص، ولكني لا أوافق عليه ولا أرضاه.

فأجابتها زوجة سيف الدولة إلى طلبها وجعلتها في مكان من قصرها لا يعلم به أحد غيرها، وقامت هي بما تحتاج إليه.

أما الملك سرور فإنه هرب من المدينة ومعه طيفور، ووزيره إليان، وهلال العيار. وجدوا في الهرب حتى بعدوا عن المدينة، فأبدي سرور ألمه خوفًا من أن تتزوج ابنته وتغفل أمره.

فقال طيفور: أعتقد ان ابنتك عاقلة حازمة بارة بأبيها وأهلها، ولن ترضى بالزواج إلا إذا رجعت إلى وطنك، وجلست على عرش ملكك، فهيا بنا إلى الملك الأكبر، فإن له ابنًا شجاعًا، وسنعرض عليه أن تزوجه من عين الحياة

على الرغم منها، على أن يرد إليك ملكك وبلادك، وأعتقد أن الملك ضاراب سيقتفي أثرنا، ويأتينا عند قيصر الروم الملك الأكبر، وإذ ذاك تكون الطامة الكبرى عليه وعلى جنده، ولا بأس عندي أن تكون عين الحياة الضحية. ولأن تخسر بنتًا خير من أن تضيع ملكًا.

عقد ضاراب مجلسًا لمحاكمة الأسرى فأحضرهم واحدًا بعد آخر وعفا عمن عفا عنه منهم، وسجن من سجن.

أما سيف الدولة فإنه ألقى زمام طاعته للملك ضاراب، واعتذر عما حصل منه بأنه كان تابعًا للملك الأكبر، وهو الذي أمره أن يعين الوليد ويساعده؛ فعفا عنه وقبله وقال له: اذهب إلى بلادك، وانتظرني هناك، فإني عازم أن أغزو الملك الأكبر، وأجعل بلادك محطا لجنودي، لأنها قريبة من بلاده.

وأما الوليد فإنه بقي مصرًا على تمرده وعصيانه، فأمر سيف الدولة أن يأخذه. معه ويلقيه في سجنه، ويحافظ عليه، حتى يأتيه وينظر في أمره.

وكانت عين الحياة قد عرفت أن أباها هرب إلى الملك الأكبر فاستغاثت بامرأة سيف الدولة، ورجت منها أن تأخذها معها،، وأن تكتم أمرها حتى تنجلي هذه الغمة عن أبيها.

وأما صالح بظاظة بن الوليد فإنه استسلم، وألقى مقاليد طاعته وقال: لن أطلب عين الحياة، وإن لم يكن في الوجود غيرها.

فقال له ضاراب: حينئذ فقد جعلتك ملكًا على أن تدفع الجزية لي سنويًّا وأن يكون من وزرائك أبو الخير الجزار، وحموه فتوح، وأن تكون طائعًا لهما، منفذًا لما يشيران عليك به، - وهما اللذان حفظا فيروز شاه وكتما أمره هو وعياره حتى خلصهما طارق العيار - فقبل صالح بظاظة ما عرضه عليه ضاراب وصار خلفًا لأبيه.

وكان مسرور بن عتبة ملك المدينة الحمراء الذي جاء لمعونة الوليد قد هزم جيشه، فأخذه ورجع إلى بلاده، وأخذ معه بهمنزار أسيرًا. وكانت له بنت جميلة، حصيفة العقل، تواقة إلى المجد والعلا، تحب مكارم الأخلاق واسمها

كليلة، وقد لمحت في بهمتزار الأسير هذه الصفات، فرغبت أن تتخذه لها زوجًا، وأرته منها ذلك فأعجبته وشاركها هو في تلك الأمنية، ولكنه جعل أمنيته في طي الكتمان من نفسه.

أما الملك ضاراب فقد رحل بجنوده إلى المدينة الحمراء ليخلص فارسه بهمنزار من الأسر.

***

﴿ ٦ ﴾

بلغ مسرور بن عتبة ملك المدينة الحمراء أن ضاراب ملك المدينة البيضاء قادم إليه، ففزع من قدومه، وأشار عليه ولاته أن يسلمه بهمنزار ويخلص من شره، ولكن نصرًا أحد ولاته خوفه من غضب الملك الأكبر. فقال: حينئذ أنتظر في المدينة الحمراء فإن رأيت جنود ضاراب دخلوها هربت إلى مدينة صديقي دهشور، ولهذا أريد منك أن تأخذ معك ابنتي كليلة، والأمير بهمنزار، وتسبقني إليها.

ولما رجع إلى بيته أخبر ابنته كليلة بما دار من الحديث في مجلس الشورى، وما انتهى إليه في أمر بهمنزار الأسير، ثم قال: وستكونين في رعاية صديقي دهشور وهياش وزيره، ولن يمضي أكثر من أسبوعين حتى أكون عندك.

فقالت كليلة: سمعًا وطاعة يا أبي...

وبعد ثلاثة أيام كان نصر وكليلة وبهمنزار عند دهشور في مدينته، فألقى الأسير في سجن خاص عنده، وأسكن كليلة في قصر من قصوره ومعها خدمها وجواريها الذين أحضرتهم معها، وجعل لنصر مسكنًا خاصًّا به.

رجع سيف الدولة إلى مدينته وأعلن انضواء المدينة تحت حكم ضاراب ملك المدينة البيضاء، وأمر أن تزال أعلام الملك الأكبر وتوضع أعلام المدينة البيضاء خفاقة فوق دور الحكم والمنازل، وفي الميادين والشوارع، وجعل قواده يعسكرون بالجيش عند أسوارها ليطردوا جيش الملك الأكبر إذا ما حاول أن يرد المدينة إلى طاعته، وكان أهلها فرحين بما فعله سيف الدولة، لما يسمعون عن ضاراب من العدل والرحمة ومحبة الرعية.

وبلغه أن الملك الأكبر أرسل إليه جيشًا لينتقم منه جزاء خروجه من طاعته، فعزم على الفرار من وجهه إن لم يقدر على لقائه، ووقع نظره في قصره

على عين الحياة وهي تنتقل من غرفة إلى غرفة وكان يجهل وجودها في قصره، ولم يكن رآها من قبل، فمضى إلى زوجته وقال: رأيت في القصر فتاة جميلة فمن تكون؟

فقالت: لقد وصني أن أكتم أمرها، ولكنه أصبح لا يحتمل إخفاءه عنك بعد أن رأيتها، هذه هي عين الحياة بنت الملك سرور، ومخطوبة فيروز شاه بن ضاراب ملك المدينة البيضاء.

فعجب سيف الدولة، وضرب كفًا بكف وقال: ومن جاء بها إلى قصري؟

فقالت الزوجة: جاءتنا ونحن في المدينة الصفراء، وقد خبأتها عندي وأخفيت أمرها كما أمرت.

فقال: المرأة إما نقمة وإما نعمة، وإما أن تخرب وإما أن تعمر؛ لو علمت بها ونحن في المدينة الصفراء لجرى علينا من الملك ضاراب خير كثير.

فقالت الزوجة: أردت ذلك غير مرة، ولكنها حالت بيني وبينه، ولم أستسغ مخالفتها.

فقال: اذهبي بي إليها.

ولما كان عندها سلم عليها وقال: لم أخفيت نفسك عن فيروز شاه وهو لا يسكت عن طلبك؟!

فقالت عين الحياة: لا أريد أن أكون زوجة له بقوة السيف، وأود أن يكون عن رضا من والدي.

فقال: ولكن أباك قد عميت بصيرته، وأطاع وزيره طيفور في ضلاله وخبثه، وقد عرض على الملك الأكبر أن تكوني زوجة لابنه «أبنوش» وأرسل جيشه لقتالنا، وجنوده الآن تحاصر المدينة.

فتألمت وقالت: سعيت لنفع أبي وهو يسعى لضري، فأين المفر؟!

فقال لها: لا تخافي فأمامنا الفرار إلى البرية من سرداب أعددته في قصري، والاختفاء في بعض القرى إلى أن يجيء الملك ضاراب ونسير إليه.

وما لبث أن وجد جيوش الملك الأكبر أمام مدينته فهرب من سردابه هو وزوجته وعين الحياة وأخذوا طريقهم إلى البرية، وقضوا ليلتهم في المسير

حتى رأوا في ضوء الفجر مغارة فدخلوا فيها ليحطوا عن أجسامهم وقلوبهم أثقال التعب والخوف.

وكان فيروز شاه قد أشار على أبيه أن يرسل بهروز العيار خلف سيف الدولة ليتبين حالته بعد رجوعه إلى مدينته؛ هل يبقى على ولائه ووفائه أو يجنح للخيانة ويعود إلى طاعة الملك الأكبر والخضوع له؟

فاستصوب رأيه.

وقال فيروز شاه لبهروز: بعد أن تقضي حاجتك في مدينة سيف الدولة اذهب إلى عاصمة الملك الأكبر وابحث فيها عن عين الحياة، فقال: سمعًا وطاعة.

حاول تمرتاش قائد الملك الأكبر بعد دخوله مدينة سيف الدولة، أن يحمل مهران وزير سيف الدولة على الولاء للملك الأكبر، فأبى وأنذره بطش الملك ضاراب وجنوده، فأمر تمرتاش بضربه وحبسه في خيمة من خيام جيشه.

كان بهروز واقفًا ورآهم يضربونه، فتألم من أجله، وعزم على أن يفلته الليلة من أيديهم، ولم يتركه حتى عرف الخيمة التي حبسوه فيها. ولما جن الليل انسل إلى الخيمة، ودخل عليه من خلفها، وأيقظه في هدوء وقال: لا تخف، فأنا بهروز العيار وجئت لأخلصك من سجنك، فقم وسر معي، وانفلت به بهروز إلى الفضاء، ولما بعدا عن مدينة سيف الدولة قال بهروز له: سر أنت في طريقك حتى تصل إلى المدينة الحمراء، وانتظر هناك حتى يأتي الملك ضاراب وجيشه، لأني سأذهب إلى عاصمة الملك الأكبر لحاجة أقضيها.

فقال مهران: تعال معي إلى أن نجد مغارة لأدخلها وأنتظرك فيها حتى تعود، فإذا ما رجعت صحبتك إلى الملك ضاراب. ومشيا حتى عثرا بالمغارة التي فيها سيف الدولة فدخلاها، وكان عجبه ودهشته عظيمتين. حين وجد سيف الدولة وزوجته وعين الحياة، وعرف سيف الدولة مهران فسلم عليه، وسأله عن سبب مجيئه؛ فأخذ يقص عليه ما حصل. أما بهروز فإنه عرف

عين الحياة فتقدم إليها وحياها وقال: أنا بهروز العيار، أرسلني إليك سيدي فيروز شاه لأقوم بخدمتك.

فقالت عين الحياة: ما زلنا نراك ونرى سيدك كلما نزلت بنا ضائقة، وقد جئنا وأحشاؤنا تلتهب من الجوع، ولا يستطيع أحد منا أن يظهر نفسه.

فقال بهروز: وكيف خبأك سيف الدولة في قصره، وأخفى أمرك عن الأمير فيروز شاه؟

فقالت عين الحياة: لم يعلم بوجودي في قصره إلا ليلة الهرب، وكنت مختبئة عند زوجته ووصيتها ألا تطلع زوجها على أمري.

فقال بهروز: ولم أخفيت نفسك عن فيروز شاه؟

فقالت عين الحياة: أنساني الله صعوبات الماضي، وأخفى عني ويلات المستقبل، فأخفيت عن فيروز نفسي ونفذت فينا إرادة الله.

وكان سرور بهروز بلقاء عين الحياة عظيمًا ولم يعد في حاجة إلى أن يذهب إلى عاصمة الملك الأكبر للبحث عنها.

وطلب منهم بهروز أن يسيروا معه فقالت عين الحياة: لقد أعجزنا الجوع عن المشي، فاذهب وائتنا بطعام نأكله، ولن نبرح هذه المغارة حتى نأكل.

فقال بهروز: سأذهب إلى المدينة وآتيكم بالطعام وما أنتم في حاجة ليه من الملابس، ثم كر راجعًا وهو متنكر في زي رعية الملك الأكبر.

❊❊❊

﴿ ٧ ﴾

بعد الملك سرور عن ابنته، واشتد خوفه عليها؛ فبعث هلالا العيار إلى مدينة سيف الدولة ليعرف شيئًا عنها، وبينما هو سائر في الطريق إليها رأى بهروز خارجًا من المغارة في زي رجال الملك الأكبر، فحدثته نفسه أن يذهب إلى تلك المغارة، فربما وقف منها على سر ينفعه، فاختبأ حتى أبعد بهروز في طريقه، وكان هو في زي الدراويش، ثم مشى أمامها كأنه عابر سبيل، ونظر فيها فرأى سيف الدولة وعين الحياة وعرفها، فاستمر في مشيه وئيدًا كأنه لم يعبأ بشيء حوله، ورأته عين الحياة وهو سائر فقالت لسيف الدولة: ادع لنا هذا الدرويش فعسى أن يكون معه شيء من الزاد نمسك به رمقنا إلى أن يأتينا بهروز بالطعام، فدعاه سيف الدولة وجاءهم فقال لهم: ماذا تريدون بدعوتي؟

فقال سيف الدولة: كسرة من الخبز ترد إلينا الحياة.

فقال هلال العيار: إن الدراويش لا يأكلون خبزًا، لكنهم يصنعون شيئًا من الحلوى، وإذا جاع أحدهم يلعق منه لعقة فيشبع.

فقالت عين الحياة: أعطنا بربك شيئًا منها، وخذ هذا الخاتم الذهبي فإني لا أملك غيره، ثم نزعته من أصبعها ودفعته إليه، فقلبه في يده ثم رماه في حجرها وقال: إننا لا نحب المال ولا أي شيء من متاع الدنيا وزينتها، فخذوا شيئًا من الحلوى لتشبعوا، وأخرج من جرابه قطعة كان قد وضع فيها بنجًا وقسمها بينهم، فما كادت تقع في بطونهم حتى أغمى عليهم، وكان قد رأى مغارة أخرى قريبة منها، فحملهم إليها واحدًا بعد واحد، وانفلت إلى تمرتاش وعرفه بنفسه، وحكى له قصتهم، وطلب منه عشرين فارسًا يسيرون معه لحملهم إليه، وكانوا كما عرفت: سيف الدولة وزوجته وعين الحياة ومهران القائد الأمين.

كان هلال العيار والفرسان أمام المغارة، فدخل عليهم هلال ووضع في أنوفهم شيئًا أزال الإغماء عنهم وانتبهوا فوجدوا أنفسهم أمام بعض من فرسان الملك الأكبر ففزعوا واضطربوا، وقال هلال لعين الحياة: لا تخافي فأنا هلال العيار، وقد أرسلني أبوك للبحث عنك، فيسر لي القدر العثور عليكم في مغارتكم، ثم حملهم الفرسان على الخيل وساروا بهم. حتى وضعوهم أمام تمرتاش، فاستقبلها مكرمًا لها، معظمًا إياها، لأنها مخطوبة «أبنوش» ابن الملك الأكبر، وجعلها في خيمة خاصة، وأمر أن يقدم لها ما يكفيها من الطعام الشهي، ثم أمر أن يطعم من معها من الأسرى لأنه عزم أن يرسلهم إلى عاصمة الملك الأكبر، ولما طعموا أخذهم هلال ورجع إلى العاصمة، وكانت عين الحياة في هودج يليق بها ومعها زوجة سيف الدولة، وأرسل معهم ملك المدينة الصفراء في ألفي فارس، وكان تمرتاش قد أطلق سراحه من السجن بعد أن فتح مدينة سيف الدولة وفر سيف الدولة منها.

أما بهروز فإنه أعد الطعام والشراب وانتظر ظلام الليل، ثم سرق أربعة من الخيل وانفلت بكل أولئك إلى المغارة، ولكنه بهت حين وجدها خالية وليس بها أحد منهم.

وبعد تفكير عميق ترك الخيل ورجع مسرعًا إلى معسكر تمرتاش، وانخرط في سلك الجنود متنقلا بينهم حتى سمع. أن هلالا العيار عثر عليهم، وأن تمرتاش أرسلهم تحت إمرة ملك المدينة الصفراء في ألفي فارس إلى الملك الأكبر في عاصمته. فانطلق كالريح إلى الملك ضاراب ليخبره.

قرب الوليد ملك المدينة الصفراء من عاصمة الملك الأكبر، وأرسل من سبقه إليه ليبشره بقدومه وقدوم من معه، وعرف الملك سرور قدوم ابنته عين الحياة، فقال لابنه وكان معه: استقبل أختك وأقم معها في قصر خاص، ولا تسلمها إلى الملك الأكبر حتى نرى ما يفعله بنا، فنفذ ابنه ما أمره به أبوه. وأما الوليد فقد أقبل إلى الملك الأكبر وحكى له كل شيء، وعرفه أن عين الحياة مع أخيها. وأحضر الملك الأكبر سيف الدولة أمامه وقال: ماذا فعلت بك حتى تغدر بي وتلوذ بأعدائي؟

هلال العيار يحمل عين الحياة وهي مغمى عليها من أثر البنج

فقال سيف الدولة: لا تلمني على خروجي من طاعتك، فلو كنت مكاني ما فعلت شيئًا غير ما فعلت، فقد أسرنا ضاراب بحكمه وكرمه والعفو عنا بعد أن أذقناه وجنده في الحرب كل ويل وشقاء، وبعد أن وقعنا في يده، وأصبحت رقابنا تحت سيفه، وإن كنت تعي نصحي لك فلا تتعرض لعين الحياة، ولا تطع أباها ولا وزيره طيفور الجاهل، وإلا أرقت دماء جندك وخربت بلادك، فإن فيروز فارس لا ترده الجبال ولا كثرة الرجال، واعتبر بما وقع لهما ولغيرهما من الملوك.

فقال: لقد كنت عزمت على قتلك، ولكني أمرت بإبقائك في السجن حتى ترى ما سأفعله بملك المدينة البيضاء وجنوده، وعما قليل ستجد هذا الملك معك في السجن مقيدًا.

وبعد انفضاض المجلس رغب الملك سرور أن يذهب إلى ابنته ليتحدث إليها في شئونها، فمضى إليها ومعه وزيره طيفور، واستقبلته استقبال بنت سامية الخلق بارة بأبيها، وبعد أن جلس قليلا سألها عن حالها، فقالت وقد عزمت على أن تفضي له بكل شيء حتى يكون على بينة من أمرها؛ وحكت له قصتها منذ أن فارقته إلى أن كانت أمامه في مجلسه هذا ثم قالت: ولو أنك أرضيت ابنتك المقيمة على طاعتك فحققت رغبتها ما أصابنا ضر ولا أذى، ولبقيت في بلدك ملكًا مطاعًا ذا هيبة وجلال.

ففهم أبوها ما تريده وقال: ليتني استجبت لفيروز شاه، ولكن وزيري طيفور هو الذي ساقني إلى هذا العناء.

فقال طيفور: ما كنت أبغي إلا أن أحافظ على شرفك وكرامتك، فليس من اللائق بملك مثلك أن يسكت عن فيروز وهو يروم أخذ ابنته غصبًا، أنسيت تسلقه قصر ابنتك، وقتله العبيد، يريد أن ينزل إلى ابنتك في غرفتها ويسرقها بمعونة عياره؟!

فلم تجد عين الحياة بدًا من كشف الغطاء عن الحقيقة، ثم قالت: ما كان سارقًا ولا قاتلا، ولقد ظلمته إذ حملته ذنب غيره، وما هو إلا رجل عف كريم الخلق، وما قتل العبيد إلا رجل غيره، ولو رام سرقتي لأخذني من

قصري الذي اجتمعت به فيه غير مرة، وأريد أن تعرف الآن أن القدر أبرم حكمه فينا فجعلني له وجعله لي.

فأدرك أبوها خطأه، وغلبه الحنان على ابنة بارة كريمة الخلق، وقام والندم على ما فرط منه باد في وجهه. وذهب إلى مسكنه وطيفور معه. وقال طيفور في نفسه: لو جلس سرور إلى ابنته مرتين أو ثلاثة لخسرته وسأحول بينه وبين اجتماعه بها مرة ثانية.

وفي مجلس الملك الأكبر قال الملك لوالد عين الحياة: إن ابني أبنوش يبغي التعجيل بالزواج من ابنتك عين الحياة، فسبق الوزير طيفور ملكه بالإجابة وقال: ذلك أحب شيء إلينا، وما جئنا إلا لهذا، ولكن أباها أقسم ألا يزوجها إلا لمن يرد إليه بلاده وملكه، ولو شاء زواجها من فيروز شاه لأرجعه إلى ملكه في لمح البصر، ولكننا لا نرغب ولا نحب أن يكون زوجًا لعين الحياة، ويمكنك يا سيدي أن تضعها في مكان لا يمكن للأعداء أن يصلوا إليه، وأن تحافظوا عليها وتحرسوها من العيارين فإنهم شياطين في صورة إنس.

فقال الملك الأكبر: من الأنفع لنا أن ننتظر؛ وأمر أن تحفظ في قلعة الحديد هي ومهران وسيف الدولة وزوجته.

أقيمت هذه القلعة على جزيرة في البحر، وأحيطت بسور متين من الحديد، وبها غرف كثيرة؛ منها ما أعد لراحة الزائرين من أمراء البلاد، ومنها ما أعد لسجن المغضوب عليهم الذين فقدوا رجاءهم في إطلاق سراحهم، ومنها ما أعد لحفظ الذخائر والنفائس، وأرسلهم الملك الأكبر إلى القلعة ومعهم كتاب إلى أميرها «فهد» يقول فيه: بعثت إليك بعين الحياة مخطوبة ابني أبنوش، ومعها زوجة سيف الدولة لتسليتها، فاجعل لها مكانًا فخمًا في أعالي القلعة، واحرص على راحتها والقيام بخدمتها خير قيام، وبعثت إليك بسيف الدولة وقائده الأمير مهران لتحافظ عليهما، واحذر أن يحتال عليك أحد ويسرق واحدًا منهم ولا تطلق سبيل أحد منهم إلا إذا جاءك كتاب مني قد ختم بخاتمي.

فنفذ أمير القلعة ما أمره به سيده الملك الأكبر، ووضع كلا منهم في المكان اللائق به من القلعة، ولم يشدد في المحافظة عليهم لثقته من القلعة ومناعتها.

﴿ ٨ ﴾

وصل الملك ضاراب إلى المدينة الحمراء، وعسكر على مقربة منها، وبعث إلى مسعود بن عتبة حاكمها كتابًا نصح له فيه أن يدخل في طاعته؛ ويسلم المدينة والفارس بهمنزار، ليقي نفسه وقومه وبلاده الفتك والدمار. فكتب مسعود إليه يقول: أما تسليم المدينة فلن يكون منا إلا قهرًا، لأننا لا نزال على ولائنا للملك الأكبر، وأما بهمنزار فقد أرسلناه إلى جهة أخرى تحت رعاية الملك الأكبر فاطلبه حيث يكون.

أمر الملك في الصباح الجنود باقتحام المدينة، فلم تكن أمامهم إلا كقطعة من الزبد تشقها سكين ماضية، وتم استيلاؤهم على المدينة، وسأل عن مسعود ابن عتبة فقيل إنه هرب إلى مدينة دهشور، ليلحق بالأسير بهمنزار الذي كان قد بعثه إليه من قبل. فجعل للمدينة حاكمًا من قبله، وفرح الناس بتبعية المدينة له، لما رأوه من عدله ورحمته، ثم أمر جنده أن يتأهبوا للرحيل إلى مدينة دهشور ليخلص فارسه بهمنزار. وبينما هم يتأهبون للرحيل قدم إليهم بهروز يلهث من التعب والجري، فقعدوا عن التأهب حتى ينفض لهم ما في نفسه، وأجلسه الملك ضاراب وسأله، فقال ما عرفه عن سيف الدولة وإخلاصه وإخلاص قائده مهران وتعذيبهم إياه، وعن عين الحياة والمغارة وفقدهم، والجد في البحث عنهم، وأن هلالا العيار أخذهم في غيبته ومضى بهم إلى الملك الأكبر حيث أبوها ووزيره طيفور.

فزع الملك ضاراب من ظلم تمرتاش لمدينة سيف الدولة، فأمر الجنود بالسير إليها لإنقاذها من يد هذا الظالم الذي لا مروءة له، ونزل بجنوده بوادي الزهور المشرف على المدينة، وأراد تمرتاش من حين بلغه نزولهم أن يعرف عددهم، فكلف «كودك» عياره أن يذهب إليهم ليعرف كل شيء عنهم، وكان طارق العيار على حذر، فقال لأصحابه العيارين: سيأتينا

الليلة «كودك» عيار تمرتاش، ليعرف أخبارنا وأحوالنا، فانتشروا في الأرض واقبضوا على أي رجل ارتبتم في أمره. وكان ما قاله طارق، وقبضوا على كودك، ومضوا به إلى الملك ضاراب فسأله: من أنت يا هذا؟! وما سبب مسيرك إلينا في ظلام الليل؟!

فقال كودك: أنا رجل من الفلاحين عابر سبيل، وتهت في ظلام الليل، فلم أعرف إلى أين أسير، وقبض على رجالك وجاءوا بي إليك.

فقال بهروز: أتكذب يا كودك على الملك، فأنا أعرفك حق المعرفة؟ إن أردت النجاة لنفسك فلا تقل غير الحق، فإن الملك حليم عادل، وإذا أخلصت إليه ورغبت في أن تكون من رجاله عفا عنك، وجعلك من عياريه، وأسبغ عليك فضله ونعمته، كما أسبغها على غيرك من العيارين الذين أنابوا إليه ودخلوا في طاعته. وها أنت ذا تراهم في هناءة ونعيم ومسرة.

وأحس كودك من نفسه رضا ورغبة فيما وعده به بهروز فقال: أنا كودك عيار تمرتاش، وقد أخلصت للملك ضاراب ودخلت في طاعته، وإني لصادق فيما أقول، وعندكم من يكفلني وهو بهروز العيار، فإنه قادر على أن يأتي بي وإن غصت في طبقات الأرض.

فقال بهروز: اجعله من عياريك يا مولاي، وهو في كفالتي، وما كفلته إلا لأني موقن بصدقه وإخلاصه، فأمر الملك أن يكون من عياريه وأن يلبس لباسهم، ثم قال كودك: دعني يا سيدي أرجع إلى تمرتاش لأشير عليه أن يهجم عليكم بجنوده الليلة المقبلة وأنتم نائمون على أن يستعد جنودك للقتال ويتركوا خيامهم خاوية حتى إذا دخلها جنود تمرتاش انقض جنودك عليهم وسحقوهم، وبذلك ينتهي أمرهم.

فقال ضاراب: وإن نجحت في سعيك يا كودك فلك عندي مكافأة ترضيك.

فقال: مكافأتي أن يكون سعي هذا دليلا على ولائي ووفائي لك.

تمت مكيدة كودك، ووقعت كما دبرها، وفر تمرتاش بحثالة باقية من فرسانه إلى الفضاء، وهناك ندم وعرف أن جنود المدينة البيضاء قوم لا

يغلبون، ولم يستطع أن يرجع إلى مدينة سيف الدولة خوفًا من أهلها الذين يكرهونه، ومن جنود المدينة البيضاء الذين أبادوا جيشه، فانطلق يجري إلى الملك الأكبر ليقص عليه ما نزل به.

واستقبل أهل المدينة الملك ضاراب فرحين به شاكين ما حل بهم من ظلم تمرتاش وعدوانه، ونهبه أموالهم، وسبيه نساءهم، فطمأنهم الملك ضاراب، وقال: سنرد إليكم أموالكم ونساءكم وبناتكم، وسنجعلكم في ظلال من العدل والرفاهية هانئين. فشكروا له جميل عطفه ورحمته، ونادوا بطاعته ودخول المدينة في حوزته، وأقام عليهم حاكمًا عادلا أمينًا وصاه أن يعتصم بالحق وجميل المعاملة.

وكان تمرتاش قد ترك في المدينة الأسرى والسبايا، وما نهبه من الأموال، فعقد الملك مجلسًا برئاسة طيطلوس لرد المظالم إلى أهلها وأخذ كل ذي حق حقه، وبدأت المدينة حياة آمنة تستمتع بنسيم رخاء من العدل والهناءة.

ثم قال لكرمان شاه: إني باق هنا في المدينة، فخذ معك مائة ألف من الفرسان وبدرفتات، واذهب إلى مدينة دهشور (المدينة الأخرى) لاستخلاص بهمنزار، إذ ليس من الإنسانية أن نبطئ في معونته وإخراجه من قيود الأسر التي وقع فيها وهو يجاهد في سبيل الإنسانية الفاضلة.

فصدع كرمان بأمره وسار بجيشه إلى مدينة دهشور، فعسكر بالجيش أمامها، ووجد أسوارها متينة، وأبوابها مقفلة، وأن اقتحامها عسير، والحصار قد يطول، فقال لبدر فتات: ماذا ترى في فتح هذه المدينة الحصينة؟! وقد يكون أهلها مستعدين للمكث فيها مدة طويلة فلا يهمهم حصارنا، ولا نجني منه إلا تعب الجنود وشقاءهم بالبقاء في هذا الخلاء.

فقال بدر فتات: أرسلني بكتاب إلى حاكمها لأدخل المدينة وسأعطيه الكتاب ثم آخذ منه الإجابة عنه، وأمكث في المدينة حتى أجد لكم السبيل إلى دخولها، ولا يكن في صدرك قلق إذا غبت عنك فإني لن أرجع إليك إلا بالحل، وأرجو أن يكون قريبًا.

فكتب إليه كرمان شاه كتابًا يطلب فيه بهمنزار، والدخول في طاعة الملك

ضاراب وتسليم المدينة، وأنذره الفناء والدمار إن لم يستجب له.

أخذ بدر فتات الكتاب وقال للحرس: إني رسول كرمان شاه إلى حاكم المدينة، فأدخلوه ومضوا به إليه في مجلسه، وهناك ناوله الكتاب وقرأه، فكتب إليه بأنه لن يسلم الأسير، ولن يدخل في طاعة الملك ضاراب، وليفعل بجيشه ما يشاء.

أخذ بدر فتات الكتاب وخرج، وسار في المدينة حتى وجد مكانًا خربًا خاويًا، فدخله وغير ملابسه، وبدا في هيئة شحاذ فقير أضناه البؤس، وأعيته الحاجة؛ وجعل يطوف مستجديًا حتى كان أمام السجن الذي فيه بهمنزار. فجلس إلى السجان باكيًا شاكيًا حتى أشفق عليه واطمأن إليه، ولما جاء الليل رجا منه أن يبيت في السجن على أن يخرجه منه في الصباح، لأنه لم يجد مكانًا يأوي إليه، ويقيه شر البرد القارس؛ فأثر في السجان بؤسه، وأدخله السجن ليبيت فيه، وأغلقه.

عرف بدر فتات الأمير بهمنزار، فجلس إليه وهو لا يعرفه ولكنه رحم بؤسه، وأشفق على حالته، فقال له: حتى أنت أيها البائس العاجز لم تفلت من ظلم هذا الحاكم الظالم؟! أما كفاه ما أنت فيه من ضنك العيش وبؤسه؟! ما أظلم الإنسان وما أقساه!! وأنت من أهل هذه المدينة أو غريب عنها؟

فقال بدر فتات: الشحاذ لا دار له، فأنا جوال طواف، وقد كنت في جيش الملك ضاراب الذي يحاصر الآن هذه المدينة، وسمعتهم يقولون: إن الملك ضاراب استولى على مدينة سيف الدولة والمدينة الحمراء، وأرسل الأمير كرمان شاه بجيش عدته مائة ألف إلى مدينة دهشور ليخلص أميرًا فيها اسمه بهمنزار من أسره، وهم يشكون من مناعة المدينة، وعدم اهتدائهم إلى طريق يسلكونه إليها.

وكان حاكم المدينة قد ارتاب في وزير له اسمه هياش، وظن أنه على ولاء للمدينة البيضاء، فخشى أن يدلهم على طريق يدخلونها منه، فحبسه مع الأمير بهمنزار، وكان هياش جالسًا بجواره وبدر فتات يحدثه عن جيش المدينة البيضاء الذي يحاصر المدينة ففرح بجيش تلك المدينة وقال لهما: لو

كنت طليقًا لدللت الجيش على طريق يدخلون منه المدينة، ويخلصونها من ظلم هذا الطاغية ومن تبعيتها للملك الأكبر الجبار، وإذا أراد الله للمدينة خيرًا وفقني إلى أن أكشف لهم عن هذا الطريق الذي أعرفه ولا يعرفه أحد غيري من الوزراء. فابتسم بدر فتات وقال: وإذا قيض الله لك من ينقل عنك إلى جيش المدينة البيضاء خبر هذا الطريق تدله عليه؟

فقال هياش: ذلك ما أناجي به ربي وأدعوه أن يقيض لي هذا الرسول الأمين، وقد سمعت أن لأصحاب المدينة البيضاء عيارين، وعجبت لإغفالهم أمر هذا الأمير بهمنزار إلى الآن.

فقال بدر فتات: وكيف يصل العيار إليه في سجنه هذا؟

فقال هياش: إن عياري أصحاب المدينة البيضاء لا يقف عزمهم عند غاية، وما زلت راجيًا أن يجيئنا أحد منهم من أمثال بدر فتات فابتسم بدر فتات.

وقال: وإن بدر فتات هو ذلك الشحاذ الذي تتحدث إليه. فعرفني بالطريق الخفي الذي ستدخل منه جنودنا المدينة، ونخلصكم من قبركم هذا.

فانشرح صدر هياش وبهمنزار وعرتهما دهشة مرحة لقدرته على دخوله إليهما، ثم قال له هياش: إن تحت سرير الحاكم يبدأ سرداب ينتهي إلى الخلاء، فإذا مشيت فيه من القصر انتهيت إلى غطاء الحجر إذا رفعته خرجت منه إلى الفضاء حيث تذهب إلى الجنود، وتأتي بطائفة من الشجعان يقتلون حرس الأبواب ويقتحمونها، وحينئذ يكون الجيش مستعدًا لدخول المدينة فجأة، ويملأ أنحاء المدينة، قاتلا كل من يعارضه أو يقف في سبيله. وبذلك تستولون عليها، ويكون الحكم لكم فيها تفتحون السجون لمن تشاءون، وتخرجون منها من تشاءون، فشكره بدر فتات وقال: سأخرج من هذا السجن صباحًا، وانتظروا فتح المدينة ولا تقلقوا.

جاء الصبح وأخرجه السجان وشكره، ثم ذهب إلى خربة خالية وتزيا بزي طباخ، وذهب إلى قصر الحاكم، واستأذن ليدخل إلى طباخ ذلك الأمير الحاكم. فلما كان عنده قال له: كنت يا سيدي طباخ الوليد «ملك المدينة

الصفراء» قبل أن تقع بلاده في أيدي جنود المدينة البيضاء، فلما ضاع ملكه تركت خدمته وتقاذفتني البلاد حتى كنت في هذه المدينة وطفت فيها باحثًا عن عمل أقتات منه وأحصل على رزقي فدلني رجال المروءة والإحسان عليك وقالوا: إنه في حاجة إلى خادم لمائدة الأمير، فهرولت إليك راجيًا أن تقبلني، ولا أريد منك إلا لقمة أقيم بها صلبي، وتقويني على تأدية عملي، وأن تعطيني في كل سنة ثوبًا أزرق، وحذاء من الجلد الأحمر.

وكان اسم طباخ الأمير هذا طارقًا فقال: قبلتك على أن تقيم في هذا المطبخ ليلا ونهارًا، وإذا وجدتك ماهرًا اعتمدت عليك، ونمت في بعض الليالي أو جميعها في بيتي وبين أولادي.

فقال بدر فتات: أرجو أن تجد مني ما يسرك ويسر الأمير.

أطلعه طارق على كل شيء في المطبخ وغيره من القصر، وعرفه طرقه وغرفه؛ وجد هو في الخدمة وأبدى براعة فائقة فوثق به طارق واعتمد على ذكائه وخبرته. ويقظته وإجادة ما يعمله.

وكان الأمير يسهر كل ليلة في القصر في طائفة من القرناء يشربون ويسكرون، فتركه طارق ليلة ليقوم بخدمة الأمير وتقديم ما يلزم له ولجماعته من الشراب، وانتهز بدر فتات هذه الفرصة فوضع في الشراب بنجًا، ولما شربوه سقطوا كالموتى، فأغلق عليهم ودخل هو غرفة نوم الأمير، ولم يكن متزوجًا، وأزاح سريره من مكانه فوجد مدخل السرداب فرفع غطاءه وأمسك شمعة مضاءة وسار في السرداب حتى وصل إلى غطاء حجري خفيف، فأزاله وخرج إلى الفضاء. وترك الشمعة مضيئة في مدخل السرداب ليهتدي إليه عند عودته. وأسرع إلى كرمان شاه فأخبره بما فعل، وطلب منه ثمانين جنديًا ومعهم أسلحتهم، فجاءوا معه ودخلوا المدينة من هذا السرداب، وانتظر كرمان بالجنود على أبواب المدينة، أما الثمانون الذين دخلوها فإنهم عمدوا إلى الحراس عند الأبواب وقتلوهم، وفتحوها، فانهال الجنود انهيال الرمال وانتشروا في المدينة قاتلين من يتصدى لهم، وكان فتحًا مرغوبًا فيه من أهل المدينة، لأنهم كانوا يكرهون أميرها، ولكنهم لا

يستطيعون أن يفعلوا شيئًا لاستكباره وظلمه، وقبضوا على الأمير وساقوه إلى كرمان شاه حيث سجن هناك، وفتحوا السجن فخرج هياش و بهمنزار، وذهبا إلى كرمان شاه فرحين شاكرين. وهناك قتل بهمنزار أمير المدينة الذي سجنه وعذبه، ثم رفعت أعلام المدينة البيضاء على المدينة، وأقام كرمان شاه الوزير «هياش» ملكًا عليها خاضعًا للملك ضاراب مؤديًا الجزية طائعًا له، وانسلخت عن الملك الأكبر وأصبحت من أملاك المدينة البيضاء.

ورحل كرمان شاه وجنوده ومعه بهمنزار وكليلة بنت حاكم المدينة الحمراء، وكان قد قتل في فتح مدينة دهشور، واستمروا سائرين حتى حطوا رحالهم للراحة في واد فسيح به ماء ونبات.

ومشت كليلة في هذا الوادي للترويح عن نفسها، والاستمتاع بمشاهد الطبيعة التي لم تعمل فيها يد إنسان، فوجدت في طريقها بئرًا عميقة فنظرت فيها فما رأت لها قرارًا، فأمسكت حصاة صغيرة وألقتها فيها فتصاعد منها دخان كثيف وامتدت إليها من البئريد اختطفتها، وصرخت مستغيثة، فأسرع الجنود إليها فلم يجدوا لها أثرًا، وأرسلوا أنظارهم إلى قعر البئر فرأوا فيه حجارة صغيرة وهو غير بعيد، فنزلوا فيه و بهمنزار معهم فلم يجدوا شيئًا غير جدران البئر الصخرية ومقره المغطى بالحجارة، فخرجوا من البئر وهم في عجب ودهشة وقالوا: ما نظن إلا أن هذه البئر يسكنها طائفة من الجن، فلنذهب إلى الملك ضاراب ووزيره الحكيم ونشرح لهم أمر البئر واختطاف كليلة، ويمكن لفيروز شاه أن يأتي بسيفه الذي قتل به مارد الجزيرة المسحورة ويقتل الجن الذين يسكنون البئر ويخلص من أيديهم كليلة، فرحلوا و بهمنزار في ألم عظيم بفقد كليلة مخطوبته و لما وصلوا إلى الملك ضاراب أخبروه بما فعلوه، فشكرهم وأثنى عليهم ثم أمر بالرحيل إلى الملك الأكبر، وانتشر نبأ قدومه في مدينته، فأخذ يجمع الجموع للقائه، وخرج ابنه أبنوش في ألف من الفرسان ليلتقي بالأعداء طامعًا في أن يقتل فيروز شاه.

❊❊❊

﴿ ٩ ﴾

ثقل الهم على الملك سرور فقال لطيفور وزيره: ما أرى جنود الملك الأكبر إلا غارقين في الأوهام الكاذبة، وما أظن إلا أن دولتهم قد انتهت، وبلادهم قد ارتفعت فوق دورها أعلام المدينة البيضاء خفاقة؛ وليتني أستطيع الآن أن أهرب بابنتي وأفر بها إلى الملك ضاراب، فأسلمه عين الحياة، وأرمي بنفسي عند أقدامه تائبًا نادمًا مستشفعًا؛ وما أظنه إذ ذاك إلا غامرني بعفوه، مسبغًا عليّ فضله وكرمه رادًا إلى ملكي وبلادي.

فغاظت حالته هذه طيفور لأنه يعتقد أن الملك ضاراب يعفو عن زميله سرور إن وقع في يده، وأما هو فإنه إن وقع في يده فإنه مقتول لا محالة، لأنه كان السبب في هذا العناء. وقال: ما أردت لك إلا الخير وسأسكت من الآن عن التحدث إليك في شئونك، ولك أن تختار ما تشاء. وعزم طيفور أن يحمل الملك الأكبر على التعجيل بزواج ابنه من عين الحياة، حتى يصبح أبوها عرضة لغضب ضاراب وقومه أو لغضب قوم الملك الأكبر.

وبيت سرور في نفسه أن يزوج ابنته من فيروز أو أبنوش أيهما غلب زميله، وجعل المعركة القادمة بين ضاراب والملك الأكبر نهاية المطاف.

استمر ضاراب سائرًا بجيشه، حتى وصل إلى واد فسيح اسمه وادي أم الروض، فوجد فيه جيشًا للملك الأكبر كان قد أرسله بقيادة ابنه أبنوش وقائده تمرتاش للقضاء على جيش ضاراب. ونزل ضاراب في هذا الوادي ليتخذ منه مقبرة لجنود الملك الأكبر السابحة في بحار من الأوهام والغرور، وقد صدق ما قدر الملك ضاراب، فلم تكد الحرب تلمع ألسنة سيوفها يومين أو ثلاثة حتى فنى زهاء نصف جيش الملك الأكبر، وشمر الباقون من الجنود وقوادهم أذيال الفرار، ورجعوا إلى ملكهم يحملون ما لاقوه من الويل والثبور. ورأى الملك ضاراب أن يقيم في هذا الوادي ليأخذ جنوده

حظهم من الراحة، لكثرة مياهه، وطيب المقام فيه، إلى أن يجد ما يراه في شأن هذه الغزوة.

وكان قد تنافس فرخو زاد وأخوه بهزاد في مبارزة تمرتاش خلال هذه المعركة فآثر الملك ضاراب بهزاد على أخيه، معللًا ذلك بأنه أقوى وأقدر على ملاقاة تمرتاش ومبارزته من أخيه فرخو زاد، ولكن نخوته أبت أن يؤثر عليه أحد في مجال البطولة وإن يكن أخاه، فملأ الهم صدره، لأن الملك وزنه في نفسه وزنًا لا يرتضيه، وقال في نفسه: ينبغي أن أترك الملك إلى حيث أجد من يقدرني حق قدري، وينزلني من نفسه المنزلة اللائقة بشجاعتي، وانفلت بجواده في الفلاة هائمًا لا يدري إلى أين يسير. ولما أعياه الجوع، وطول المسير، وأحرقه العطش، نزل عن جواده بجوار أكمة من جبل، واستلقى على الأرض مسترخيًا لا يتحرك، ولفه النوم العميق في كفنه، ولولا نفس يتردد في صدره لحسبه من رآه ميتًا.

وكان يسكن على مقربة من هذا المكان الذي نام فيه فرخو زاد أمير اسمه دولاب، فخرج للصيد في ذلك اليوم، ورأى فرخو زاد ملقى على الأرض كأنه ميت، فعرج عليه، ولمح في وجهه سمات النبل والكرم والشجاعة، وأيقظه فلم ينتبه، فأمر رجاله الذين معه أن يحملوه، ثم رجع به إلى بيته، وأحضر طبيبًا ماهرًا لفحصه وعلاجه، ولما فحصه الطبيب قال: ليس به علة، وجسمه في صحة وسلامة، ولكن الجوع أفقده وعيه وأسكت الحركة في جسمه؛ ثم ناوله شيئًا من مرق اللحم قليلا قليلا حتى جرى بالحياة دمه، فانتبه واعتدل جالسًا ووجد من حوله مشفقين به، قائمين بعلاجه، فشكرهم وأثنى عليهم، وعرف أن الذي أسعفه وأنقذ حياته الأمير دولاب فقال له: إني شاعر بفضلك، وقد رغبت أن تجعلني من فرسانك لأقوم بخدمتك جزاء ما قدمت يدك لي من المعروف، وسوف تراني غصة في حلق عدوك، وشوكة في قدمه.

فقال الأمير دولاب: واعترافًا بفضل الله عليّ قد اتخذتك أخًا وفيًا، وصديقًا حميمًا، لك الأمر وعليّ الطاعة.

وخرج فرخو زاد للصيد يومًا في صحبة الأمير وعظماء فرسانه فأبدى من المهارة والقوة والبسالة ما جعلهم يعظمونه فهابوه واتخذوه كبيرًا لهم.

مكث ضاراب في «أم الروض» مقيما للراحة، وفي أثناء ذلك هاج القلق بفيروز شاه واشتد خوفه على عين الحياة لأنه لم يعرف أين هي الآن! فدعا بعياره بهروز وقال له: أأكون فيروز شاه بن ضاراب وعياري بهروز بن الغول ثم يعجزك أمر يسير لي؟!

فقال بهروز: وما ذاك يا سيدي؟

فقال فيروز: أين عين الحياة؟! لا أدري عنها شيئًا، أريدها في جيشي حيث كنت.

فقال بهروز: من الآن يا سيدي سأسعى في إحضارها ولن أعود إلا بها. فأعطني شياغوش وطارقًا لأشد بهما أزري.

فقال فيروز: أمرت لك بهما، واحذر هلالا العيار فإنه محتال ماكر، ولن تغيب عنه معرفتك مهما تبالغ في تنكرك وإخفاء نفسك.

أخذ بهروز صاحبيه ودخلوا مدينة الملك الأكبر وهم في هيئات أهلها وأزيائهم، وجلسوا في حانة إلى جانب جندي للملك الأكبر، وربط بينهم الحديث في شئون الحرب إلى أن قال الجندي: كان في استطاعة الملك الأكبر أن يقي البلاد ويلات القتال بإعطاء ملك المدينة البيضاء عين الحياة بنت الملك سرور، فإنهم لا يتركون القتال حتى يأخذوها، وقد اشتد خوف الملك الأكبر عليها فحفظها في قلعة الحديد، لأن المدينة البيضاء فيها عيارون يسرقون الكحل من العين، وأشدهم خطرًا عيار اسمه بهروز، وأراد بهروز أن يعرف مكان القلعة فقال: ألا كان من الأحسن لملكنا الأكبر أن يحفظ عين الحياة في قصره؟

فقال الجندي: القلعة أحسن من القصر في المحافظة عليها، لأنها في جزيرة بالبحر، وسورها حديدي يعجز عن اقتحامه من في الأرض جميعًا.

فقال بهروز: حسنًا فعل.

كتب بهروز كتابًا قال فيه: من الملك سرور والد عين الحياة إلى أمير قلعة

الحديد. لقد أراد الملك الأكبر أن تزف ابنتي إلى ابنه أبنوش هذه الأيام، فإذا جاءك كتابي هذا مع رسلي فأعطهم عين الحياة ابنتي لأقوم بشئون زفافها إليه.

ثم طوى بهروز الكتاب ومضى هو وصاحباه إلى شاطئ البحر، وركبوا في زورق من زوارق كثيرة راسية، وجرت بهم إلى شاطئ الجزيرة، فنزلوا وساروا حتى كانوا أمام القلعة، فقال بهروز للبواب: معنا كتاب إلى أمير القلعة ونريد أن نعطيه إياه.

فقال البواب: انتظروا حتى أخبره وآتي به. ثم دخل البواب، وبعد برهة رجع، وجاءهم الأمير، وناوله بهروز الكتاب الذي كتبه، فلما قرأه قال لهم: إن الملك الأكبر أمرني ألا آذن لعين الحياة أن تغادر القصر إلا إذا جاءني كتاب مختوم بخاتمه، ومحال أن تخرج بغير ذلك.

فقال بهروز: لنرجع إليه حينئذ ولنخبره بما قلت، ليس علينا حرج.

فقال: ما قلت لكم إلا ما أمرتُ به، ثم أقفل الباب ومضى إلى عين الحياة وأخبرها بما في الكتاب. فتقاذفتها الهواجس والظنون في أمرين عظيمين، وأخذت تسأل نفسها عنهما: أصحيح هذا الكتاب وأن جنود المدينة البيضاء قد هزموا، وأراد الملك الأكبر أن يفرح بزفافي إلى ابنه؟! أهؤلاء الرسل عيارون من المدينة البيضاء وقد افتروا على الملك سرور هذا الكتاب وقدموا به ليخرجوني ويأخذوني؟! لا علم لي بالغيب فاللهم ألهمني الصبر الجميل.

رجع بهروز ورفيقاه إلى شاطئ الجزيرة، وقبل أن يركبوا الزورق ليعودوا إلى المدينة رأوا نارًا تبينوا على ضوئها عشرة خيام، فقال لرفيقيه: لم تكن هذه الخيام حين قدمنا إلى القلعة، فانتظرا حتى آتيكما بخبرها وذهب إلى الخيام في خفية ولما وجد من فيها من رجال الملك الأكبر اختلط بهم، وكانت فرصة عظيمة إذ وجد بينهم «أبنوش» ابن الملك الأكبر.

وخشى أبنوش أن تفلت عين الحياة من يده فكلف بيدا خطل وزير أبيه أن يتحدث إليه في التعجيل بزواجه منها، فقام الوزير سفيرًا بين الملك الأكبر ووالد عين الحياة، وساعد بإغرائه وخداعه وزيره الخائن طيفور حتى رضى

والدها أن يعجل بالزواج، فذهب الوزير إلى الملك الأكبر وقال له: رضى الملك سرور ومن معه بالزفاف، وأرى أن تعطي ابنك خاتمك وتبعثه إلى قلعة الحديد في صحبة عشرة من الأمراء وطائفة من الجند لإحضار عين الحياة، ووضعها عند أبيها استعدادًا للزفاف، فنفذ الملك الأكبر ما أشار به،وزيره وأعطى ابنه خاتمه ووصاه أن يحافظ عليه، وأن يعود به سريعًا.

أخذوا خيامهم وأمتعتهم وركبوا إلى القلعة، ونزلوا في هذا المكان الذي عثر عليهم فيه بهروز. ولما ناموا ذهب بهروز إلى خيمة أبنوش وكان معه أميران، ووضع قطعة من البنج على جذوة من النار وأدخلها تحت ذيل الخيمة، وانتظر حتى أيقن أنهم قد أغمى عليهم من شم البنج، ثم دخل وذبحهم بخنجره، وفتش الأمير فوجد معه خاتم أبيه وكثيرًا من الذهب والجواهر فأخذها جميعها، وأخذ الخاتم ورجع رفيقيه وأراهم ما أحضر، وقص عليهم ما فعله وقال: هيا بنا إلى القلعة لنهرب بعين الحياة ومن معها قبل أن ينتشر خبر موت أبنوش ويملأوا الطرق والمنافذ بعيار يهم وجنودهم.

❊❊❊

﴿ ١٠ ﴾

ولما كانوا عند أمير القلعة قال بهروز له: إن الملك كان قد نسى أن يعطينا الخاتم فأرسله من خلفنا مع رسول من عنده، وقد جئناك به لنكون عندك من الصادقين.

فقال الأمير: ما كنتم في المرة الأولى إلا صادقين، ولكن أمر الملك الأكبر مطاع، ولا ينبغي أن نحيد عنه. وأعطاهم عين الحياة، وسيف الدولة وزوجته، والقائد مهران.

ولما ابتعدوا بهم عن القلعة وقف بهروز مطرقًا وقال: إن الملك الأكبر سيبلغه نبأ قتل ابنه، وسيملأ الطرق والمسالك بالعيارين، وأريد أن أغير شكل عين الحياة وامرأة سيف الدولة، لأنهم يعرفوننا بهما.

فقال طارق: وقد خطر ببالي هذا، وإن معي صبغًا أسود، والتفت إليهما وقال: خذا هذا الصبغ واحتجبا عنا واصبغا جسميكما به لتكونا في شكل أمتين خادمتين. وكذلك فعلتا، وساروا جميعًا.

استيقظ الأمراء والجنود في الصباح فوجدوا أبنوش وأميرين مذبوحين. فرجعوا إلى الملك الأكبر باكين، وحكوا له ما حصل، وأنهم أووا إلى مضاجعهم سالمين، ثم استيقظوا في الصباح فوجدوهم مذبوحين، فحزن الملك الأكبر والوزراء، ودفنوا أبنوش في بكاء شامل وحزن عميم، وأمر الوزير بيدا خطل أن ينتشر العيارون والجنود ليقبضوا على كل غريب سائر في الطريق، أو ماش في الفلوات؛ ويحضروه إلى المدينة. وجعل الملك الأكبر لمن يأتيه بالقاتل المال الجزيل الذي يغنيه مدة حياته، وكان طيفور أكثرهم غمًا لخيبته في سعيه، ولأن الملك الأكبر لم يعد له اهتمام به وبمن معه، وربما اعتبرهم أعداءه، لأنهم كانوا السبب في قتل ابنه وما هو بناج من القتل إن وقع في يد فيروز شاه.

أما الملك سرور فقد فرح بقتل ابن الملك الأكبر، لأن زواجه من ابنته لم يكن على رغبة منه، ولأنه قال في نفسه: آخذ ابني إلى الملك ضاراب، وأسلمه إياها، وأطلب منه أن يغفر لي ما سلف ويعفو عني، وما أظنه إلا ملبيًا رجائي.

رأى بعض القواد بهروز ومن معه سائرين فأمر فرسانه أن يمسكوهم، قال بهروز: ما سمعنا أن الملك الأكبر يأمر رجاله أن يعترضوا سبل التجار وأبناء السبيل.

فقال القائد: ومن أنتم؟

فقال بهروز: نحن تجار من المدينة الخضراء نجوب البلاد، فخطر ببالنا أن نأتي بلادكم، ورغبنا في ذلك وجود ملكنا سرور عندكم، ولكننا بعد أن خرجنا من المدينة الحمراء ضللنا الطريق، وكنا نسير على غير هدى، ولما سألنا عن مدينتكم قيل لنا إنها قريبة، فإذا تفضلت علينا ودللتنا عليها كان لك الفضل العظيم.

فقال القائد: أمرني الملك الأكبر أن أقبض على كل سائر، فهيا بنا إليه في المدينة.

فقال بهروز: لسنا من سفلة الناس حتى نحتمل مهانة القبض علينا ولا لملكك الأكبر غناء فينا، واهدنا إلى المدينة حتى نذهب إليها.

فقال القائد: إن أغلب الظن عندي أنكم صادقون، ولكني لا أستطيع أن أخالف أمر الملك الأكبر؛ ثم مضى بهم، وما كان بهروز خائفًا من أحد إلا من هلال العيار لأنه لا يخفى عليه في أية صورة يختفي فيها، ولما مشوا قليلا لقيهم هلال العيار فعرف بهروز وعرفهم، وأراد أن يخلصهم من القائد ليعود هو إليهم، ويقبض عليهم لينال الجائزة، ويكون له فضل مجيئهم والعثور عليهم.

فسأل هلال القائد: لم رجعت إلى المدينة؟

فقال القائد: وجدت هؤلاء سائرين فأمسكتهم وسرت بهم إلى الملك الأكبر.

فقال هلال: وكيف تمسك التجار الغرباء وتترك الطريق خاليًا من الرقباء

فتمكن الغرماء من الهرب؟ هؤلاء تجار غرباء وأعرفهم فدعهم في سبيلهم، وارجع أنت وفرسانك إلى الطريق الذي وكل إليك حراسته.

فقال القائد: لقد أكدت في نفسي ما ظننته فيهم، فخذهم أنت مني، وإني لراجع بالفرسان إلى حيث كنت، وكان القائد قد قيدهم.

وخشى هلال أن يفلتوا منه فأدخلهم في مكان خرب بالمدينة وأغلق بابه وكانت جدرانه عالية وليس له سقف، ثم ذهب إلى الملك الأكبر ليبشره ويأتي من عنده بفرسان يأخذونهم إليه، وفي أثناء غيابه قال شياغوش: إن الله حباني بالقدرة على كسر الحديد بأسناني، وسأكسر قيودكم وأحملكم على كتفي إلى أعلى الجدار، ثم تنزلون منه إلى الخلاء فتهربون، وعليكم بعد ذلك تدبير حيلة لخلاصي، ونهض مسرعًا وأطلقهم من قيودهم، وفروا من هذا المكان وجعلوا يركضون حتى بعدوا، وكانوا في حزن أليم لأن شياغوش لم يكن معهم.

أما هلال فإنه بشر الملك الأكبر، ورجع في طائفة من الفرسان وهو يتوثب فرحًا، ولما فتح الباب لم يجد إلا شياغوش، فاندهش وسأله: أين بهروز ومن معه؟ فلم يجبه ولم ينطق بكلمة ولزم الصمت كلما سأله، لأنه أراد أن يطيل معه الحديث حتى يمكنهم من الابتعاد والهرب، وبعد إلحاح وتهديد من هلال قال: إن لهم قصة طويلة عجيبة، ولن أفضي بشيء منها إلا أمام الملك الأكبر، فحملوه ومشوا به إليه، ولما كانوا في مجلسه قال هلال: ذلك شياغوش النقاش وهو من رجال الملك ضاراب، وكان معه بهروز وعين الحياة وسيف الدولة وزوجته، ولكني رجعت إليهم فوجدته وحده، وسألته عنهم فلم يجبني بشيء وقال: إن لهم قصة عجيبة وسأقصها أمام الملك الأكبر، فحملناه وأتينا به، فقال الملك الأكبر: أخبرنا يا شياغوش، أين ذهب رفقاؤك؟ لنعفو عنك.

فقال شياغوش: سأقص عليك ما لا يعلمه أحد، ولن أترك صغيرة ولا كبيرة، لأني لا أحب أن أخفي عنك شيئًا، فأنت الملك الأكبر العظيم الشأن.

فقاطعه الملك الأكبر وقال: إنا نسألك عن رفقائك.

فقال شياغوش: سأقول كل شيء عنهم حتى يتبين لك أمرهم واضحًا وضوح الشمس، فإني نقاش أبدع الصور وأزخرف القصور، ولن تجد أبرع مني إلا أستاذي طيطلوس وزير الملك ضاراب، وهو رجل عاقل حكيم تعلم العلوم والفنون.

فصاح فيه الملك الأكبر وقال: لا تطل في القول وأخبرنا عن رفقائك الذين كانوا معك.

فقال شياغوش: أنت تسألني عن بهروز؟

فقال القيصر: نعم أسألك عن بهروز ومن معه فقل ما عندك.

فقال شياغوش: بهروز هذا ابن الغول، وجده فيلزور في البرية، ولو ذكرت لكم أعمال فيلزور لأخذ منكم العجب مأخذه.

فاغتاظ الملك الأكبر وقال: اترك الهذيان، وأجب عما سألناك عنه، فأين رفقاؤك؟

فقال: يا سيدي هؤلاء لم يكونوا رفقائي لأن طارقًا كان عيارًا عند الوليد ملك «المدينة الصفراء»، ثم رغب أن يكون من عياري الملك ضاراب. وكذلك سيف الدولة لم يكن رفيقي ولكنه ملك قبض عليه غدرًا لخيانة قائديه، وأما عين الحياة، فإنها ستكون زوجة فيروزشاه الذي دوخ بسيفه الملوك وفتح الأقطار، وهاب سطوته من في البدو والحضر.

فغضب طيفور وقال: دعك يا سيدي من هذا الهذيان، وأرسل الجند في أثر الهاربين حتى لا يبعدوا فلا يدركهم منا أحد.

فقال: صدقت يا طيفور، ثم أمر قائدًا من قواده أن يركب في عشرة آلاف فارس ويخرج إلى الطريق للقبض عليهم وعلى كل غريب سائر، ثم التفت إلى شياغوش وقال له: قل ما شئت، فقص عليه قصتهم كما هي حتى كان بين يديه، وأبان له حيلة هلال التي فعلها لينال الفخر والمكافأة، فاغتاظ الملك الأكبر من هلال وقال: لولا سابق خدمتك لي لأمرت بقتلك لأنك كنت السبب في هرب من قتل ابني، وسأكتفي هذه المرة بتعذيبك، ثم أمر أن

يضرب خمسين سوطًا، فلما ضربوه قال له: سيزول غضبي عنك إن جئتني بقاتل ابني، فقال وقد أراد أن ينتقم من شياغوش لأنه كان السبب في ضربه: سآتيك يا سيدي بمن قتل ابنك، ولكن شياغوش شريك في القتل، فاقتله الآن، واقتل كل من أجيئك به منهم، فقال: هذا حسن وأمر بقتل شياغوش فأخذوه وقطعوه بسيوفهم وانتهت بذلك حياته.

أما الجنود الذين ركبوا خلف بهروز، ومن معه، فإنهم جدوا في المسير حتى أدركوهم، وأمسكوهم ما عدا بهروز فإنه انطلق في سرعة الريح بين الآكام حتى غاب عن أنظارهم، وكان ألمهم شديدًا لأنه أفلت وهرب ولم يقدروا أن يمسكوه.

رفعت عين الحياة أكفها إلى السماء وتضرعت إلى الله أن ينجيها من هؤلاء الطغاة الظالمين، وما فرغت من تضرعها ودعائها حتى رأت فارسًا على جواده، و بيده عمود حديدى ثقيل قد انطلق من الوادي انطلاق السهم، وانقض على هؤلاء الفرسان انقضاض العقاب على صغار الطير فبعثرهم على الأرض كالحصا، وجعل كلا منهم يحاول النجاة بنفسه، وأتى إلى عين الحياة فأردفها خلفه وقال لمن معها: سيروا في طريقكم إلى حيث تريدون، فلن تمتد إليكم يد من إنس ولاجان.

ورجع بعين الحياة من حيث أتى وهي لا تعرفه، ورأى بهروز ذلك فجرى خلفه وهو يناديه: قف أيها الفارس، فما التفت إليه، ثم اختفى بها عن أعينهم. فارتد بهروز إلى سيف الدولة ومن معه، ومضى بهم إلى الملك ضاراب ليقصوا عليه ما وقع عسى أن يبين لهم طيطلوس الحكيم سرهذا الفارس الذي خطف عين الحياة، واختفى؛ بعد أن مزق جمع الملك الأكبر وردهم إليه خائبين، ولما قصوا عليه ما حصل شغل هذا الفارس أذهانهم وأوقعهم في حيرة من أمره، أما سرور أبوها فقال في نفسه: الحمد لله الذي أبعد ابني عن هؤلاء القوم الظالمين.

❊❊❊

﴿ ١١ ﴾

وصل بهروز ومن معه إلى الملك ضاراب بأرض أم الروض، ففرحوا لقدومهم، ثم أخذ يقص عليهم ما وقع في أثناء غيبته إلى أن حدثهم عن هذا الفارس الذي خطف عين الحياة، فعرتهم دهشة وحيرة وقلق على عين الحياة التي لم يعرفوا لها مقرًّا، وحزن فيروز لما أصابها حزنًا أليما وقال: لا يحزني إلا جهل مكانها.

فقال له طيطلوس: أعتقد أن الذي خطفها سيحافظ عليها أكثر منك، وأظن أن الذي خطفها هو الذي خطف كليلة مخطوبة بهمنزار عند البير، وأعدك وعدًا صدقًا أني سأردها إليك على أحسن حال. وكان بهمنزار في حزنه على كليلة مثل فيروز في حزنه على عين الحياة، وكان حزنهم جميعًا على فرخو زاد أشد وأوجع. وقد عرفت فيما سبق ما كان من أمر فرخو زاد والأمير دولاب.

وذات يوم كان الأمير دولاب جالسًا في حاشيته، وكان فرخو زاد جالسًا بجانبه، فدخل عليه رسول وناوله كتابًا، فلما قرأه الأمير قال للرسول: سمعًا وطاعة، فخرج الرسول ومضى إلى سبيله، أما الأمير فإنه أطرق في وجوم كئيب؛ فسأله فرخو زاد عما أغضبه وأقلقه فقال: سمعت منذ مدة عن أهل المدينة البيضاء وملكهم وابنه فيروز أن كل فارس منهم مارد من الجان في صورة إنسان، والملك الأكبر يدعوني في كتابه هذا أن أسير إليه بجنودي لمعونته وقتال جنود المدينة البيضاء معه، لأنهم قادمون إليه لمحو دولته وامتلاك بلاده، وإني لا أستطيع الامتناع عن تلبية دعوته، فحزنت لهذه الكارثة التي تنتظرني وجنودي، فإني لا أظن أن أحدًا منا سيعود إلى أهله..

فقال فرخو زاد وقد أراد أن يعرف الأخبار عن قومه ومليكه: هل الملك الأكبر يعرفك إذا رآك؟

فقال الأمير دولاب: ما رأيته وما رآني، ولكني أرسل إليه الجزية كل عام.

فقال فرخو زاد: سأسير إليه على أني الأمير دولاب نفسه، وأقاتل بين يديه، ليكون لك عنده المنزلة والحظوة من دون الأمراء، فقال الأمير دولاب: ولك مني الشكر الجزيل.

سار فرخو زاد في أربعة آلاف من فرسان الأمير دولاب، وانضم إلى الجنود الذين وفدوا من الجهات لمعونة الملك الأكبر، وقد بعث إليه عقب وصوله من أخبره أن الأمير «دولاب» حضر بجنده، وهو ينتظر الأمر بالقتال.

ولبث الملك ضاراب في أم الروض قرابة شهرين، ثم أمر الجيش بالرحيل إلى الملك الأكبر، وبعث شبرلنك ليأتيه بأخبار جنده وأحوالهم وما هم عليه من القوة وكثرة العدد، وأين هم نازلون، فأسرع إليهم وعرف كل شيء عنهم، ثم قفل راجعًا فأخبر الملك بما رآه وعرفه، فقال: رأيت القوم متأهبين للقتال، ووجدت فيهم كثيرًا من جنود ولاياته، وكان الملك الأكبر قد كتب إلى ملوكها يستنصرهم بجنود ففعلوا. فأمر الملك ضاراب بالمسير في نظام يستلفت الأنظار، ونزل أمام جيش الملك الأكبر المعسكر في ضواحي المدينة.

وفي صبيحة اليوم الثاني تأهب الفريقان للقتال، وانطلق إلى الميدان فارس من جيش الملك الأكبر ينادي من يبارزه، وركب بهروز للقائه ولكنه وجد فارسين ملثمين من أطراف جيش المدينة البيضاء قد وقف أحدهما بين الجيشين في طرف الساحة، وأسرع الثاني إلى فارس الملك الأكبر ليبارزه، وشخصت إليهما أبصار الملك ضاراب وفيروز والأمراء والقواد وهم في شوق لمعرفتهما، ودارت مبارزة عنيفة وقتًا طويلا أبدى فيها الفارس الملثم مهارة كانت موضع الإعجاب والدهشة، ولما حان وقت الظهيرة ولم يتمكن أحدهما من الآخر دقت طبول الهدنة وأرجئ القتال إلى اليوم التالي.

وكان فيروز شاه قد بعث بهروز إلى الفارس الواقف في طرف الميدان ليسأله عن نفسه وأخيه، فقال له: إن سيدي فيروزشاه أرسلني إليك ليعرف من أنتما؟ فقال له بلغ سيدك أني وأخي من عبيده الذين لا ننسى له معروفه،

أنا قاهر شاه، وهذا أخي الذي يبارز فارس الملك الأكبر قادر شاه.

فرجع بهروز وألقى إلى فيروز شاه ما سمع؛ فاستبشر وفرح وانتظر نهاية المبارزة ليرحب بهما ويسألهما عن حالهما بعد أن فارقهما. وعن قادر شاه الذي ضل منه وتاه في الجزيرة المسحورة وهما سائران إلى المدينة الخضراء.

انتهت المبارزة، واستدعاهما فيروز، وكان استقبال فيروز وأبيه وحاشيته لهما ينم عن صادق الإخاء وعظيم المحبة، ثم سأل فيروز قادر شاه: ماذا وقع لك بعد أن ضللت مني في الجزيرة المسحورة وتركتك فيها حاملا من أجلك كل غم وخوف؟

فقال قادر شاه: بعد أن تعبت من السير في غير اهتداء إليكم، أويت إلى شجرة عظيمة وارفة الظل، وقلبي يخفق وحشة وخوفًا، لأني لم أجد أنيسًا في سيري وجولاتي، ولما استرحت قليلا في ظلها أخذت أفكر في وسيلة أخرج بها من تلك الجزيرة التي لم أجد فيها أحدًا، والتي خشيت أن أكون طعامًا لوحوشها. وبينما أنا غارق في تفكيري أخرجني منه طائر عظيم حط على الشجرة، وكان قدومه إليها كأنه قطعة من سحاب هاوية، فتذكرت طائر الرخ الذي يعلق الإنسان برجليه ويطير به فينقله من مكان إلى مكان وهو غير شاعر أنه يحمل شيئًا، وصعدت في الشجرة من فوري وأمسكت بيدي رجليه، فلما أحس بهما طار وارتفع في الجو وانطلق بي في الفضاء، وقد أغمضت عيني حتى لا أرى الأرض فيلحقني دوار ترتخي من أجله يداي فأقع على الأرض جثة هامدة. وبعد مدة حط بي على جبل فتركته وانتحيت بعيدًا عنه، ونزلت من الجبل إلى سفحه فوجدت بحرًا واسعًا قد شد إلى شاطئه زورق يدل شكله على أنه متروك في مكانه هذا أكثر من سنة، فظننت أن أصحابه قد ماتوا ولم يكن في هذه الأرض من يأخذه، وركبت فيه وجعلت أضرب وجه الماء بمجدافيه جاريًا في البحر الهادئ على غير هدى حتى رسا بي الزورق على شاطئ أرض كثيرة الأشجار والثمار فمشيت فيها حتى عثرت بفلاحين جالسين في حقلهم، فسلمت عليهم وسألتهم عن أقرب مدينة من مكانهم هذا، فلمحوا على وجهي التعب، ومن سؤالي علامة الغربة.

قادر شاه ممسك برجلي الرخّ

فقالوا: أقرب المدن إليك مدينة الملك ضاراب، فاجلس معنا حتى تستريح ونحضر إليك الطعام لتأكل، فقلت لهم: شكرًا لكم وجزاكم الله خيرًا فإني أود أن أصل إلى المدينة في ضوء النهار، فقالوا: لا بد من ذلك وستدخلها قبل الغروب، لأنها قريبة منا. فجلست بينهم وأحضروا لي طعامًا كان عندهم فأكلت حتى شبعت وشكرتهم وحمدت ربي الذي أطعمني من جوع وآمني من خوف، ثم سألتهم: وأين الملك ضاراب؟ فقالوا: ذهب بجيش كبير إلى المدينة الخضراء وراء ابنه فيروز شاه الذي سبقه إليها منذ مدة طويلة، كتب الله لهما السلامة، فقلت: سلمهما الله وسلمكم، وكتب لفيروز شاه الفوز والنجاح، فإنه شجاع كريم يحمي الضعيف وينصر المظلوم وله عليّ فضل لا أنساه مدى الحياة، فقالوا: وكيف تعرفه وأنت لا تعرف مدينة أبيه؟ فأخذ يقص عليهم قصة فيروز شاه معه ومع أخيه وعمهما، ثم جعل يقص عليهم قصته حتى انتهى إلى جلوسه بينهم، فعجبوا لما أصابه من العناء والتعب وزاد إكرامهم وتقديرهم له، وقالوا أنت ضيفنا حتى تغادر المدينة، وكانوا ثلاثة إخوة يجمعهم بيت واحد.

بات قادر شاه عندهم ليلة، وفي الصباح استأذنهم أن يرجع إلى أخيه في قلعته وكان يعرف الطريق إلى موطنه وموطن أخيه، وجد في السير حتى كان عند أخيه ففرح بلقائه فرحًا عظيمًا، وسأله عن فيروز شاه فقص عليه قصته ثم قال: لا بد أن أسير إليه لأساعده وأؤدي له ما عليّ من الفضل والمعروف، وقال أخي: وأنا معك، وليكن ذلك غدًا، ونهض أخي فأودع زوجته عند أبيها وعمه، ودأبنا في المسير حتى كنا معك في جيشك. وذلك فضلك الذي غمرتنا به وأنت لا تعرفنا ولا نعرفك. وأمر الملك أن يكونا من جلسائه المقربين وأن يضرب لهما صيوان بجوار صيوان فيروز، ولما انفض المجلس قام كل إلى مضجعه.

وأشرقت الشمس واصطف الفريقان وجال في ساحة القتال فارس من فرسان الملك الأكبر ونادى من يبارزه، فأسرع إليه فارس من أطراف جيش ضاراب على جواد شديد السواد، وملابسه سوداء تغطي جسمه، وهو ملثم

بلثام أسود، وأخذ يصاوله ويحاوره مدة من النهار، ثم ضربه بالسيف ضربة قطعته وجواده قطعتين، ثم التفت هذا الفارس الملثم إلى جيش ضاراب وقال له: لا تظنوا أني جئتكم لأساعدكم، ولكن لي شأنًا معكم وشأنًا مع أعدائكم، فإن كان فيكم فرسان شداد تعتمدون عليهم فليبرز لي فارس منهم، فأسرع إليه فارس تبدو عليه القوة والجرأة، ولكن الفارس الملثم لم يمهله حتى قبض عليه بيده ونزعه عن جواده، ثم لكز جواده فانفلت انفلات السهم إلى البرية، واختفى بالفارس الأسير عن الأعين.

وقف القتال وشغل الجيشان بأمر هذا الفارس، ومن هو؟ ومن أين؟ وبات العزم في الجيشين المتحاربين على أن يبرز إليه أشد الفرسان بأسًا في اليوم الثاني، ليأسره ويرجع به إلى قومه ليتبينوه ويعرفوه، فإن اضطر إلى قتله قتله.

وحان موعد المبارزة، وهذا فارس الملك الأكبر في الميدان يلوح بسيفه، ويجول بفرسه صائحًا: إلى المبارزة، من يبارز؟... فأجابه صياح من البرية، وامتدت الأعناق إليه، وإذا الفارس في ملابس حمراء، يجري من تحته جواد أحمر، فلقيه وفعل به ما فعل بزميله من قبل، واشتدت الرغبة في نفس بهمنزار إلى إمساكه وأسره، فنزل إليه ولكن هذا الفارس اختطفه ومضى في سبيله إلى البرية واختفى، وانتهى القتال هذا اليوم، وانتشر الحديث في أمر هذا الفارس في الجيش، أما الملك الأكبر ورجاله فإنهم يقولون: كيف يقتل فرساننا و يأسر فرسان أعدائنا؟ إنه عدو لنا ولهم، ولكن عداوته لنا أشد، ويقول ضاراب ورجاله: إنه لو استمر على هذه الحال لخطف فرساننا الأشداء، ولضعفنا أمام الأعداء.

وقال طيطلوس: لا بد أن يكون هناك سر خفي في أمر هذا الفارس، فإنه يأسر فرساننا وهو قادر على أن يقتلهم، أما فرسان الأعداء فإنه يعجل لهم الفناء.

وبات الفريقان المتقاتلان على أن يرسل الملك الأكبر هلالا العيار يكمن له في طريق عودته إلى البرية ليمسكه إن استطاع، أو يعرف مكانه الذي يأوي إليه فيأتيه فيه بقدة من الجند لأسره ومعرفة حاله، وعلى أن يكمن

فيروز وبهروز في طريقه لإمساكه وأخذه وكشف السر الخفي الذي يحيط به وبأعماله.

وفي اليوم الثالث حضر الفارس الملثم، ومضى هلال العيار وفيروز وبهروز إلى مكامنهم في سبيل عودة الفارس، وكان فيروز وعياره في أول الطريق، أما هلال فكان بعيدًا عنهما ولا يعرف أحد منهم صاحبه ولا أنه خرج ليكمن للفارس في طريقه.

وقتل الفارس الملثم فارسًا آخر من فرسان الملك الأكبر، وأسر قادر شاه من فرسان ضاراب ورجع إلى سبيله، ولما بعد به عن الجيشين اعترضه فيروز وقال له: قف أيها الفارس وعرفنا عن نفسك و إلا أسرتك أو قتلتك، فلم يجبه بكلمة، ولكنه تهيأ لمبارزته، ودارت بينهما مبارزة عنيفة وجد فيروز منه فيها شدة ومهارة لم يجدها في فارس غيره، ولما تمكن منه وهم أن يقضي عليه ألقى الفارس سيفه وقال: عار عليك يا فيروز أن تقتل فتاة، فارتد فيروز عنه حين علم أنه أنثى، ثم قالت: ولا تؤاخذني بما فعلت في الجيشين، فلم يكن ذلك مني إلا لأجلك، وما أردت بمبارزتك سوءًا ولا ضرًا، ولكني أحببت أن أقف على ما منحك الله من قوة وجرأة ومهارة.

فقال فيروز: ومن أنت؟ وكيف كان ما فعلته من أجلي؟!

فقالت: ستعرف كل شيء حين تجلس في قصري وتعرف من فيه، فهيا بنا إليه، ولا تخش ضرًا فأنت عندنا أحب إلينا من أنفسنا، وهو منا قريب غير بعيد. وقد أقمت فيه هذه الأيام لأكون معك في قتال جيش الملك الأكبر، وأحقق أمرًا لك فيه ولنا فرحة إذا أنت علمته.

وكان هلال العيار كامنًا في الطريق وهو بعيد عن ساحة القتال، وساوره القلق لأن الفارس الملثم تأخر عن العودة وغاب كثيرًا عما كان يتوقعه، وبينما هو في يأسه وقلقه سمع أصواتًا لركض خيل قادمة إليه، فانتحى من الطريق ناحية واختبأ فيها ليرى القادمين وهم لا يرونه، ووجدهم أربعة فارسين وراجلين، فعجب وحار في أمره، وتركهم يمضون في سبيلهم حتى فاتوه، ثم مشى خلفهم خفية ليعرف إلى أين يذهبون وفي أي مكان يقيمون! وماذا

عسى أن يفعلوا بعد أن يطمئنوا في أماكنهم؟! وكانوا لا يعرفون أن أحدًا يتبعهم في سيرهم ويقتفي آثارهم، فإن الظلام شديد، ولا يخفف من شدته إلا ذلك الضوء الضئيل الذي يسيل من النجوم اللامعة في السماء.

وصلوا إلى القصر وطرقت الباب ففتحه خادم معمر عجوز، فدخلوا وألقت في أذن الخادم قولا، ثم قالت لفيروز: اذهب حيث يجلسك الخادم أنت وصحبك وكل ما يلذ لك من الطعام حتى أبدل ملابسي وأجيء إليكم، وسار الخادم وفيروز وصحبه من ورائه حتى أجلسهم في غرفة حول مائدة حافلة بألوان شهية من طعام فاخر، وأراد فيروز أن يأكل منه فقال بهروز: انتظر يا سيدي، فنحن وإن كنا في مأمن، ولكن الحيطة واجبة، ثم أمر بهروز الخادم أن يأكل من أنواع الطعام جميعه قبلهم، فأكل في رغبة وجرأة، ولما اطمأنوا أكلوا وشبعوا وهم في عجب من أواني المائدة الذهبية التي لا توجد في قصر أعظم الملوك، وبعد أن طعموا واستراحوا جاءتهم الفتاة التي كانت في هيئة فارس ملثم وقالت: تعال معي يا فيروز إلى حيث تلقى فرحة القلب، فتبعها حيث تسير وبهروز من خلفه وسيفه في يده يحرس فيروز شاه، ويستعد لأن يدفع عنه أي ضر يبغته، حتى وقفت به أمام غرفة فسمع من داخلها: عجبًا لهذه الأيام! يسقط حب الفتاة منا على نبل ومروءة ورجولة وخلق قويم في نفس رجل فتنشده زوجًا لها، ولكن الأيام تقف في سبيلها، وتسقيها العلقم في سعيها!! كأن الأيام أقسمت ألا تنال الفتاة غايتها من رجل عف كريم حتى تدفع الثمن نقدًا من عذاب أليم!!

عرف فيروز في هذا الصوت عين الحياة فعرته فرحة في دهشة، وأذن له الخادم بالدخول، فاجتاز الباب ومن خلفه بهروز، ووقعت العين على العين، وخفق القلب لخفقان القلب، وتجاوبت ابتسامتان ناطقتان بفرحة اللقاء، وعجب عظيم من طبائع الأيام، وأخذته بيدها وأجلسته على كرسي من العاج بجانب كرسيها، وهنأته بسلامته، وهنأها بسلامتها، وبهذا اللقاء الحميد. ثم جاءتهم الفتاة صاحبة القصر وجلست إليهم فرحة بما فعلت. ثم سأل عين الحياة عما وقع لها، وكيف جاءت هذا القصر وأقامت فيه؟

فقالت: ليس في هذا القصر رجل غير ذلك الخادم العجوز المعمر، وهذه الفتاة الكريمة هي التي شردت جماعة الملك الأكبر، وانتشلتني من بينهم، وطارت بي إلى هذا القصر في أكمل راحة وأهنأ عيشة، ويقوم بخدمتي هذا الخادم وفتاتان أخريان، وقد سألتها أن تذهب بي إليك في جيش أبيك فقالت: سآتي به إليك في غرفتك هذه، وانتظرت والأمل في لقائك يلمع في جنبات نفسي حتى كان هذا اللقاء السعيد، وكان فيروز قد نقع نفسه بالنظر إلى الفتاة صاحبة القصر، وغلب على ظنه أنها من بنات الجان فسألها: لم فعلت ما فعلت من خطف عين الحياة، ومن القتل والأسر في ميدان القتال؟

فقالت: سأرفع ستار الخفاء عن كل شيء تريد أن تعرفه.

ثم سكتت برهة وأنصتت، ثم قالت: إني أحس شخصًا ينساب حول القصر انسياب الأفعى كأنه يتجسس، ثم ذهبت إليه وسألته: من أنت؟ فقال: إني عيار من رجال الملك ضاراب، وقد خرجت باحثًا عن فيروز شاه لأنه غائب عن جيش أبيه، فلم تصدقه، وقبضت عليه وحبسته، ثم أخبرت فيروز شاه؛ فقال: أحضريه بين أيدينا فإن كان من عياري أبي عرفته، فأمرت الفتاة أن يؤتى به.

دخل هذا الشخص، فلما رآه فيروز عرفه وقال: وقعت يا هلال وما أوقعك إلا الباطل الذي تخوض فيه مع الخائضين؛ ثم قال للفتاة: هذا عيار الملك الأكبر وهو أمكر عياريهم وأمهرهم حيلة، وأكثرهم خيانة وغدرًا.

فقالت الفتاة: وماذا تريد أن أفعله به؟

فقال فيروز: أريد أن آخذه إلى أبي بعد أن تقطعي أنفه وأذنيه، فإنه يريد أن يعجل بقتل اثنين: هلال العيار هذا، وطيفور وزير سرور. فنفذت في الحال رغبته، وقطعت أذنيه وأنفه، وحبسته في غرفة مكتفًا؛ ثم رجعت وجلست تقص عليه قصتها فقالت: إني من بنات الجان واسمي المرهفة، ولي أخت شقيقة اسمها جهان، وهي أجمل من وقع عليها نظر إنسان، ولنا في القلعة التي أخرجت منها الكنز مكان نأتيه أحيانًا للراحة والاستمتاع بالعزلة، وقد كنا في القلعة ساعة أن كنت فيها لإخراج الكنز، فرأتك أختي جهان فقالت

لي: ليس لي من دنياي إلا أن يكون لي ولد من هذا الإنسان يتصل عمره بأعمارنا، وأرجو منك يا أختي أن يكون لك فضل هذا بسعيك المشكور في تحقيق رغبتي وزواجي من فيروز.

فقلت لها: اطمئني فسيكون زواجك منه قبل زواجه من عين الحياة التي أثار الحروب من أجلها في بقاع متباعدة، ومن ذلك الحين لزمتك في غدوك ورواحك، ويقظتك ومنامك، وألزمت نفسي أن أكون معك في كل معركة، وأن أدفع عنك ما يؤلمك أو يضرك، وأنا التي خطفت كليلة عند البئر، وأنا التي خطفت عين الحياة من جماعة الملك الأكبر ونجيت من معها، وأنا التي كنت أردت أن أسحق جيش الملك الأكبر، ولكنك أسرعت وكمنت لي في طريقي، وكان هذا اللقاء، فماذا ترى؟

فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال: يسرني أن أحقق وعدك وأمنية أختك، ولكن الأمر في هذه المسألة بيد عين الحياة لا بيدي، فإن رضيت بزواجي من أختك كان ما أحببت ورغبت، وإلا فلا مطمع لها فيما رغبت.

فالتفتت المرهفة إلى عين الحياة التفاتة السائل الذي ينتظر الإجابة، فقالت عين الحياة: لقد اتفقت أنا وأختك جهان في الغرض من الزواج، وهو غرض تتحقق به سعادتي وسعادتها، إذ أن الحسد والغيرة لا وجود لهما في هذا الغرض النبيل، ولو أن فتاة سمت بنفسها إلى هذه الغاية من الزواج لرضيت بها زوجة ثالثة، ولهذا فإني سعيدة بأن تكون أختك زوجة لفيروز شاه، وأن يكون زواجها قبل زواجي، وبعد هذا فإني لا أنسى ما لك من الفضل علي، ولا أجحد هذه النعمة التي لا أزال أتقلب في ظلها حتى هذه الساعة.

وفرحت المرهفة ونهضت إلى أختها فبلغتها ما قيل في شأنها، وجاءت بها إلى فيروز وعين الحياة، فجلست بين مظاهر الإعجاب والفرح، فلما رآها أعجب بها، ولكن قلبه لا يزال عامرًا بالميل إلى عين الحياة، ثم قال للمرهفة: أود أن تأتيني بمن عندك من فرساني، فغابت قليلا و رجعت ومعها: بهمنزار، وقادر شاه، وعبد القادر المغربي الذي أسرته أول يوم، وكانت كليلة حاضرة فلما رآها بهمنزار فرح فرحًا عظيمًا كما فرحت به هي.

أما هلال العيار فإنه وجد شمعة مضاءة في غرفته التي حبسته فيها المرهفة، فأحرق بها الحبال التي قيدته بها وكتفته، ثم فتح الباب خفية وأسرع إلى الملك الأكبر فأخبره ما فُعل به وقال: أرسل خمسين ألفًا على فيروز وعين الحياة ومن معهما قبل أن يغادروا القصر، ويرجعوا إلى الملك ضاراب، فأمر في الحال أن تجهز الجنود، ويسير بهم هلال العيار في منتصف الليل، حتى لا يشعر بهم أعداؤهم، وليبغتوا من في القصر عند الصباح. وتألم فيروز من فرار هلال فقالت المرهفة: لا يهمك فراره؛ فإني أستطيع أن أحضره إليك في أية ساعة من ليل أو نهار.

وأرسلت المرهفة نظرها في الفضاء في الصباح الباكر فرأت هلالا العيار مقبلًا في ألوف من الفرسان، فأدركت أنه فر ليلًا ليأتيها بجنود ينتقم بهم منها ومن فيروز، فذهبت إليه وأخبرته وقالت: إن شئت فمرني أن أسير إليهم لأبيدهم أو أشردهم، فقال لها: أود أن نحاربهم جميعًا وبعد أن ننتهي منهم نسير إلى أبي، فإنه الآن قلق من أجلي. فأحضرت المرهفة الخيل وركبوا، وكان جيش هلال العيار قد قرب من القصر وانطلقوا إلى الجيش في صياح كزئير الأسود، وجعلوا يحصدونهم حصدًا، فاضطرب الجيش، وفزع ولاذ بالفضاء هاربًا، وانقض بهروز على هلال وهو يحاول الهرب، فأمسكه وجاء به إلى فيروز، فقال له: حافظ عليه حتى نأخذه معنا إلى أبي، وانتهى أمر هذا الجيش بالهزيمة المنكرة.

ركب فيروز وجميع من معه، والمرهفة وأختها جهان، وساروا إلى الملك ضاراب في جيشه، فاستقبلوا بالحفاوة البالغة والفرح العميم؛ وعرف فيروز والده بالمرهفة وأختها وما قدمته من المعونة، فشكر لها فضلها ومعروفها، وكان سروره بها وبأختها وبعين الحياة عظيمًا، وأمر فأعدت لهم بيوت فاخرة للمقام فيها، ثم قال الملك ضاراب: أحمد الله الذي أمدنا بنصره ومعونته، وحفظ لنا فرساننا وأمراءنا، وأرجو منه أن ييسر لنا سبيل العثور على فرخو زاد وشياغوش، فقال بهروز: أما شياغوش فقد استأثر به الله ونقله إلى رحمته، ثم حكى له قصة موته، فبكى عليه الحاضرون وحزنوا حزنًا أليمًا؛

وأمر الملك أن يأتوه بهلال العيار لمحاكمته، فلما حضر جعل يذكر له مواقف خيانته وغدره وهو مطرق لم ينطق بكلمة، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: ما جزاء هذا الخائن الغادر؟ فقالوا: جزاؤه أن يقتل، فأمر الملك بقتله، ثم قال: إن أبغض الأشياء عندي أن آمر بسفك دم إنسان، ولكنه الآن قصاص واجب، وللناس فيه حياة وعبرة، فأخذه بهروز وقتله ثم دفنه.

وزار فيروز عين الحياة في قصرها ليقف على مبلغ راحتها، وليسألها عن حاجة لها تريدها، فقال لها: لعلك قد استرحت واطمأن قلبك إلى هذا المصير؟!!

فقالت عين الحياة: كملت راحتي واطمأن قلبي ما عدا شيئًا واحدًا لن أذوق للدنيا لذة من دونه، فقال: وما هو؟

فقالت: إن أبي غذاني مولودة، وعالني يافعة، ورباني فأحسن تربيتي، ومن الحق والبر به ألا أخرج عن طاعته، وألا أوثر أمرًا لنفسي لا يريده، وألا أبني سعادتي على أساس من شقائه.

فقال فيروز: ذلك هو الحق، ولن أرضى لك غيره، فما تخافين؟

فقالت عين الحياة: إني أعرفك رجلًا شهمًا كريم الخلق، ولكني لن أتزوج منك حتى يرضى أبي فهو ولي أمري، ولا بد أن أجمع بين رغبتي ورضاه، فإن لم أستطع آثرت رضاه وطاعته على رغبتي؛ وأعتقد أنه يحبك ويقدرك، ولكن أضله، وزيره وسد أمامه مسالك الهدى والرشاد.

فقال فيروز: إن كان الذي يغيظك بُعد أبيك، فإني سأسعى في استخلاصه من رجال الملك الأكبر، وإحضاره إلينا والعفو عنه من أبي ليكون زواجك بيده وبأمر منه؛ أما وزيره طيفور فسيلقى من أبي جزاء ما اجترحت يداه.

فابتسمت وقالت: ذلك ما أرجوه منك، فأنت تحس ما بينك وبين أبيك من عظيم المحبة وخالص الطاعة له، ولا أحب أن أكون من أبي أقل شأنًا منك في ذلك، وعهدي بك أنك رجل نبيل، وتحب النبل أين يكون.

فقال لها: لن يكون إلا ما تريدين، ولن يكون شيء إلا بإرادة أبيك إرادة حرة كريمة. فقالت له: طبت وسلمت أيها الشهم الأبي الكريم.

﴿ ١٢ ﴾

وبعد هزيمة جيش هلال العيار وارتداد فلوله إلى الملك الأكبر أيقن طيفور الخبيث أن رجال الملك الأكبر لا ثبات لهم، وأن أجل دولتهم قد حان وما بقى من عمرها إلا يوم أو يومان، وأنه واقع في أيدي رجال المدينة البيضاء وملاق عندهم حسابه، فدخل على منكوخان في صيوانه وهو قائد جيش لأحد حلفاء الملك الأكبر الذي أرسله هذا الحليف لمعونته تلبية لرجائه فقال له: لقد رأيت بعينيك رجال الملك الأكبر لا ثبات لهم أمام جيش ضاراب، ولا يرضيك أن يحمل جيش أنت قائده الأكبر أعباء القتال وحده، ثم يصيبه التمزق في تلك البلاد الغريبة، وأرى أن تطلب الأمير طمهور من الملك الأكبر، وتشارك جيشه في القتال ساعات قليلة، يكون همك فيه أسر أمير أو أميرين من فرسان ضاراب، ثم تفر بجيشك إلى بلادك، وحينئذ سيتبعك جيش ضاراب لاستخلاص أسراهم، فإذا كانوا في بلادكم أحاطت بهم جنودكم وسحقوهم، ولم يبقوا منهم أحدًا.

فأعجب منكوخان هذا الرأي وقال: أعظم بك من وزير حازم واسع الرأي حسن التدبير. ولا بد أن أذكرك عند مليكي لينزلك عنده المنزلة اللائقة بك. وبات منكوخان عازمًا على أن ينفذ ما أشار به طيفور.

وفي صباح اليوم التالي قامت الحرب، ووجد منكوخان قائد جيش هذا الحليف أنها ثقيلة الوطأة، وأن جيوش الملك الأكبر في طريقهم إلى الزوال، فوصى قواده أن يخطفوا بالكلاليب من أمراء ضاراب وفرسانه والمحاربين من يستطيعون خطفه، ثم يرتدوا بالجيش إلى بلادهم راجعين، ثم انتهى اليوم وما استطاعوا أسر أحد من رجال ضاراب.

وكان ضاراب فرحًا بهذا النصر العظيم إلا أنه أبدى ألمه لغيبة فرخو زاد، وزاد ألمه وتوجعه أنه لم يعرف مكانه، فقال بهروز: ربما كان فرخو زاد هو

الذي ظننته، فقد رأيت في صفوف الملك الأكبر فارسًا كأنه هو في حركاته وضرباته وشكله، فظننته فر خوزاد، ومما زاد ظني وقواه أني رأيته يكف عن أي فارس من فرساننا يقع في يده، ولا يتصدى له، ولا يؤذيه، ولولا أني حريص على ملازمة سيدي فيروز في القتال لتبعته وعرفته.

فقال الملك: ليس ببعيد أن يكون فرخو زاد، وعلى بدر فتات أن يعرف لنا من هذا الفارس؟ وإن لم يجده فرخو زاد سعى في البحث عنه ودعاه إلينا إذا وجده. وانفرط عقد المجلس وذهب كل إلى صيوانه.

وعرفت عين الحياة أن الحرب في ذلك أكلت من جيش الملك الأكبر كثيرًا، وأنهم في ضيق وشدة من أمرهم، وأن الملك الأكبر يلعن الآن ويسب كل من كان سببًا في قدوم ضاراب وجيشه إلى بلادهم، فدعت إليها فيروز وقالت: ماذا فعلتم برجال الملك الأكبر؟

فقال فيروز: أذللناهم ومحونا الغرور من نفوسهم، وسنفتح المدينة بعد يومين على الأكثر.

فقالت عين الحياة: إن الحرب طائشة، ولا عقل لها، وأخشى أن يصاب أبي بمكروه فأعيش حزينة باكية؛ فابعث إليه من يسترضيه ويأتي به إلينا.

فقال فيروز: لا تخافي، وسأجتهد في إحضاره، وأحب أن تكتبي إليه كتابًا تطلبين مجيئه وتخبرينه فيه أنه سيكون بيننا عزيزًا مكرمًا، وسأرجو من أبي أن يكتب إليه بالصفح عنه، وبدعوته إليه ليعيش فينا عزيزًا مكرمًا.

كان الملك سرور ساعتئذ قد انتبه من غفلته، وبان له وجه خطئه وأخذ ضميره يؤنبه، إذ اتبع فيما سلف خطوات شيطانه طيفور وزيره، وتمنى أن يلقى الملك ضاراب، ولكنه لا يعرف السبيل إلى تحقيق أمنيته.

كتبت عين الحياة كتابها إلى أبيها، وكتب الملك ضاراب كتابه إليه، وأخذهما فيروز وقال لعياره بهروز: أعط الملك سرورًا هذين الكتابين، وبلغه أن فيروز وعين الحياة يحبان أن تجيء إليهما لتكون لهما أبًا عزيزًا، لك عندهما كل إجلال وطاعة، كما تبلغه أن أبي قد عفا عما سلف منه، ويحب أن يكون بجواره أخًا كريمًا.

فقال بهروز: وسآخذ معي العيارين لأني عازم على أن أفعل في جيش الملك الأكبر شيئًا تهتز له البلاد.

فقال: خذ من شئت وافعل ما بدا لك.

جمع بهروز العيارين وتنكروا في زي رجال الملك الأكبر، وذهبوا ليلا إلى جيشهم، ودخلوا صيوان فرخو زاد وأيقظوه من نومه، فنهض قائلا: من أنتم؟

فقال بهروز: نحن من تعرفهم ويعرفونك، وتحبهم ويحبونك أرسلنا من أنت مِن أعز الناس عنده، ومن أحبهم إلى قلبه، لندعوك إليه حتى يطمئن عليك.

فقال فرخو زاد: وكيف أعرفكم وأنا ما رأيت أحدًا منكم قبل الآن.

فقال بهروز: لقد رأيتنا وأقمت فينا، ثم كشف اللثام عن وجهه، فقال فرخو زاد: أنت بهروز؟ قال: نعم، وهؤلاء أصحابي العيارون بعثنا إليك الملك وابنه فيروز والوزراء والأمراء الذين أوجعهم فراقك، وبرح بهم الشوق إليك، فقال: وإن ما بي من الشوق والحنين أعظم وأكبر ثم نهض واقفًا مستعدًا للسير معهم، فقال بهروز: سر أنت وأحدنا، وانتظرنا عند أطراف جيشنا، أما نحن فلنا عمل في جيش الملك الأكبر سنؤديه، فمضى هو وأحدهم إلى حيث ينتظرهم.

ومشوا إلى كل من الملك الأكبر ووزيره وأمرائه والوليد فذبحوهم بالخناجر في صواوينهم، ثم دخلوا على الملك سرور في صيوانه فخاف منهم وظنهم عيارين من المدينة البيضاء فقال: لا تؤذوني واحملوني إلى ملككم معتذرًا تائبًا، فإن عفا عني فقد تفضل بالعفو، وإن قتلني فذلك ما أستحقه وما ظلمني.

فقال بهروز: لا خوف عليك اليوم، فقد عفا عنك الملك، وهذا كتابه وكتاب ابنتك عين الحياة.

فأشرق وجهه سرورًا بعد أن قرأهما وقال: ذلك ما كنت أرجوه من ربي والحمد لله الذي من علينا به.

فقال بهروز: خذ أولادك وسر مع أحدنا وانتظرونا عند أطراف الجيش مع فرخو زاد، لأننا ذاهبون إلى وزيرك الخبيث طيفور.

فقال سرور: انتقم الله منه، وهذا صيوانه بجواري - ودلهم عليه - ثم مضى هو وأولاده، وذهبوا هم إلى طيفور، فوجدوا طارقًا العيار قد سبقهم إليه وبنجه ولقيهم على باب الصيوان يحمله مكتفًا مقيدًا، فساروا جميعًا إلى حيث ينتظرهم فرخو زاد والملك سرور. ولما كمل جمعهم ساروا إلى صيوان الملك ضاراب، وكان الفجر قد هبت نسماته وبدت طلائع ضوئه، فأيقظه حارسه وبلغه أمر القادمين، فأذن لهم بالدخول فدخلوا وأجلسهم، وكانت ملامح الفرح لقدومهم مشرقة في وجهه، وحكى له بهروز ما فعلوه بالملك الأكبر ووزرائه وأمرائه، وقالوا: إنا وجدنا الملك سرورًا يشكو إلى الله في خلوته ما أصابه من الضرر بسبب وزيره، ويضرع إلى الله أن يصلح ما بينه وبينك، وأن يجمع شملكما، ويقر عين فيروز شاه بابنته عين الحياة، وكان سروره عظيمًا حين وجدنا قادمين لأخذه، وإنقاذه من الروم الذين أصبح ظله ثقيلًا عليهم بعد أن قتل ابن ملكهم الأكبر.

فقال ضاراب: الحمد لله الذي أخرجه من تضليل وزيره، وما كنا نريد به شرًا، وعفا الله عما سلف، وما له في نفوسنا إلا كل إجلال ومحبة، فاجعلوا له صيوانًا يليق به، وسيروا به إلى ابنته لتفرح بلقائه.

فقال سرور: شكرًا لك أيها الملك، على هذه المغفرة الكريمة، ومعذرة مني إذ أضلني وزيري، وجعل بزخرف قوله غشاوة على عيني فما أبصرت نور الهدى، والحمد لله الذى أخرجني من ظلمات خبثه، وأزاح عن فيروز شاه مكره وكيده.

فقال ضاراب: إنا مقدرون لابنتك عين الحياة نبلها، وسمو نفسها، وحرصها على البر بك والوفاء لابني، فقد كانت بذلك مثلًا للإنسانية السامية في أشرف فتاة.

وكان الملك ضاراب قد بعث من يدعو إليه ابنه فيروز شاه ووزيره طيطلوس، وأمراءه، فحضروا وعرفوا ما فعله العيارون، وسمعوا ما دار

من الحديث، ثم أمر أن يؤتى بطيفور الماكر الخبيث، فأدخلوه مكتفًا تعلو وجهه غبرة خزي ونكد، فقال له ضاراب: كيف حالك الآن يا طيفور؟ لقد أوقعك الله في يد من كانت رفعتك وسعادتك على يديه لولا ما قدمته من المكر السيئ، والعمل الخبيث الذي ساقك إلى النكد والعذاب أو الفناء.

فقال طيفور في جراءة: ما فعلت إلا ما فرضه عليَّ الواجب لسيدي الملك والوفاء له، وما كنت أبغي من وراء ذلك إلا حمايته من أن يُهان أو يُذل أو تُداس كرامته، وذلك شأن كل وزير وفي أمين، وإن كنت قد أخطأت في تدبيري فذلك من سوء حظي، ولكني ما خرجت بخطئي عن القيام بالواجب لسيدي، وإن كنت قد ظلمت بخطئي، فما أنت ممن يظلم، وقد عرفت الحق، وإن عفوك أقرب إلى نفسك الكريمة من أن تعاقبني بخطأ أوقعني فيه الجهل وقصر النظر، وما كنت أكره سيدي الملك على رأي أبديه، ولكنه يسمعه ويسمع غيره، فيختار ما يشاء، وحينئذ تجب عليَّ طاعته.

فقال ضاراب: ما أعظم خطرك!! وسأدع محاكمتك الآن، وسيعرض أمرك على مجلس الشورى بعد أن نفتح المدينة، ونقضي على الأعداء.

أشرق الصباح وذاع في جيش الملك الأكبر وجيش حليفه نبأ قتل الملك الأكبر والوزراء والأمراء والوليد فهالهم ما حدث، ومحا من نفوسهم البقية الباقية من الأمل في نصرهم، وعزم قائد جيش الحليف أن ينفذ ما رسمه له الوزير طيفور فقال لقواده: لا ثبات لنا أمام جيش ضاراب، ولا طاقة لنا بقتالهم، وقد رأيت أن أحتال لرحيلهم إلى بلدنا لنقاتلهم فيه. وذلك أن تحاربوهم بعض ساعات، ولا يكون هدفكم من القتال إلا أن تخطفوا بالكلاليب فارسًا أو أكثر من كبار فرسانهم وأمرائهم، ثم ترجعوا إلى الوراء مهزومين حتى تجتمعوا، ثم تركبوا السبيل إلى بلدنا، وحينئذ سيتبعوننا ويقتفون آثارنا إلى أن يحطوا رحالهم في بلدنا، وهناك تنهال جيوشنا عليهم، ولا نبقي منهم أحدًا.

بدأ القتال ونفذ جيش الحليف خطتهم، وأسروا من رجال ضاراب قادر شاه و بهمنزار وسيامك، ثم ارتدوا على أدبارهم وركبوا سبيلهم إلى بلدهم

ورأى جيش الملك الأكبر فرار جيش الحليف هاربًا بعد قتل ملكهم الأكبر، وكبار وزرائه وأمرائه، ووجدوا أنهم لا أمل لهم في أن يغلبوا، فرفعوا أعلام السلام، وصاحوا: الأمان. الأمان.. وفتحوا أبواب المدينة، فدخلها رجال ضاراب وهم ظافرون.

ومضى الملك ضاراب في حفل من الجيش وأهل المدينة إلى مقر الملك الأكبر. ودخل قصرًا ضخم البنية ممتدًا في السماء واسع الأفنية والأبهاء، زينت سقفه وغرفه بما أبدعته يد التصوير من الرسوم والصور، غصت بألوان الفرش والرياش، وقام هذا القصر وسط حديقة جمعت من ألوان النبات وصنوف الأزهار ما أبدعته يد الخالق، وكانت الأشجار الباسقة تتخللها، وكأنها وقفت من حول القصر إجلالا له. وكان إلى جانب حديقته قصور أخرى تحاكيه في الجمال والروعة. فأمر الملك أن يطمئن الوزير والأمراء في تلك القصور. وأن يسوسوا المدينة سياسة عدل ورحمة، لا تشوبها شائبة من غلواء المنتصر، وصلف الغالب المستكبر ولم يجد الملك فيهم قادر شاه و بهمنزار وسيامك، فسأل عنهم فقيل: إن قائد جيش الحليف اختطفهم في أثناء القتال بالحيلة وفر إلى بلده، فقال: لعله أراد بذلك أن نتبعه لنقضي على جيشه في عقر داره، وقال أحد أمراء الملك الأكبر: وقد أخذ معهم الأمير طمهور، ويظهر أن الذي فعله كان قد بيت العزم عليه، فغضب الملك وقال: وما أظن أحدًا دله على ما فعل إلا الوزير الخبيث طيفور الذي لا يفتأ يلسع كالعقرب، وأدعو الله أن ييسر لنا سبيل خلاصهم.

عقد الملك مجلس الشورى من رجاله وحاشيته وقال لهم: أريد أن تنظروا في أمر طيفور وتحكموا عليه بما يستحقه، فإني لا أحب أن أقتل النفس ظلمًا، ولا أن أكون حاكمًا مستبدًا، فإن الله جعل السلطان خليفته وواجب عليه العدل في حكمه.

أمر طيطلوس أن يؤتى بطيفور، فجئ به مقيدًا، فلما دخل قال: حياك الله أيها الملك العادل الذي أقامك الله في الناس رحمة، فرد الملك تحيته وقال: إنما ننشد العدل والرحمة ما استطعنا، وقد عقدت لمحاكمتك مجلسًا من ذوي

الرأي والمشورة حتى أكون بريئًا من اتباع الهوى في شأنك، وما يحكمون به لك أو عليك فإني مبرمه وقاض به، فقال: ذلك ما رغبت فيه، وأسأل الله تعالى أن يظهر براءتي، فليستمع المجلس لما أقول: إن الملك سرورًا أبدى كراهيته لفيروز شاه وعدم رغبته في أن يتزوج من ابنته وطلب مني أن أدبر له الأمر حتى يباعد بين فيروز شاه وبنته عين الحياة، فما وسعني ألا طاعته، والإخلاص له لأني وزيره الأمين على تحقيق ما يرغب فيه.

فقال الملك سرور: لقد كنت أحب فيروز شاه وأقدر فضله علينا وكنت شديد الرغبة في أن أزوجه ابنتي، ولكنه أبى وقال: إن ذلك يحط من قدرك ويمحو ما لك من شرف وكرامة بين الملوك، وحبب إلي بزخرف قوله ما وقعنا فيه من البلاء.

فقال طيفور: وهل سمعتم أن وزيرًا يرغم الملك على أمر لا يريده؟ أو يصرفه عن أمر يحبه ويهواه؟! إني ما كنت إلا مجاريًا له في رغبته مطيعًا لأمره، وهل الوزير طيطلوس يخرج في شئون سيده الملك عن رغبته وطاعته؟!

فقال طيطلوس: ولكن الوزير له حق النصح والهداية إلى الصواب، وإن خالف الملك نصحه فليعمل على إقناعه بما أوتي من قوة الحجة، ولا يسكت على خراب البلاد كما فعلت أنت يا طيفور، وأعتقد أنك لو أخلصت للمليك،النصيحة، وبذلت الجهد في إقناعه لأطاعك.

فقال طيفور: نصحته كثيرًا ولما لم يستمع لقولي حملت أثقال أوامره قيامًا بواجب الولاء له. فالمسئول عن هذا كله الملك سرور.

فتقدم فيروز شاه إلى المجلس وقال: جاء هورنك في جنده إلى المدينة الخضراء ليقاتل الملك سرورًا، فأشار الملك أن يطلق سراحنا، ويعطينا أسلحتنا لندفع عنه هورنك وجنوده، فأبى طيفور الخائن إلا أن يسلمنا إلى هورنك ليقتلنا، ويكون ذلك أساسًا للصلح بينهما.

فقال طيفور: نعم حصل هذا، ولكني فعلته لأنجيك وأخاك فرخو زاد من قتل محتوم كان الملك سرور قد أصر عليه، فأشرت بذلك وقلت في نفسي: لعل الله يجعل لكما سبيلًا للنجاة من هورنك كما نجا بسببي من الملك سرور.

فقال الملك سرور: إني أشهد عليه أني حينما عرفت أنهما من بيت الملك أردت إطلاقهما، ولكن طيفور منعني، وكم بغضني في فيروز شاه ورماه بكل دنية، واستخدم عرض ابنتي وسيلة لكرهه، لأنه دأب على أن يقول: إنه جاء ليسبي ابنتك، ويتزوج منها على الرغم منك، وتكون بذلك سبة بين الملوك... فاضطررت أن أقف من بنتي موقف الحفيظ الحامي.

وجعلوا يذكرون له أعماله الخاطئة عملًا بعد آخر، وهو يدافع دفاع الجاحد المنكر حتى أثبتوا عليه الخيانة وحكموا بإعدامه. وسلموه إلى بهروز لينفذ فيه حكم الإعدام.

أمر بهروز أن ينادي في المدينة: سيقتل طيفور غدًا في مكان... فمن أراد أن يشهد مصرعه فليحضر.

ماجت المدينة فرحًا بهذا النداء، وفي الوقت الموعود كان المكان غاصًا بالناس ليستمتعوا بقتل هذا الخائن الذي أهلك بخبثه العباد وخرب البلاد.

وأمر بهروز الفرسان أن يضربوه بالسياط حتى يذوق العذاب، فأوجعوه ضربًا حتى كاد يموت، ثم أمرهم أن يقطعوه بخناجرهم، فقطعوه وذهب إلى النار وبئس القرار، وكان موته شفاء للناس ورحمة.

***

﴿ ١٣ ﴾

أقام الملك في المدينة، ودانت لطاعته واطمأنت لحكمه، ورأى أن يقيم الأفراح لزواج ابنه فيروز، وأصحابه من الأمراء ليفرغ إلى قتال الملك الحليف، واستخلاص الأمراء الذين خطفهم قائده وفر بهم.

فجمع مجلس الشورى وقال: كنت أود أن أعود إلى المدينة البيضاء، وأقيم فيها حفلات الزواج، ولكني مضطر إلى البقاء لتنفيذ ما عزمت عليه من الرحيل إلى الملك الحليف، ورد أمرائنا الذين أسرهم قائده خديعة وغدرًا، ولهذا رأيت أن يكون زواج فيروز وأصحابه الأمراء في هذه المدينة، وأراني الآن مضطرًا إلى أن أحضر والدته تمرتاج لتشهد زواج ابنها وتفرح به، كما أحضر الملك سليمًا ليشهد زواج أنوش ابنته من فرخو زاد، وأحضر كليلة وكومندان وتاج الملوك وطوران تخت لأزفهن إلى الأمراء الذين طلبوا الزواج منهن!

فقال المجلس: خيرًا رأيت، فلنبادر بإحضار من رأيت.

وقال طيطلوس: يركب بهزاد في خمسة آلاف فارس ويذهب لإحضارهم، فإن البلاد وإن أصبحت في طاعتنا، فإن الحزم يقضي أن نأخذ الأمور بالحيطة والحذر، فربما وقع لهم في الطريق ما لم يخطر لنا على بال.

فقال الملك: أصبت في التدبير أيها الوزير الحكيم، وأمر الملك بهزاد فركب في فرسانه ورحل.

وتقدم خورشيد إلى الملك وقال له: لقد بعثت في طلب تاج الملوك بنت النعمان لأن بيني وبينها عهدًا أن أكون لها زوجًا، كما بعثت في طلب كومندان بنت أحد الملوك التابعين للمدينة الصفراء لأن بيني وبينها عهدًا مثله اضطرني إليه ما رأيته على يديها من الخير، ولكني لا أحب أن أجمع بين زوجتين كما لا أحب أن أنقض عهدًا أبرمته، فماذا ترى؟

فقال الملك: إذا جاءتا فاختر منهما من أحببت، ودع الثانية لأزوجها من أمير غيرك لا يقل عنك شأنًا.

وكان خورشيد يعرف أن كرمان شاه يحبها فقال: إنهما عندي في منزلة سواء، ولكني أفضل من كانت أسبق عهدًا من الأخري، وأرى أن تكون كومندان لابن عمي كرمان شاه وهو أولى الناس بها، وبذلك تكون قد استبدلت في خيرًا مني، وكان كرمان شاه حاضرًا، فالتفت الملك إليه وقال: وماذا ترى؟ فقال: ذلك ما كنت أريده ولكني لم أفض به إلى أحد، ولم يمتد إليه طمعي احترامًا لابن عمي، ووقوفًا عند حدي، واجتنابًا للعدوان، لأنه من المحرم أن يخطب المرء على خطبة استجيبت لغيره. فسر الملك وقال: أدام الله لكم الخير.

كان طيطلوس قد اتخذ له قصرًا يقيم فيه من قصور الملك الأكبر، وكان فيه الخدم والجواري ومن بينهن جارية كانت تصلح أثاث طيطلوس وفراشه، وتنظفه وتنسقه حسب رأيها صباحًا ومساء، وكانت جميلة ذات عقل وخلق وسعة ومعرفة بالعلوم الكثيرة، ولكنها لا تعرف المدينة البيضاء، فأثارت هذه الصفات في نفس طيطلوس الرغبة في أن يتزوج منها، ولكنه خشى أن يقال: إنه لم يختر زوجته من بيوت الأمراء والملوك، وانحط باختياره إلى طبقة الخدم والجواري، ولبث مترددًا بين رغبته في صفاتها الفاضلة، وخوفه من العار والفضيحة، تدفعه الرغبة في الفتاة الممتازة بعلمها وأخلاقها وحزمها ورجاحة عقلها، ويصرفه عنها مخافة اللوم والانحطاط بنفسه أمام الناس في الوقت الذي سيتزوج فيه أمراء ملكه من بيوت الملك والإمارة، ورأت الجارية فيه من الصفات ما رأى فيها، فودت أن يكون لها زوجًا، ولكنها أخفت رغبتها وحرصت على أن يجد فيها رائحة منها، وإن كانت هي قد علمت بذكائها وعدم حرصه على إخفاء ما في نفسه - علمت - أنه يحبها ويرغب في الزواج منها. ولبث أيامًا يتقاذفه الحب والخوف حتى تغلب الحب وأرغمه على أن يطيعه، ويعصي الخوف ولا يعبأ به، وأرادت أن تطلعه على حقيقة أمرها، فجلست إليه ذات يوم وهو يأكل، وتحدثت إليه في شئون

كثيرة تستدعي سعة العلم والمعرفة، حتى اضطر إلى أن يسألها: وهل جواري الملك الأكبر يتعلمن مثلك ويثقفن ثقافتك؟

فقالت الجارية: ألا تزال بعد هذا تظنني جارية، لا أجيد إلا طهي الطعام، وغسل الأواني وتنظيف الغرف؟

فقال طيطلوس: وهل أظن شيئًا غير الذي رأيته؟

فقالت الجارية: لست جارية، وما أنا إلا نور بنت بيدا خطل وزير الملك الأكبر، ولما قتل أبي مع الملك الأكبر، ومن قتل من أمرائه خشيت أن ألقى عنتًا أو شرًا، فدخلت في غمار الجواري حتى تتخطاني الأنظار، وأعيش في مأمن من الاضطهاد أو الانتقام.

وكاد طيطلوس لا يصدق من شدة عجبه، ولكنه خضع لليقين الواقع وقال: سعد من كنت له يا نور.

فقالت نور: سعدت بك أنت أيها الوزير الكريم من تكون لك.

فعرض عليها طيطلوس أن تكون زوجة له، فقبلت، فسره ذلك، وقال: سأعلن الملك بذلك، وسيكون الزفاف يوم زفاف ابنه وبقية الأمراء.

ثم نهض وقبلت يده وخرج إلى الملك في ديوانه. ولما كمل المجلس قال له: لقد أخلصت لك حياتي و عملي ما وسعني علمي وحكمتي حتى أرضيتك وأرضيت قومك، ووددت لو وجدت بنتًا ممتازة في فضائلها وعقلها وعلمها لأنجب منها ولدًا أورثه العلم والحكمة، وتحسن أمه القيام على تربيته، وتنشئته في الأخلاق الكريمة، ليخلفني في ديوان الملك و ولي عهده، وقد وجدت ضالتي ومهبط آمالي، وهي نور بنت بيدا خطل وزير الملك الأكبر، فهي نعمة من الله في أخلاقها الكريمة، وعقلها الحكيم، وعلمها الواسع، وأرجو أن أزف إليها يوم الزفاف المعلوم.

فقال الملك: لقد شرحت صدري بخبرك هذا وفرحتني، وإن شاء الله ستكون لك المكانة السامية يوم الزفاف المشهود.

ومضت الأيام وجاءت الملكة تمرتاج والدة فيروز شاه والملك سليم والد أنوش وبقية الفتيات، ومن أحب من البلاد أن يشاهد هذا الزفاف،

ولما اطمأنت الملكة في مقامها واستراحت قالت للملك ضاراب: أريد أن آتي بالبنات اللائي سيتزوجن ليقمن عندي، ولأصلح أمرهن، وتخرج كل واحدة من قصري لتزف إلى زوجها، فأكون لهن جميعهن كأمهاتهن. فذلك أطيب لنفوسهن.

فقال الملك: ذلك شعور جميل، وإحساس رفيع، وعمل مشكور، وسأحضرهن إليك. ثم أصدر أمره إلى الأمراء أن يحضر كل أمير مخطوبته إلى الملكة تمرتاج في قصرها.

أتى خورشيد بتاج الملوك وكومندان.

وجاء فرخو زاد بأنوش بنت الملك سليم.

وأقبل مصفر شاه ومعه طوران تخت بنت الوليد ملك المدينة الصفراء.

وتقدم طيطلوس وفي يده نور بنت بيدا خطل وزير الملك الأكبر.

وحضر بهمنزار وكليلة.

وسعى إليها ابنها فيروز شاه وعن يمينه عين الحياة، وعن شماله جهان وهي من بنات الجن.

وكان الملك قد أمر كرمان شاه أن يدخل القصر ويجلس بجوار كومندان شاه فصدع بأمره.

كانت الملكة تستقبل كل قادمة بوجه يفيض طلاقة وبشرًا، وقول يرسل حنانًا وعطفًا، وإقبال يملأ القلوب أنسًا، وحديث عذب ينفح الوجوه عبيرًا، وكانت حريصة على التعرف بهن واحدة واحدة، ومعرفة ما لهن على الأمراء من فضل المعونة وقت الشدة، فعرفت لكل منهن معروفها وأياديها.

وقال الملك لكومندان: لا أنسى لك يا بنتي العزيزة فضلك على خورشيد وجيشي إذ يسرت لهم دخول المدينة أقوياء أعزة، وقد عاهدك خورشيد على أن تكوني له، ولكنه كان قد عاهد من قبلك تاج الملوك، ولا أحب أن يكون لك ضرة حرصًا منا على راحتك واعترافًا بمعروفك، ولهذا فقد اخترت لك ابن عمي كرمان شاه وهو لا يقل عن خورشيد في المنزلة والحسب والنسب وكريم الخلق والأدب، فأطرقت كومندان ساكتة.

وقالت الملكة: لا تخجلي يا بنيتي من التصريح فنحن في حاجة إلى إبداء رأيك في صراحة.

فرفعت رأسها وقالت: إنني ملك لكم، والملك الكريم أبي وأنت أمي، ولا أخرج عن طاعتكما، فإذا قبلني كرمان شاه خادمة له فأيامي سعيدة، ولا أنسى فضله.

فابتهج كرمان شاه وقال: إني أعرف أدبك وخلقك الكريم، وذكاءك الفياض بكل خير، ورضاك بي نعمة أسبغها الله علي، ولن أتلقاها إلا بالشكر الجزيل، فهنيئًا لي بك أيتها الفتاة الكريمة.

صفا المجلس، وأشرقت الوجوه فرحًا، ومنحت الملكة كل فتاة حلة حريرية مرصعة بالذهب والجواهر وقالت: أريد أن نمكث في الخلاء أيامًا نقضيها في فرح ومرح، ولهو ولعب، ثم نزفهن إلى أزواجهن بعد أن تشبع النفوس فرحًا بهن، فأمر الملك أن تضرب الخيام في فضاء بجوار المدينة حيث تقام حفلات الأفراح، وكان ما أمر به الملك.

انتهت أيام المرح على أحسن حال، ورجعت الملكة تمرتاج إلى قصرها، ومعها البنات اللاتي سيخرجن من قصرها إلى بيوت أزواجهن وقررت الملكة أن تزف جهان «الجنية» إلى فيروز في اليوم الأول: وفي اليوم الثاني تزف إليه عين الحياة، وتزف البنات الأخريات إلى أزواجهن، وكان فيروز من ذلك في ألم شديد يعرفه كل من رآه، لخوفه أن يغيظ هذا عين الحياة، ويثير في نفسها الغيرة الفطرية في النساء، وكان صادقًا في خوفه؛ فإن عين الحياة لعبت بها الغيرة، وجعلتها في مأساة حامية أليمة، حتى عزمت على أن تطلب من فيروز إبعاد جهان عنها لكيلا تشعر بمزاحمتها.

جاءت ليلة زفافها إليه، وأبرم العقد في قصر الملكة تمرتاج، وانتقلت إلى قصره في حفل بهيج يموج بالأنوار ويعج بالغناء والطبول والمزامير..

وفي الصباح قالت له جهان: أريد منك أمرًا وأرجو ألا تحول بيني وبينه.

فقال فيروز: لك ما تريدين يا جهان، ولن أخيب لك رجاء.

فقالت جهان: لا أحب أن أكون أقل من عين الحياة في كرم النفس وجميل

الخلق، وكما قبلت، وهي طيبة النفس، أن أتزوج قبلها، فإني أحب ألا أعكر صفو عشرتها وهناءتها معك بوجودي، ولهذا فإني أستأذنك في الرحيل إلى بلدي، على أن أكون لك مدى الحياة، وإن كنت لا أرجع إليك.

فأبى عليها ذلك، فجعلت ترجوه وتستعطفه حتى رضى، ثم سلمت عليه وقبلت يديه وودعته ورحلت إلى بلدها.

وبعد ساعة جاءه أبوه وطيطلوس ودوش الرأي ليهنئوه، فحكى لهم ما حصل، فتألموا ثم قالوا: ما فعلت «جهان» برحيلها إلا كل خير، ثم رجعوا إلى الملكة فأخبروها ففرحت وبلغت عين الحياة ما كان من «جهان» ورحيلها.

أعدت الملكة تمرتاج عين الحياة وصاحباتها وألبستهن الملابس الحريرية المرصعة بالذهب، وفرشت القصور والطرق بالبسط الوثيرة، وأضيئت منازل المدينة وشوارعها بالمصابيح، فكان ليلها كنهارها. وجيء بفيروز والأمراء وأبرم العقد في قصر الملكة، وأكلوا ما أعدته لهم من الطعام الفاخر، ثم أعطت ابنها تاجًا مرصعًا بالذهب والجواهر، واستأذنت الملك ضاراب في أن يضع التاج فوق رأس عين الحياة لأنها أصبحت ملكة بزواجها منه فأذن له، وتقدم فيروز فألبسها التاج وهنأها، فتقبلته فرحة ودعت له بالعز والسعادة. ثم أهدت الملكة لكل فتاة عقدًا كريمًا يزين الأعناق والصدور.

عزفت المزامير ودقت الطبول، وتردد في الجو الأغاني، وسار موكب الزفاف، ودخلت كل فتاة قصرها، وكانت ليلة حافلة بالفرح لم ترها المدينة من قبل.

❊❊❊

﴿ ١٤ ﴾

أقام الملك بعد حفلات الزفاف أربعة أشهر أمر في أثنائها أن يكون الملك سليم ملكًا على بلاد الملك الأكبر، وأن يرجع الملك سرور ملكًا في المدينة الخضراء، وأن يكون سيف الدولة ملكًا في مدينته، وما يتبعها من البلاد، ثم جمع مجلسه وقال: انتهت أعمالنا في هذه المدينة، وما بقى إلا إرجاع أمرائنا الأسرى من بلاد الملك الحليف، فليس من اللائق بنا أن ننساهم، وقد جاهدوا معنا جهاد المؤمنين الصابرين، وأرى أن نطلبهم من الملك الحليف؛ فإن أرجعهم تركناه وخلينا سبيله، وإن أبى رحلنا إليه وانتقمنا منه وأرجعناهم برغم أنفه.

فقالوا: ذلك خير ما نفعله، وكتب طيطلوس إلى الملك الحليف كتابًا يطلب منه أن يرسل إليه الأمراء: طمهور وقادر شاه وبهمنزار، وسيامك، ويهدده إن لم يرسل بحرب شديدة.

وأمر شبرلنك العيار أن يأخذ معه عشرة فرسان، ويمضي بكتابه إلى الملك الحليف، ويعطيه إياه ثم يأتي من عنده بما يشاء.

فقال: سمعًا وطاعة، ثم اختار عشرة فرسان وسار بهم إلى الملك الحليف بهم في عاصمته.

أما قائده منكوخان فإنه فر بجيشه مهزومًا بعد أن خطف بالمكر ثلاثة من أمراء المدينة البيضاء وأبطالهم. ودخلوا المدينة يجرجرون أذيال الكآبة والخيبة، ودخل القائد على الملك وشرح له ما لقيه الجيش من العنت والهزيمة وقال: لو ثبتنا أمام جيش المدينة البيضاء يومًا أو يومين لهلكنا ولم يبق منا أحد، وقد خطفت منهم ثلاثة، طمعًا في أن يجيء رجال ضاراب من ورائنا لنذيقهم النكال في بلادنا، ونقضي عليهم قضاء لا قيامة لهم من بعده.

فقال الملك: أحسنت صنعًا، وليتهم يتبعونك لنبيدهم ونجعلهم كعصف

مأكول. وإن خاف ملكهم ولم يأتنا ذهبت إليه وجعلته طعمة لنارنا في يوم عيدها، فحافظ على من عندك من الأسرى، ولا تؤذهم لنقدمهم إلى النار وأجسامهم سليمة.

فقبل القائد الأرض بين قدميه شاكرًا، وانصرف وصدع بأمره في شأن الأسرى، ولبثوا ينتظرون الملك ضاراب.

وبعد سنة قدم شبرلنك بكتاب الملك فأخذه وزير الملك الحليف ودخل عليه مطرقًا لا يرفع بصره إليه، وقال هذا رسول الملك ضاراب جاءنا بكتاب من عنده، فأمره الملك أن يفضه ويقرأه، ولما انتهى من قراءته قال: لقد ظن هذا الملك الأعمى أني كغيري من الملوك الذين غلبهم، فيخيفني بكتابه وسخف قوله، فاكتب إليه بأني لن أسلم إليه رجاله، وأنه إن جاءني أهلكته وسحقت جيشه، فذهب الوزير إلى دار الحكومة وكتب إلى الملك ضاراب كتابًا بذلك.

ولما كتبه الوزير ختمه بخاتم الملك جرمهان وسلمه إلى شبرلنك، فأخذه ورجع هو ومن معه من الفرسان إلى ملكهم ضاراب، فناوله الكتاب وأمر وزيره طيطلوس بقراءته على مسمع من مجلس الرأي والمشورة، فلما قرأه قال الملك: إن هذه الحرب ستكون قاسية طاحنة مجهولة المصير، لكثرة رجال الملك الحليف، فهم كالجراد المنتشر، أو السمك في البحر لا ينتهي عددهم، فمن الواجب أن ندبر أمرها تدبيرًا يكفل لنا الفوز والله معنا.

فقال طيطلوس: بلاد الحليف بعيدة، ولا يذهب إليها إلا فتية من الفرسان البارعين في فنون الضرب والطعن، وسيدي الملك غريب عن بلاده مدة طويلة، ربما جعلت بعض الملوك يظنون أنك لا ترجع إلى بلادك، فإذا بلغهم أنك رحلت إلى بلاد الملك الحليف قوي ظنهم، وطمعوا في البلاد وأغاروا عليها، ولهذا فإني أرجو أن تعود إلى بلادك ومعك الشيوخ والضعاف والجرحى والنساء على أن تمدنا بجنود من أشداء الفتيان. فإذا اجتمعت جموعنا وأصبحنا قوة ساحقة ذهبنا إلى مدينة الملك الحليف وأدبنا أهلها وملكها، وأرجعنا الأسرى في عزة وكرامة.

فقال الملك: إن هذا لا يتم إلا بعد سنة أو أكثر، وتلك مدة طويلة، ونحن نريد أن نقضي على رجال الملك الحليف ونرد الأسرى في وقت قصير.

فقال طيطلوس: لأن تطول المدة في حزم وحماية وحذر، خير من أن نلقي بأنفسنا في مواطن الهلاك والعطب، والنصر على الأعداء لا يُنال عفوًا، ولكن ينال بحسن التدبير والبصر بالأمور والأخذ بأسبابه، ولا ينبغي أن ندفع بأنفسنا في تلك البلاد البعيدة إلا إذا أعددنا لها ما استطعنا من الجند والسلاح والمئونة.

فوافق الملك ومجلس الشورى على رأى الوزير.

كان في ذلك الوقت قد رزق فيروز والأمراء والوزير طيطلوس أجمل الأبناء خلقًا فأنجبت عين الحياة «بهمن»، وأنوش «أردوان»، وكومندان «شيرواه»، وتاج الملوك «شيرزاد»، ونور «بزرجمهر»، وكان كل ابن من هؤلاء قرة العين لأبيه وأمه، فأرسلوهم وأمهاتهم مع الملك إلى المدينة البيضاء خوفًا عليهم من مخاطر الطريق والحرب.

رجع الملك ضاراب ومعه النساء والأولاد، ومن لا يصلح للحرب من الجنود والفرسان، وترك ابنه في مائتي ألف. وأمده بعد عودته بمئات الألوف من الفرسان وبالزاد الذي يكفيهم سنوات، وكان فيروز يتلقى المدد وينزله في المكان الملائم حتى اجتمع لديه جيش يستطيع أن يغزو به ملوك الدنيا، ثم أذن فيهم بالرحيل إلى مدينة الحليف، ووصاهم أن يأخذوا حذرهم من العيارين الأعداء لأنهم ماهرون ولهم حيل ومكايد لا تخطر على بال الحذر، ولا تدخل في حساب البصير.

سار فيروز بالجيش ملتزمًا في مسيره التؤدة ومجانبة السرعة، فكان يقضي ضحوة النهار في المسير، ثم ينزل في الظهيرة للأكل والراحة وفي هدوء الأصيل يبدأ السير إلى أن تغرب الشمس، ثم ينزل للمبيت حتى الصباح، واستمر على هذه الحال حريصًا على نظافة الجيش والبعد عن كل ما يسبب المرض وانتشاره في هذه الألوف المؤلفة حتى وصل إلى بلاد الملك عجيب وهي على حدود بلاد الملك الحليف، وبينها وبين عاصمتها مسيرة شهر

تقريبًا. وكانت تلك البلاد خصبة التربة كثيرة الأنهار والمزارع طيبة المناخ، صالحة للإقامة، فاتخذ فيروز من فضائها مساكن لجيشه، ودار مقامة تكون لهم المأوى والملاذ، ثم كلف طارقًا وبدر فتات العيارين أن يذهبا إلى مدينة الملك عجيب، وكانت على مرأى النظر وقال لهم: اذهبا إلى هذه المدينة، واعرفا كل شيء فيها، ولمن هي من الملوك، وما مدى قوة جيشه لنكون على بصيرة من أمرنا، فانطلقا إليها ورجعا بعد ثلاثة أيام.

وقال طارق لفيروز: دخلنا المدينة في هيئة دراويش الحجاز، وجبنا أسواقها وشوارعها، فوجدنا أهلها ذوي مرح وأنس، فأنسوا بنا، وفرحوا بلقائنا، وسألونا عن أنفسنا، فقلنا لهم: إننا من الدراويش فزاد فرحهم بنا، ثم ذهبنا إلى ملكهم عجيب، وسألناه الإحسان والمعونة فقال: ومن أنتم؟ فقلنا: نحن من الدراويش، فتنفس الصعداء ومنحنا كثيرًا من إحسانه. والمدينة اسمها مدينة السرور، وهي متينة الأسوار منيعة الحصون، وبها من الأبنية الفخمة ما يقل وجوده في مدينة أخرى.

ونرى أنك إن كتبت إليه بطاعتك وعرفته أنك جئت لقتال الملك الحليف،وقهره لبى دعوتك، وكانت أحب الأشياء إلى نفسه، فاغتبط فيروز، وكتب إليه بذلك، وعرفه بنفسه والغرض الذي جاء به.

ثم كتب: وأريد بكتابي هذا أن أعرفك أيها الملك الكريم أننا لا نريد بك شرًا ولا أذى، ولكنا نريد أن ندعوك إلى أن تزيل أعلام الملك الحليف، وترفع مكانها أعلام المدينة البيضاء، وأن تدخل في طاعة أبي، وأن تقبلنا في بلادك ضيوفًا عابرين، لنتخذ منها في أثناء القتال مأوانا ومنازلنا على ألا نكلفك شيئًا، فمعنا من المئونة ما يكفينا سنوات، وإذا اشترينا من مدينتكم شيئًا دفعنا ثمنه كاملًا، وبعد هذا فلا خوف عليك من الملك الحليف مهما تكن قوته وكثرة جنوده، فإن مصيره الخزي والبوار، وسوف ترى أعلام المدينة البيضاء خفاقة على ربوع بلاده.

أخذ طارق الكتاب وسار هو ورفيقه بدر فتات وذهبا إلى الملك عجيب في ديوانه، فناوله الكتاب وقال: قد كنا جئناك من قبل وعرفنا كل شيء عنك

وعن مدينتك، ونقلناه إلى ابن ملكنا فيروز شاه، فسره ما أنتم عليه وأرسلنا إليك بكتابه هذا.

أخذ عجيب الكتاب وألقاه في يد وزيره وأمره بقراءته، وكان الملك وجلساؤه يستمعون ويصغون في فرح وسرور. ولما فرغ من قراءته قال الملك: الحمد لله الذي استجاب دعاءنا، ورد عنا الملك الحليف وظلمه، وأرسل إلينا من يحمينا من طغيانه، والتفت إلى جلسائه وقال: أجيبوا داعي فيروز، وارفعوا راية المدينة البيضاء فقالوا: سمعنا وأطعنا، وأمروا المنادين ينادون في المدينة بالخروج من طاعة الملك الحليف، والدخول في طاعة ملك المدينة البيضاء الذي قيضه الله للقضاء على الملك الحليف وسلطانه الغاشم الممقوت، ثم كتب إلى فيروز بما طلب، وأنه في طاعته، ثم طوى الكتاب وألقاه في يد طارق وقال: ارجع به إلى سيدك وبلغه أن يأتينا على عجل. قرأ فيروز الكتاب وانشرح صدره، وأمر الجنود أن تتأهب لدخول مدينة السرور في سرعة عاجلة.

ولما وصلوا إلى المدينة وجدوها قد زينت وانشقت عن أهلها وملكها فرحًا بقدوم فيروز وجيشه، فأنزلوهم في ساحاتها، وجعلوا لفيروز والأمراء قصورًا يسكنونها، وأقاموا فيها أكثر من سنة، امتزج الجنود فيها بأهل المدينة، وارتبطوا برباط النسب والمصاهرة.

بلغ جرمهان نبأ قدوم فيروز وخروج الملك عجيب من طاعته فكتب إليه: وصل إلى علمي أنك عصيتني ونبذت طاعتي، فإن كان هذا لخوفك من ملك المدينة البيضاء، فاكتب إلي لأرسل إليك من يطردهم ويشتت شملهم ويجعلك في مأمن من شرورهم، وإن كان هذا عن رغبة منك فقد حق عليك غضبي، ووجب صلبك على باب مدينتك حتى تكون عبرة لغيرك.

وجاء رسول جرمهان وناول الملك عجيبًا كتابه، فلما قرأه عرضه على فيروز شاه وقال له: بم أجيب عن هذا الكتاب؟ فقرأه فيروز وقال له: لا تكتب شيئًا وقل لرسوله: إن رجال المدينة البيضاء مروا بمدينتي في طريقهم لقتالك، وقد وجدت طاعتهم أجمل بي وأهنأ، ففعلت ما فعلت، وعما قليل

سيكونون من حول مدينتك، فلتدافع عن عاصمة ملكك قبل أن تدافع عن غيرك، وانظر في مصيرك قبل أن تنظر في مصير غيرك.

رجع رسول جرمهان و بلغه ما قيل له، فغضب وقال: لأؤدبنه وقومه، ولأشوين وجوههم بالنار الحامية، وإني في انتظار قدومهم لأسقيهم كئوس الموت حامية. ثم أمر الجنود أن يستعدوا للقاء الأعداء.

وبعد أكثر من سنة من دخول فيروز مدينة السرور، ركب في جنده إلى عاصمة الملك الحليف حتى كانوا في أرض فسيحة صالحة وسار بهم للمقام فيها، وبينها وبين العاصمة مسير ثلاثة أيام، فأمر بالنزول فيها للراحة، وبعث إلى الملك الحليف كتابًا دعاه فيه إلى خيره وتسليم الفرسان الذين خطفهم، وأنذره الحرب والدمار إن امتنع واستكبر. ثم طوى الكتاب وقال لشبرلنك: أعط الملك الحليف كتابي هذا وارجع إلينا بما يرى ويختار.

دخل شبرلنك على الملك الحليف ومعه وزيره مهريار فقال الوزير: هذا رسول فيروز بن ضاراب ملك المدينة البيضاء يحمل كتابًا منه إليك، فأمره الملك بقراءته، ولما قرأه اربد وجهه وقال: ليس لابن ملك المدينة البيضاء وأبيه عندي إلا أن أجعل أرض بلادي مقبرة لجنودهما، فاذهب الآن وأعلن في المدينة أني سأنزل غدًا لقتال جنود المدينة البيضاء، لينتظرني كبار قومي في دار الحكم، أما الرسول فأبقه عندك عزيزًا مكرمًا غير مهان حتى أكتب إلى فيروز الذي أرسله بما شاء، فخرج الوزير وأنزل شبرلنك في قصره مكرمًا، وكان مهريار هذا قد أسر في نفسه أن يساعد الفرس بكل ما يقدر عليه، ثم أمر المنادين أن يعلنوا في المدينة أن الملك سينزل غدًا إلى دار الحكم لقتال جيش المدينة البيضاء.

نزل الملك في صبيحة الغد فوجد الوزراء والكبراء والقواد ينتظرونه أمامها فلما رأوه سجدوا له، ثم مشوا أمامه إلى قاعة الحكم، ولبثوا وقوفًا خُشعًا حتى جلس على كرسيه وأومأ إليهم بالجلوس فجلسوا، وقال: خشية أن نباغت في هذه الحرب بما لم يكن في الحسبان؛ فإني آمركم أن تكتبوا إلى البلاد ليرسل ملوكها من عندهم من الجنود، ثم اكتبوا إلى فيروز بأننا

مهلكوه وجنوده إن لم يدخلوا في طاعتي وديني، فإن أطاعني ودخل في ديني غفرت له، وأنعمت عليه، فقالوا: سمعًا وطاعة، وكتبوا إلى الملوك يطلبون النجدة والمعونة وإرسال الجنود. وكتب مهريار إلى فيروز بما أشار به الملك من الإصرار على القتال والإنذار بالفناء الشامل.

ثم ختم الكتاب وطواه وقال لشبرلنك: ارجع إلى سيدك وناوله كتاب الملك الحليف هذا، فأخذه شبرلنك شاكرًا وعاد مسرعًا.

ظن منكوخان قائد الملك الحليف الذي هزم في بلاد الملك الأكبر أنه سيشفي صدره من غيظ الهزيمة، ويرد إليه اعتباره في نظر جيش المدينة البيضاء بالتغلب عليهم وقهرهم، فسار إليهم في ألوف من الفرسان بأمر مليكه وهو موقن أنه الغالب المنتصر. وأمام جيش ضاراب حط رحاله، وضرب خيامه، واستعد لمعركة يظنها له، وأنه سيخرج منها مهيبًا فائزًا، ويخرج جيش ضاراب منها أذلة صاغرين.

بدأت المعركة وانطلق من جيش ضاراب رسل الموت، ونزلوا على جيش منكوخان نزول القدر، وجالوا فيهم جولة النار المضطربة علقت بأكوام من الهشيم، وما صرفهم عنهم إلا قدوم الظلام الذي يعلن بحلوله السلام وإغماد السيوف، وأن يأوي كل فريق إلى مسكنه ومأواه.

ودامت الحرب على هذه الحال، وكان الفتك بجيش الملك الحليف يزيد يومًا بعد يوم، فارتاع منكوخان، وجمع الأنقاض الباقية من فرسانه وفر هاربًا إلى مليكه، وقص عليه ما لقيه، وعرفه أن رجال المدينة البيضاء قوم لاسبيل إلى التغلب عليهم إلا إذا حشدت لهم الجموع، وأحيط بهم من كل جانب، فاضطرب الملك وقال: ولم لم تقتلوا فيروز شاه لينحل عزم جيشه، وتذهب رباطة جأشه.

فقال منكوخان: لم يمسك فيروز سلاحًا، ولم يقم من مكانه في صيوانه، لأنه لم يجد فرسانه في حاجة إلى قتاله، ولو اشترك معهم في القتال لفنينا من أول يوم بدأنا فيه القتال.

فقال الملك: ما كنت أظن أن رجال ضاراب ستقوم لهم قائمة في ديارنا،

ولكني سأسير إليهم وأريهم من ضروب القتال ما ينسخ ظلهم، ويجعلهم عبرة لغيرهم.

سار إلى جيش ضاراب الملك الحليف في أمم من الفرسان، وعسكر في مكان قائده منكوخان المهزوم، وبات ليلته، وفي الصباح تأهب للحرب، ودق طبله دقا أحدث دويًا، فأجابه جنود ضاراب بدوي من طبولهم كان أشد من دويهم. ثم التحم الجيشان، وجعل جنود ضاراب يسوقون جنود الملك الحليف إلى الموت سوقًا، وكأن الأرض تشققت لهم عن مردة من الجن يقتلونهم ولا يُقتلون، ويذبحونهم وهم آمنون، ودامت هذه الحال أياما حتى كاد الملك الحليف يجن من هول ما رأى، فصاح في جنده: اعتصموا بمدينتكم من هؤلاء المردة، وأغلقوا عليكم أبوابها فهي منيعة بأسوارها وحصونها، واتركوا هؤلاء الأعداء في الفضاء حتى تهلكهم الطبيعة والحاجة إلى الزاد، أو يولوا أدبارهم خائبين، وكان ما أمر به الملك فأسرعوا إلى المدينة ولاذوا بها، وأغلقوا عليهم أبوابها، وسار رجال المدينة البيضاء على آثارهم حتى عسكروا أمام مدينتهم.

جلس الملك الحليف في ديوان حكمه، وجمع وزراءه وأمراءه وقواده وأخذوا يتشاكون ما أصابهم، ويفكرون في الوسائل التي تكشف عنهم تلك الغمة التي نزلت بهم. وانتهى حديثهم إلى أن يكلفوا عيارًا من عيار يهم سرقة فيروز شاه، وبذلك يضطرب جيشه ولا يستطيع ثباتًا في مواقف القتال.

دعا الملك الحليف بأكبر عياريه واسمه «شنف» يجيد جميع اللغات ويجيد التنكر، ويستطيع أن يكون أحد أفراد أي أمة من أمم الأرض دون أن يعرفه أحد، ولما حضر بين يديه قال له: إذا كنت لا تنفعنا في هذه الشدة، فمتى نجني من ورائك نفعًا؟!

فقال شنف: إني بين يدي مولاي، فكلفني ما شئت.

فقال الملك: أود أن تسرق فيروز شاه.

فقال شنف: لا يأتي صباح الغد حتى يكون مقيدًا بين يدي مولاي.

اختار شنف أحد العيارين، وخرج به من المدينة، وكان هو في زي رجل من رجال المدينة البيضاء، وكان رفيقه في زي رجل من رجال المدينة الصفراء، واتفق هو والحرس على كلمة يقولها لهم ليفتحوا له باب المدينة، وسار في ظلام الليل، حتى كان بين الخيام.

كان شنف هذا قد ذهب من قبل خفية إلى جيش ضاراب، وعرف فيروز شاه، وكان يريد أن يسرقه لينال بذلك حظوة عند مليكه، ولكنه لم يستطع من بهروز العيار الذي لا يغفل لحظة عن حراسة فيروز، وكان مصفر شاه يشبه فيروز في شكله، فهو لا يختلف عنه في قليل ولا كثير. ولم يكن شنف العيار قد رأى مصفر شاه.

وفي أثناء جولان شنف بين الخيام لاح له في الظلام شبحان، وكانا لمصفر شاه والأشوب عياره، واقترب شنف من أولهما وحدق فيه ببصره، فظنه فيروز شاه وظن الشبح الثاني بهروز عياره وهو سائر من ورائه لحراسته، فتبعهما حتى دخل مصفر شاه صيوانه وكان فخمًا تبدو عليه أبهة الملك وهيبته، فأيقن أنه فيروز شاه الذي جاء ليسرقه وانتظر حتى ظن أنه غرق في نومه.

ثم دخل من خلف الصيوان وأشعل البنج، ولما أغمى على مصفر شاه تسلل شنف و رفيقه ودخلا عليه تم كتفه وحمله رفيقه، وانسل به خفية إلى باب المدينة، فطرق الباب وألقى للحرس كلمة السر، وفتحوا له، وذهب به إلى بيته، وكان منشرح الصدر بفوزه.

وفي الصباح أيقظه وأزال عنه إغماءه.

انتبه مصفر شاه فوجد نفسه مكتفًا وهو في مكان غير صيوانه الذي كان فيه نائمًا، ووجد عيار الأعداء أمامه فقال: أين أنا الآن؟! ومن جسر وسرقني؟!

فقال شنف: أنا يا سيدي، وهل سرقتك عسيرة على مثلي؟! أنت؟

فقال: أنا شنف عيار الملك الحليف، وقد كلفني أن أسرقك يا مولاي حتى يفقدك جيشك وتذهب شوكته ويضطرب حبله، وقد سرقتك الليلة،

وسأسرق بهزاد في الليلة القادمة، فأدرك مصفر شاه أنه كان يريد فيروز شاه، ولكنه أخطأ وسرقه فسكت ولم يتكلم.

جلس الملك الحليف في ديوان حكمه، ومعه الوزراء والأمراء ينتظرون شنف العيار، وما مضى زمن يسير حتى دخل عليهم شنف، ومعه مصفر شاه وقال: هذا عدوك يا مولاي سرقته الليلة من بين جنده، هذا فيروز شاه أتيتك به مكتفًا لا يستطيع حراكًا، فابتسم الملك فرحًا وقال: سأسبغ عليك يا شنف نعمتي، ولك جزيل شكري، وما عرفناك إلا عيارًا ماهرًا قديرًا، ثم التفت إلى مصفر شاه وهو يعتقد أنه فيروز شاه وقال: كيف حالك الآن يا فيروز شاه؟ أتظن أني أعجز عن القبض عليك، وإن كنت نائمًا في جحور جندك؟ إني لا أحب أن أقتل الملوك، فإما أطعتني، وإما ألقيتك في السجن وتركتك فيه حتى تموت. فقال مصفر شاه: عجبا لك أيها الملك إذ تتبع من يضلك من قومك، فما أنا فيروز شاه، ولكني أحد أتباعه الذين جاءوا معه لخدمته.

امتقع لون الملك الحليف وغطى وجهه غبرة الخزي والفشل، وساد مجلسه وجوم وكآبة، وأطرق شنف من الخزي والخيبة، ثم قال في هدوء الخجل واضطرابه: ومن أنت إذا لم تكن فيروز شاه؟ فقال: أنا ابن عمه مصفر شاه، خدعك عيارك وجاء بي إليك على أنني فيروز شاه، واعلم أن رجال فيروز شاه سيستولون على مدينتك، وأن فيروز شاه لن يقدر عياروك مجتمعين على أن يسرقوه ومعه عياره بهروز، فإن كنت تريد الخير لنفسك وقومك، فأطع فيروز شاه، وأسلم إليه المدينة، وهأنذا قد نصحت لك، لأن ديننا النصيحة، ويحذرنا الغش والخديعة وقال منكوخان: ما هو بفيروز شاه ولكنه مصفر شاه وصدق فيما قاله، فأصاب الملك الحليف غيظ من بعد غيظه وقال شنف: لا تبتئسوا وسآتيكم بفيروز في الليلة القادمة، وإن احتجب في السحاب، فأمر الملك بوضعه في السجن على أن يكون معه أحد الأسرى الذين جاء بهم منكو خان، فوضعوه في السجن ومعه سيامك، وأنس كل منهما بصاحبه وأفضي له بذات نفسه، وما عنده من الأخبار.

وفي الصباح لم يجد فيروز شاه مصفر شاه بين الأمراء فسأل عنه فقال عياره الأشوب: انصرفنا من عندك في الليل ودخل الصيوان لينام، وفي الصباح دخلت عليه فلم أجده، ولكني وجدت في الصيوان آثار بنج، فقال بهروز: لقد سرقه عيار الملك الحليف شنف وما كان يقصده ولكنه كان يريد سيدي فيروز شاه، ولكنه أخطأ أو عجز وسرقه، ولا بد أن أدخل مدينتهم وأرده وأرد الأسرى معه، وأعمل في المدينة ما يملأ صدر ملكهم غيظًا. فغضب فيروز وشدد الأمر باليقظة والقبض على كل شخص يُرى سائرًا في الليل، وأن يحال بين أي إنسان يريد الدخول في المعسكر ليلا مهما يكن أمره، وشاع هذا النبأ في الجند فحزنوا وزادت يقظتهم حتى لا تتكرر هذه المأساة.

قلق فيروز واعتزله النوم والراحة ونهض من فراشه ودعا ببهروز عياره وقال له: أريد أن أدخل مدينة الملك جرمهان الليلة للبحث عن مصفر شاه والعمل على خلاص الأسرى.

فقال بهروز: ذلك ما لا يكون، ولا ينبغي أن تلقي بنفسك في مواطن الخطر، فإن أي ضر يصيبك لا يقف أثره عندك، ولكنه يمتد إلى جيشك، ومن الواجب أن تحمي جيشك بحماية نفسك.

فقال فيروز: لا تحاول أن تبدل من عزمي، ولا بد من دخولي المدينة الليلة، فدبر وسيلة تمكنني من تحقيق ما أردت؛ فغاب بهروز ومعه ثوبان من ثياب فلاحي الملك الحليف، فلبس فيروز أحدهما ولبس بهروز الآخر، ثم مضى بهروز بسيده في الفضاء، ولما حان فتح أبواب المدينة أقبلا إليها كأنهما فلاحان آتيان من بعض القرى، ودخلا المدينة دون أن يعرفهما،أحد وجالا في المدينة وأسواقها، ودخلا قصر ملكها، وعرفا مكان السجن الذي فيه الأسرى، ولكنهما لم يهتديا إلى وسيلة تخلصهم، وبينما هما سائران قبيل الغروب سأل فيروز عياره: أين نبيت الليلة؟

وقبل أن يجيب بهروز سمعا رجلا كان على مقربة منهما يقول: بيت عبدك يا سيدي، وهو منا قريب، فارتابا في أمره.

وقال بهروز: وهل تعرفنا حتى تدعونا إلى بيتك؟

فقال الرجل: لا خوف عليكما، فإني من المدينة البيضاء وقد عرفتكما وأنتما في قصر الملك فتبعتكما حرصًا عليكما، وليس في بيتي غير ولدين وجارية أحضرتها لخدمتهما بعد وفاة أمهما.

فقال بهروز: إذا كنت من المدينة البيضاء فلماذا تركتها؟ ولماذا اخترت هذه المدينة لتهاجر إليها؟

فقال الرجل: أنا سعدان التاجر الذائع الصيت في المدينة البيضاء ولما مال الزمن، وخسرت الأموال، ولم يبق منها إلا قليل، أخذت ذلك القليل وهاجرت منها إلى غيرها محاولا أن أربح بالتجارة لأسترد مالي، ولكن نجم سعادتي كان قد أفل، وما سكت الزمن عني حتى ضيع جميع ما في يدي، فأخذت أنتقل من مدينة إلى مدينة حتى استقر بي النوى في هذه المدينة، واستخدمني وزيرها كاتبًا في قصر الحكومة، وجعل لي أجرًا شهريًا كفاني وأغناني، فتزوجت ورزقت بولدين، ثم ماتت أمهما فأتيت بهذه الجارية لتقوم بخدمتهما. ولما عرفتكما لزمتكما.

بان لهما صدق سعدان، وعرفه بهروز وقال له: سر أمامنا ونحن من ورائك، واحذر أن يعرفنا أحد أيًّا كان حتى أولادك وجاريتك.

فقال الرجل: لا خوف عليكما، ولن يعرفكما أحد أبدًا. ثم أدخلهما بيته وأسكنهما أجمل غرفه، وأقفل باب البيت فأصبح لا يدخله إنسان بغتة، وكان بهروز يخرج كل يوم إلى المدينة ليدبر وسيلة لتخليص الأسرى من سجنهم.

وذات يوم رأى بهروز كرمان شاه وعياره الأشوب واقفين في ثياب رجال الملك الحليف فدنا منهما وعرفهما بنفسه وسلم عليهما، وأخذهما إلى فيروز شاه في بيت سعدان، فسألهما عن سبب دخولهما المدينة فقال كرمان شاه: فزعنا إذ لم نجدك ولم نجد بهروز، وظننا أنكما دخلتما المدينة فتنكرنا وجئنا لنطمئن عليك، ولقينا بهروز ونحن نطوف في المدينة فجاء بنا إليك.

فقال فيروز شاه: يجب أن ننتهي من عملنا، ونخلص الأسرى في أقرب وقت حتى لا يتسرب رجالنا إلى المدينة واحدًا في إثر آخر، ويصبح الجيش خاليًا من كباره والقابضين على زمامه.

فقال بهروز: ذلك ما أعمل له في جد واهتمام، وقد اهتديت إلى حيلة، ولكني محتاج فيها إلى طبيب السجن.

فقال سعدان: أذن الله أن تنجح الحيلة، فإن طبيب السجن صديقي الحميم، وهو على دينكم، وكثيرًا ما أبدى محبته لكم، وتمنى أن يقوم بعمل ينفعكم.

فقال بهروز: أما الحيلة فهي أن يفحص الطبيب الأسرى ويقرر لاثنين منهم اللبن غذاء مضافًا إليه بعض العقاقير الطبية، ثم نضع في أوعية اللبن مبردًا يقطعون به قيودهم، ومثقبًا ينقبون به جدار السجن، فإذا ما عملوا لهم فيه فتحة نفذوا منها، ونكون في انتظارهم ونأتي بهم إلى تلك الدار إلى أن يأذن الله بالفرج، وسيفهمان الحيلة والغرض منها إذا وجدوا المبرد والمثقب في قعر وعاء اللبن. فاغتبط فيروز وقال: لاعدمتك يا بهروز، وقال لسعدان: علينا بالطبيب، فغاب عنهم قليلا وجاءهم به فتعارفوا وفرح بهم، ثم عرفوه وجه الحيلة فقال: أفدي بنفسي فيروز وأمراءه، وسيكون ما دبرتم ولن يشعر به أحد، ثم نفذت الحيلة وكان الأسرى عند فيروز في دار سعدان.

لبث فيروز شاه ومن معه من الأمراء والأسرى في مخبئهم لا يستطيعون أن يغادروه، ليقظة جنود الملك الحليف والعيارين منهم، ولأن أبواب المدينة أقفلت، ولم يستعمل منها إلا باب واحد وهو محاط بالعيارين والجنود، وكان أبناء فيروزشاه ورفقائه الأمراء قد بلغوا من العمر فوق العاشرة، وعُني ضاراب بتربيتهم وتعليمهم فنون القتال حتى برعوا فيها وأصبحوا لا يشق لهم غبار لقوة في أبدانهم، وجراءة تتوثب في صدورهم، وبراعة في الحرب لم يبلغ مداها أعظم الفرسان، كما شب ابن الوزير طيطلوس متعلمًا مثقفًا حتى فاق والده في الحكمة وسعة المعرفة وصادق الرأي والخبرة.

وبينما كان طيطلوس جالسًا يفكر في مصير الجيش، وكيف ينجو به سليمًا بعد هذه الكارثة التي أضعفته وأطمعت فيه أعداءه، حتى حبسوه في تلك الجبال ومنعوا عنه الماء والزاد - بينما كان على هذه الحال، وإذا غلام من المدينة البيضاء عليه وعثاء السفر وغباره واقف بين يديه وقال: أظن أنك

طيطلوس وزير الملك ضاراب، فأين فيروز شاه وفرخو زاد وأصحابهما من الأمراء لأبشرهم بما يسرهم؟ فانتعش طيطلوس وقال: بشرني بما عندك فأنا طيطلوس الحكيم، وأما من سألت عنهم فإنهم محبوسون في عاصمة الملك الحليف، ولو كانوا فينا ما حلت بنا تلك الكارثة، وما أصابنا من الضيق والخطر ما تراه الآن، وقد دخلوا تلك المدينة واحدًا بعد واحد ومضى عليهم فيها وقت طويل ولا نعرف شيئًا عنهم، فما وراءك يا بني من الأخبار؟

فقال الغلام: ورائي سليل المجد، ونجم الأمل، وكاشف الضر، الملك «بهمن» بن فيروز شاه ومعه جيش جرار من أبطال ضاراب، ويشد أزره مذل الجبابرة «أردوان» بن فرخو زاد، والأسد الكاسر «شير زاد» بن خورشيد، والبطل الأمجد «شير واه» بن كرمان، والحكيم العالم، والبصير الحازم «بزرجمهر» ابنك ووزير الملك «بهمن» ابن فيروز.

فقال طيطلوس: حمدًا لله وشكرًا، إذ لم يكلنا إلى أنفسنا، فأرسل علينا غيث رحمته، ونفحنا بنصر من عنده، وأين هم الآن يا بني؟

فقال: تركتهم أمس وهم سائرون، وأجهدت نفسي في المسير حتى وصلت إليكم الآن.

فقال طيطلوس: ارجع إليهم ليعجلوا بالقدوم إلينا فقد أحدق بنا الخطر ومنع الأعداء الماء عنا، وكدنا نهلك عطشًا.

فانفلت الغلام إلى الملك بهمن راجعًا كأنه الطير، وبلغه ما سمع من الوزير طيطلوس فاستحث الجند وحضهم على سرعة السير حتى أدركوهم والأعداء محيطون بهم ليقضوا عليهم، وكان طيطلوس قد أذاع في الجند نبأ هذا الجيش القادم لمعونتهم، فقويت عزائمهم، وأيقنوا أنهم هم المنصورون.

كان رجال الملك الحليف غارقين في نشوة النصر الذي ما كانوا يحلمون به، وإذا بالصيحات تأخذهم من خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وانتبهوا على ضرب السيوف وطعن الرماح فزاغت منهم الأبصار، وبلغت قلوبهم الحناجر، ورأي جيش ضاراب هذا الهجوم الباغت فانقضوا عليهم من الأمام، ودارت على رجال الملك الحليف دائرة الفناء، وانزاحوا عن

أماكنهم مرتدين إلى الوراء، وما نجاهم من الهلاك إلا أنهم دقوا طبول الانفصال، وفرح رجال المدينة البيضاء بنصر الله وتأييده، والتقى الجيشان، وتبادلوا آيات التهاني، وأجمعوا على أن يفتحوا المدينة ويجعلوا الملك الحليف ودولته نسيا منسيًّا.

كان مهريار وزير الملك الحليف مؤمنًا بقلبه ويعبد الله خفية، ويعلم أن فيروز وصحبه عند سعدان فقال له: أنت تعلم إيماني بالله ومحبتي لفرسان المدينة البيضاء المجاهدين في سبيل الله، وأحب أن أنقل فيروز شاه وصحبه إلى بيتي لأدبر لهم سبيل الخروج من المدينة، ولأن العيار شنف جاد في البحث عنهم، وتفتيش المنازل للعثور عليهم، وأخشى أن يفتش منزلك فيجدهم، ولكن منزلي لا تحوم حوله شبهة.

فقال له سعدان: شكرًا لك، والله تعالى يجزيك خير الجزاء ثم أخذه ومضى إليهم في بيته وعرفوه به، فاطمأنوا إليه، وانتقلوا معه إلى بيته آمنين، وبعد ثلاثة أيام ألبسهم الوزير ملابس الحرس، وأخرجهم من المدينة في جملة الجنود الذين أرسلهم الملك مددًا لجيشه المهزوم، وفي ظلام الليل انسلوا من جيش الملك الحليف ومضوا سراعًا إلى جيشهم، ولقيهم الحرس فعرفوه بأنفسهم، فسار بعضهم معهم وأعلنوا البشرى بقدومهم، وكانت ليلة هنيئة قضاها جيش المدينة البيضاء في فرح شامل و بهجة سابغة، ثم جلس فيروز وصحبه وهم فرحون بأبنائهم، وأخذ كل يقص ما جرى له، وكان لقاء الآباء لأبنائهم فياضًا بالفرح والحنان.

وعقد الملك الحليف مجلس الوزراء والأمراء وقال: لقد علمتم أن الحرب إن دارت بيننا وبين رجال المدينة البيضاء فإنا هالكون، وأنهم لا يسكتون عنا حتى ندخل في طاعتهم، وأنتم تعلمون أني أدين بالطاعة والانقياد، كما تدركون مقدار ما يلحقنا من العار إن هم ظهروا علينا وغلبونا على أمرنا، فكيف نخرج من هذه الورطة؟

فقال أحدهم: الأيام دول، والحرب سجال، وكم هزيمة أعقبها نصر، وكم من نصر أعقبه هزيمة، ومن العار أن نيأس ونستسلم ما دام فينا

قوة، ولأن نموت في الميدان خير من أن نحيا أذلة مستسلمين، فلنقاتلهم في الصباح، وليكن الملك في جنده يشد عزمهم، ويضرم نيران الحماسة في صدورهم، فوافقوا على هذا الرأي.

وفي الصباح خرج الملك الحليف من المدينة وأذن في جيشه أن يثبتوا ثم بدأ القتال، وما لبث أن رآه صاعقة ساحقة فطلب هو وجيشه المدينة يلوذون بأسوارها، ولكن الوزير المؤمن مهريار أبى أن يفتح لهم أبوابها، وكان واقفًا لحراستها، فاضطر الملك إلى الهرب في القفار، ولما أقبل جيش المدينة البيضاء فتح الوزير له الأبواب، ودخلوا المدينة، ورفعوا أعلام المدينة البيضاء على مبانيها، ونادوا بالأمير بهمن بن فيروز شاه ملكًا عليها، ثم رجعوا إلى بلادهم فرحين.

***